التصوير الساخر

فى القرآن الكريم

د . عبد الحليم حفنى

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

١٩٩٢

الاخراج الفنى / محمد المحجوب

«سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ»

قرآن کریم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لن أعجب اذا استنكر أحد عنوان هذا الكتاب أو موضوعه ، فلم يخل جيل أو عصر من المستنكرين لنسبة ألفاظ يرونها غير لائقة فى نسبتها الى الله كالسخرية والاستهزاء ، وقد رد الامام الزمخشرى على هذا فى أكثر من موضع فى تفسيره المشهور (فان قلت لا يجوز الاستهزاء على الله لأنه متعال عن القبيح ، والسخرية من باب العيب والجهل (١) ألا ترى الى قوله تعالى :

[قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين]

فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت : معناه انزال الهوان والحقارة بهم ، لأن المستهزىء غرضه الذى يرمى اليه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به ، وادخال الهوان والحقارة عليه ، والاشتقاق كما ذكرنا شاهد لذلك ، وقد كثر التهكم فى كلام الله تعالى بالكفرة ، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم ، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون) (٢) ·

على أن الأمر لم يكن فى حاجة الى دفاع مدافع ، فان الذين يستنكرون نسبة هذه الألفاظ الى الله كأنهم يستنكرون تعبير القرآن نفسه ، ويستنكرون

---

(١) المراد بالجهل السفاهة لأنها المعنى الأصلى للجهل فى اللغة ·

(٢) انظر تفسير الآية ١٤ من سورة البقرة فى الكشاف (الله يستهزىء بهم) ·

ورودها فيه منسوبة الى الله ، فما أكثر ما وردت هذه الألفاظ فى القرآن منسوبة الى الله سبحانه ، والى أنبيائه ، والى الصالحين من عباده ، ومن أمثلة ذلك بالنسبة الى الله فى القرآن :

(سـخر الله منهـم)

وكذلك :

(الله يستهزىء بهـم)

واذن فيمكن ايجاز موضوع هذا الكتاب كله فى أنه محاولة لشرح كيفية استهزاء الله بأعدائه والسخرية منهم ، ولا شك أن هذا المعنى فيـه تصور واضح فى الدراسات الاسلامية حول القرآن قديما أو حديثا ، فلا أعلم أن بحثـا طـرق هـذا الموضوع الا كتـابى السابق (أسلوب السخرية فى القرآن الكريم) ولكنى تبينت أن الكتاب لم يحقق كل ما كنت أهدف اليه ، فقد غلب عليه التركيز فى النواحى النظرية للسخرية وما أحاط بها من ملابسات تاريخية فى الاسلام ، بينما كان من أهم أهداف الكتاب ابراز السخرية نفسها وكيفية تصويرها وصياغتها من الناحية البيانية الأدبيـة، وكنت أحسب أن القارىء العادى يستطيع أن يتذوق مضمون الســخرية فى العبارات الساخرة فى القرآن ، وأن ترتسم فى ذهنه صورتها واضحة حين يستمع الى الصيغة التى صاغ بها القرآن سخريته ·

ولكنى تبينت أن ايجاز القرآن ، ودقته البالغة فى اشارة كل كلمة ، بل أحيانا فى كل حرف تجعل السامع العادى وان استوعب المعنى العـام للصيغة الا أنه يحتاج الى من يشير له الى مواضع هذه الدقة البالغة ، حتى يستطيع أن يتذوق جمال الصورة ، ويستمتع بأدائها الفنى الزائد عن معناها الظاهر ، فقد كنت أحيانا أستشهد بالآية أو الجملة التى تتضـمن سخرية ، مكتفيا بتوضيح السياق والملابسات ، متصورا أن هذا كاف لجعل القارىء يتمثل بناء الصورة الساخرة وهيكلها ، ومن ثم يتذوق جمالها ، ويستمتع بطرافتها ، ولكن الواقع أن هذا الجانب وهو صلب الهدف ، كان يحتاج الى مزيد من التوضيح وتحديد المعالم لكل صورة ساخرة ، وأمل أن يحقق هذا الكتاب بعض ما هدفت اليه ·

على أنه ينبغى أن يكون واضحا أن هذا الكتاب لم يهدف الى استقصاء مواضع السخرية فى القرآن ، ولا الى حصر أنواعها أو أهدافها ، وانمـا كان الهدف ابراز وجود هذا اللون فى القرآن ، وأنه لون واضح من أنواع أساليب القرآن العديدة المتنوعة ، ليكون هـذا مجرد فتح لباب البحث والدراسة فى هذا المجـال ·

ويمكن ايجاز فكرة هذا الكتاب من حيث اهم جوانبها فيما يلى :

أولا :

استخدام القرآن اسلوب السخرية يشتمل على عدة مزايا واهداف منهـــا ٠

١ ـ اسباغ روح الطرافة على بعض ما يسرده القرآن ، حتى لا تمل النفس العادية من الاستماع اليه مهما طال استماعها، وفى الحديث الشريف:

(روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فان القــلوب اذا كلت عميت)

والترويح يمكن أن يكون بالراحة ، وأن يكون بالتسلية ، وبأى شىء يخرج النفس من جفاف الواقع وحدته ، وهو منهج يتأسى به الخطباء والمعلمون والمؤلفون فى لجـــوئهم بين الحين والحين الى ما يبعث فى النفس بهجة أو انشراحا بطرفة أو فكاهة أو نحو ذلك حتى لا يمل السامع أو القارىء ٠

٢ ـ من منهج القرآن الواضح تنوع أساليبه فى عرض المعنى الواحد ، فالقرآن كثيرا ما يعيد عرض بعض المعانى والأغراض ذات الأهمية الخاصة مثل العقيدة ، ولكنه غالبا ما يعيدها فى أساليب متنوعة ، أحيانا فى صورة معنى مجرد ، وأحيانا فى صورة قصة ، وأحيانا فى صورة حوار ، وأحيانا فى صورة اغراء بوعـــد ، وأحيانا فى صـــورة تخويف بوعيد ، وذلك لسببين ، أحدهما أن أهميتها تستدعى تكرارها ، ولو كررت بأسلوب واحد لمل السامع من تكرارها ، ولكنها حينما تكسى ثوبا مختلفا تصبح كأنها شىء جديد ، والسبب الآخـر أن النفوس مختلفة فى نزعاتها وميولها ، فبعض النفوس يســتهويها المنطق العقلى المجرد ، وبعضها يستهويها أسلوب القصة ، وبعضها يجذبه صراع الحوار وهكذا ، فقد يستمع بعض الناس الى شىء فيمل سماعه حين يعرض عليه فى أسلوب عادى ، فاذا عرض عليه فى صورة قصة شغفت نفسه بالسماع اليه وهكذا ٠

فهذا التنويع فى العـــرض انما هو من باب الدعوة الى الله بالحكمة ، وليس من باب التكرار ، وقد يكون التكرار لتثبيت المعنى فى النفوس حتى يتاح لها أن تواصل التأمل فيه ، فقـــد يكون من الأنسب حينئذ اعادة عرضه بلفظه ، حتى لا تشغل النفس بالصياغة الجديدة للمعنى عن عمق التـــأمل ، وهذا مما ورد فى القـرآن فى المعانى التى تحتاج لأهميتها أن تكون ماثلة فى النفوس بصـفة دائمـــة ٠

٣ ـ سخرية القرآن سلاح فعال ذو أثر عميق بعيد ، ولكنه فى حقيقته سلاح دفاع وليس سلاح هجوم ، أما سلاح الهجوم فهو الدين نفسه ، حيث انه بطبيعته هجوم على الشر عامة ، وعلى الكفر بصفة خاصة، فهو حرب على الشر والكفر ، والحرب لابد أن يكون فيها طرفان ، ومن البدهى ألا يستسلم طرف الشر وأيضا الكفر مباشرة والا ما كان فى حاجة الى صراع وحرب ، فسيقاوم بكل ما لديه من قوة ، كما قاوم كل الأقوام أنبياءهم ، ولكن جبهة الشر والكفر فى العادة هى الأقوى اجتماعيا ، حيث ان الأديان لا تملك أساسا من القوة الا كونها على الحق ، وستضغط قوة الشر والكفر على الدين وأتباعه بكل ما تملك من قوة ، وهنا يأتى جانب من جوانب اعجاز القرآن ، وهو أنه يتضمن أسلحة يطلقها على قوى الشر والكفر حين تضغط وتهاجم، ومن بين هذه الأسلحة سلاح السخرية ، الذى لا يكاد يساويه فى خطورته وفى تأثيره سلاح آخر مادى أو معنوى ٠

ذلك أن السلاح المادى كالسيف لا يخيف الذين يتصدون للحرب لأنهم يعلمون مقدما أنهم سيواجهونه ، بل كان العرب وخصوصا شجعانهم يفخرون بأنهم يتمنون أن تكون منيتهم تحت ظلال السيوف، ويخجلون أن يموتوا على فراش ، فالذين يتصدون للدين وخصوصا أئمة الكفر هم من هذا الطراز ، فلا يخيفهم السلاح المادى ، وانما تخيفهم كل الخوف السخرية ، ولذلك كانوا يتقون غضب الشعراء وهجاءهم بكل ما يملكون ، فسخرية القرآن اذن أنفذ وأعمق فى جبهة الكفر من أى سلاح مادى ٠

وكذلك الأسلحة المعنوية بكل أنواعها كالتهديد والوعيد والاقناع والتنفير وغير ذلك مهما تكن آثارها فانها لن تبلغ أثر السخرية وخصوصا فى مجال معروف للباحثين ، وهو مجال العادات والتقاليد ، فمما يلحظه الباحثون أن للعادات فى الشعوب رسوخا يفوق رسوخ أى شىء ولا يقاومه شىء ، ولذلك فهى كبرى العقبات أمام الأديان ، وأمام كل دعوة اصلاح ، ولكنهم يلحظون أيضا أن أنجح الوسائل فى زحزحة العادات والتقاليد هو أسلوب السخرية ، فانك مهما حاولت أن تقنع شخصا بمساوىء عادة ما كعادة الثأر مثلا ، فانه قد يقتنع نظريا ، ولكنه واقعيا لا يستطيع التخلى عنها ، ولكن أسلوب السخرية لو أحسن استخدامه فهو أنجح وسيلة فى جعل الشخص يتحاشى أن يجعل نفسه موضع سخرية الآخرين ومن هذا المنطلق يمكن أن يتزحزح عن مزاولة عادة من العادات ٠

والعادات التى يحاربها الدين هى نوع من الشر ، وأحيانا من الكفر ، كعبادة الأصنام ، واذن سخرية القرآن فى هذا المجـال لا ينافسها سلاح آخر ٠

٤ ـ سخرية القرآن تتميز بأنها ليست سبا ولا انتقاصا لذات الانتقـاص كما يحدث فى سخرية الناس وهجاء بعضهم بعضا ، وانما هى معالجة لقضايا يهتم الدين بعلاجها بسلاح السخرية وغيره ، ودائما نجـد السبب فى السخرية من صلب الصورة الساخرة فى القرآن ، فنفـور المشركين من الدعوة الى الله ، وعدم استخدامهم عقولهم ، قضـية كبرى يعالجها القرآن بعدة أساليب ، ويجعل من أساليبه السخرية، ووقوف السادة عقبة أمام الدين وحائلا بين العامة والاتجـاه الى الله قضية أخرى خطيرة ، يعالجها القرآن بعدة أساليب ، ومن هـذه الأساليب السخرية من القادة والزعماء ، وهكذا ٠

ثانيـا :

أسلوب السخرية فى القرآن من أبرز جوانب الاعجاز فيه ، حيث تتمثل الروعة الفنية فى صوره من أى جانب نظرنا اليها منه ، ومن هذه الجوانب :

١ ـ الصورة الساخرة فى القرآن تبرز أمام المتأمل وكأنها لوحة ناطقـة كاملة ، وقد تشتمل الصورة على أكثر من منظر ، ولكنها فى مجموعها تجسد صورة ناطقة بالهدف الذى يهدف اليه القرآن منها ، دون تجاوز هذا الهدف ، وتتركز قوة الصورة وتأثيرها فى جوهرها وليس فى الاعتماد على الألفاظ ، بمعنى أن الانتقاص من المسخور منه ينصب على جوهره وكيانه المعنوى ، دون الاعتماد على الفاظ جارحة كما يحدث فى سخرية البشر ٠

٢ ـ تمتاز الصورة الساخرة فى القرآن رغم ضـخامة مضمونها بقلة الفاظها ، فان الصورة كلها أحيانا تنحصر فى جملة واحدة ، أحيانا فعلية مثل :

[ولا تصعر خـدك للناس]

فان هذه الجملة على ايجازها ترسم صورة بالغة السـخرية من المختال المغرور حيث تشبهه بجمل مريض بالصعر الذى يصيب الابل فيلوى أعناقها ، وأحيانا جملة اسمية مثل :

[ان شانئك هـو الأبتر]

فانها ترسم للحاقد على شخص النبى صورة حيوان مشـــوه بقطع ذنبه ، واحيانا فى جملتين اثنتين ، نحو :

(كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة)

حيث تصور الجملتان نفور المشركين من الدعوة الدينية بقطيع من حمر الوحش فوجىء بأسد ففر القطيع مذعورا كل حمار الى جهة، وهكذا تبرز لنا نماذج واضحة من اعجاز القرآن فى ايجازه ٠

٣ ــ رغم معرفة المفسرين باشتمال القرآن على كثير من أساليب السـخرية والاستهزاء بأعدائه كما يؤكد ذلك الامام الزمخشرى وغيره ، بـل كما يصرح القرآن نفسه ، فأن منهجهم فى أغلب الأحيان عدم تطبيق هذا عمليا فى مواضع السخرية ، بمعنى أنهم يحاولون غالبا أن يتحاشوا شرح المعنى الساخر على أنه سخرية ، فيتجهون به الى أسلوب الحقيقة ، فيظل المعنى الحقيقى غير واضح ، ويصبح كـل ما يقولونه غير مقنع ، لأنه ليس هو الهدف من التعبير ، وانما الهدف السخرية والاستهزاء ، ومثال ذلك شروحهم وخلافاتهم حول :

(ان شانئك هـو الأبتر)

وما يتصل بالتعبير من سياق يسبقه ، وكذلك تعبير :

(فى جيدها حبل من مسد)

ولكننا حين ننظر الى مثل هذه الصور من زاوية السخرية التى هى الهدف يصبح المعنى واضحا أبلج ٠

فكل هذا وغيره مما يتعلق بأهمية أسلوب السخرية فى القرآن ، سواء من حيث أهدافه الدينية ، أو صياغته الفنية مما دعانى الى خوض هذا الغمار الصعب ، وليست هناك صعوبة أشق من الكتابة عن القرآن فى مسلك غير مطروق ، فاستغفر الله مما قد يزل به القلم ، واسأله جل علمه التـوفيق ٠

ســلاح السخرية

قد تبدو السخرية بين الناس فى صورتها الظاهرة ، وفى مضـمونها القريب مجرد دعابة للمزاح أو التسلية أو اشاعة روح الفكاهة ، وقد يبدو الساخر مجرد امرئ فكه ، خفيف الظل ، يحب الدعابة ، وتســتهويه الفكاهة ٠

ولكن الأمر أبعد من ذلك بعدا غير يسير ، سواء من حيث مضـمون السخرية ، أو من حيث شخصية الساخر ٠

مضمون الســخرية :

فأما مضمون السخرية فمهما يكن نوعه أو شأنه فهو سلاح ، بمعنى أنه سلاح يوجهه الساخر نحو الشخص الذى يسخر منه ، أو الموضوع الذى يرجه اليه السخرية ، وهذا السلاح مصوغ فى أسلوب ، قد تشتد حـدته وقد تلين ، ولكنه فى كل الأحوال محاط بهذا الغلاف المحبب الى النفوس ، وهو غلاف الفكاهة ، أو التصوير الطريف الذى يجد طريقه الى القلوب فى يسر وسهولة ٠ فهو سلاح من أسلحة الحرب النفسية ، ولكنه من أشـد أسلحتها خطورة وتأثيرا ، فالسخرية فى حقيقتها اذن سلاح ، والسلاح لا يتصور الا فى موقف العداء والخصومة ، بصرف النظر عن درجة العداء والخصومة ، غاية الأمر أنها سلاح يريد صاحبه أن يخفيه ، أو يخفى حدته وخطورته ، ومحاولة الاخفاء لا تقلل من أهمية السلاح وخطورته ، بل ان الرغبة فى الاخفاء تدل على تصميم صاحبها على الوصول الى هدفه ، وعلى ألا يترك للطرف الآخر فرصة لاتقاء هجومه ، لأن السلاح فى أغلب

الأحيان غير ظاهر فى السخرية ، حيث انها مغلفة بغلاف الفكاهة وروح المرح • فالغلاف وسيلة ، والوسائل لا تتعارض أبدا مع الأهداف ولا تناقضها ، بل هى دائما فى خدمة الأهداف •

وعلى سبيل المثال ، فان الذبح هو الذبح ، ولا يغير من نتيجته وهدفه أن يكون الذبح بسكين حادة ، أو سكين مثلمة مفلولة ، وكل ما بينهما من فرق هو الرحمة بالمذبوح حتى يتحقق الذبح ، كذلك الشنق ، يستوى فيه الخنق بحبل خشن ، وحبل من حرير ، والفرق بينهما هو الرحمة بالمخنوق حتى يتم الاعدام ، وكذلك أقراص الدواء المر ، تغلف فى العادة بطبقة حلوة المذاق ، حتى يستسيغها المريض ، ولكن هذه الطبقة لا تؤثر فى مفعول الدواء ، ولا تقلل من نتيجته ، وهكذا دائما تكون الوسائل فى خدمة الأهداف والنتائج •

والسخرية ليست الا وسيلة الى هدف ، فهى سلاح يراد به الطعن فى شخص أو فى شىء معين •

الساخر :

وأما عن الساخر فكل انسان معرض لأن يكون فى موقف لا يرضيه ، حيث يجد هذا الموقف مصطدما بمصلحته ، أو بعقيدته ، أو بعاداته ، أو نحو ذلك ، وقد يتفاوت شعوره بالتضرر من هذا الموقف تفاوتا كبيرا أو يسيرا ، ولكنه فى أغلب الأحيان لا يخلو من أحد حالين ، اما أن يشعر بالعجز عن اظهار سخطه فيطوى سخطه بين جنبيه ، ويكتمه فى قلبه ، أو يسر به الى من يأنس اليه فى أحسن الأحوال لقدرته ، واما أن يشعر بالقدرة على اظهار سخطه ، فيعلن هذا السخط ، وبعض الناس — وان كانوا قلة — يجدون فى أنفسهم زيادة على اظهار السخط قدرة على رفض ما يسخطهم وعلى التصدى له ، فيقاومون ما يسخطهم ، وهنا تختلف أساليب المقاومة ، كل حسب استعداده ، وحسب الأسلوب الذى يناسبه فى المقاومة •

ومن أساليب المقاومة السخرية التى يعبر بها الساخر عن تحديه لخصمه ، أو تعاليه عليه ، أو يعبر بها عن انكاره لوضع أو شىء لا يرضيه ، فان السخرية عادة اما أن تكون من شخص ، واما أن تكون من وضع غير مرضى ، وفى كلا الحالين تعبر السخرية عن موقف الساخر ، وعن درجة سخطه وانكاره ، وعن مقدرته الفنية فى صوغ السخرية •

وفى تصنيف الموقف حينئذ قد يوصف الساخر من شخص بانه خصم ، والساخر من وضع أو شىء معين بانه ناقد ، كما توصف السخرية نفسها بأنها حرب نفسية ، وهذا الوصف الأخير يلقى ظلاله على وصف (الخصم)

من حيث ان الخصومة يتجه بها العرف عادة الى صورة العداء الصريح ، والصراع المباشر بين طرفين ، ولكن الخصومة فى الحرب النفسية تتخذ أشكالا وأساليب تختلف عن الخصومة المباشرة أو الصراع المحســـوس اختلافا جوهريا ، رغم أن الاختلاف فى الشكل والأسلوب فحسب ، أما فى النزع النفسى ، وفى الهدف فليس بينهما من اختلاف الا أن يكون فى درجة العـــداء ٠

ولكنا نستخلص من مضمون الحديث عن الساخر أن موقفــه ينبع دائما من قوة ومقدرة ليس على اعلان السخط والانكار فحسب ، وانمــا المقدرة أيضا على المجابهة والمقاومة ، حيث تتمثل مجابهته ومقــاومته فى سخريته ، لأن سخريته سلاح وجهه الى موضوع السخرية ، وهى درجــة أعلى بكثير من درجة الذين لا يستطيعون التعبير عن سخطهم ، بل هى مناقضة لها ، وأعلى أيضا من درجة الذين يستطيعون اعلان سخطهم ، ولكنهم يكتفون بهذا الاعلان دون أن يستطيعوا توجيه طعن أو سلاح الى مصدر سخطهم ٠

واذن فالسخرية لابد أن تنبع من مصدر قوة ، والساخر لابد أن يكون على درجة من القوة والمقدرة على المجابهة والمقاومة ٠

وهذا جانب من جوانب الحكمة فى تضمن القرآن أساليب السخرية وصورها التى يوجهها نحو الخصوم ، وذلك من جانبين :

١ ـ احدهما أن القرآن الكريم يتضح فى كل منهجه وأساليبه التكامل ، ومن ذلك أنه من المعروف أن الاسلام يمتــاز بأنه يجمــع بين الدين والدنيا بصورة أساسية وليست كمالية ، ومن تطبيق هذا عمليا أنه يدعو الى الله كما تدعو الأديان السماوية ، ولكنه يفترض كما هــو الواقع أنه سيواجه بعداوة ومجابهة ، فلا يكتفى بالوضع الروحى ، وانما يسلك سبيل الواقع بين الناس وهو الرد على هجوم الأعــداء بهجوم آخر ، ويتفنن فى أسلحة دفاعه وهجومه كما يتفننون ، ومن هذه الأسلحة النفسية المألوفة بين الناس سلاح السخرية ، وتكــون نتيجة التكامل حينئذ أن القرآن يتضمن الدعوة الى الله ، ويتضمن أسلحة الدفاع والهجوم ضد من يتصدون لها بالعداوة والمقاومة ٠

٢ ـ والجانب الآخر أن القرآن باستخدامه هذه الأسلحة ، ومنها سلاح السخرية يضع المؤمنين به فى موضع قوة دائمة مهما تذبذبت قوتهم العسكرية أو الاجتماعية ، فكما رأينا أن السخرية لابد أن تنبع من مصدر قوة ، فكذلك القرآن باشتماله على السخرية من أعدائه يضع فى أيدى المؤمنين سلاح قوة ، ويغرس فى نفوسهم أنهم هم الــذين

ينبغى أن يسخروا من أعدائهم ، ومعنى هذا أنهم دائما فى موضع قوة ، وهذا المعنى تعززه كل أساليب القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى :

(فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون

والله معـكم) (١)

والقرآن كلام الله ، أنزله سبحانه ليكون فى جانب من جوانبه سلاحا للمؤمنين ، وأنزل سلاحا للمؤمنين وليس للمسلمين ، لأنه لا يستفيد من القرآن فائدة حقيقية الا المؤمنين به فى قلوبهم ، أما المســلمون بالسنتهم أو بأنسابهم فلن يستفيدوا منه هذه الفائدة ، ومن هــذا القبيل يمكن أن يتضح السبب فى انتكاس راية الأمة الاسلامية رغم أن تعدادها اليوم يربو على الألف مليون ، بينما ترتفع راية المؤمنين منهم مهما قل عددهم أو عتادهم ، والأمثلة لذلك عديدة مشهورة ، منذ بدء الاســلام فى موقعــة بدر حتى يومنــا الحاضر فى مجاهدى أفغانستان ، وفى انتفاضة الحجارة الاسلامية فى فلسطين ٠

واذن فالسخرية لابد أن تنبع من قوة ، والقرآن حين يستخدم أسلوب السخرية ضد أعدائه ، انما يعطى المؤمنين به سلاحا قويا ، ويضع أقدامهم على موقع قوة ٠

الوان الســخرية :

السخرية هى كل ما يؤدى الى الاستهزاء والتحقير ، وليس لها صورة أو سلوك معين ، فقد تكون بالاشارة ، كالنظرة المصحوبة بالاحتقار ، وبما يلابسها من وضوح هذا الاحتقار فى ملامح الوجه ، فلم يصدر حينئذ من الساخر قول أو فعل محدد يوصف بأنه سخرية أو احتقار ، ولكنها اشارة واضحة الدلالة ٠ وقد تكون السخرية بالقول ، كما يعبر شخص بأسلوب لفظى معين عن سخريته واحتقاره ٠ وقد تكون بعمل ، كما يفعلون باللص فى بعض البيئات البدوية ، حيث يكتفون حين يضبطونه متلبسا بالسرقة بأن يطلوه بلون معين ، من مادة كالجير أو الطين ، ثم يطوفوا به البلدة مشهرين به وهو على هذه الحال ، فهم لا يريدون بهذا العمل عقابا بدنيا له ، وانما يريدون تحقيره والاستهزاء به ، وهو عقاب نفسى أشد من أى عقاب جسدى ، ومن هذا القبيل عقاب الله لهذا الزعيم الذى اجتمعت لــه القوة فى جانبيها الاقتصادى ممثلا فى المال ، والعسكرى ممثلا فى البنين

---

(١) ٣٥ سورة محمد ، وكونهم على الحق كان لكونهم الأعلين ، وعليهم أن يؤيدوا هذه القوة المعنوية بقوة عسكرية مادية ٠

(ان كان ذا مال وبنين) فان العقاب فى الآخرة لا حدود لبشاعته وقسوته ، ولكن الله يختار له عقابا لا يعد عقابا بدنيا ، وهو أن تجعل على أنفه علامة مثل الكى على أنفه ، فان الكى عندهم ليس عقابا ، بل هو علاج للأمراض ، ومن أمثـالهم (آخر الدواء الكى) ولو علم أى مغاضب لله أن كل عقـابه الكى على أنفه لطاب نفسا وقر عينا ، ولكن المراد عقاب نفسى لهذا الزعيم البالغ القسوة بتشويه أبرز موضع فيه ، وهو الأنف رمز العزة والشموخ ، وهو لا يستطيع اخفاء هذا التشويه والتحقير الا اذا أخفى شخصيته نفسها، ففى القرآن الكريم عن عقاب هذا الزعيم ذى المال والبنين :

(سنسمه على الخـــرطوم) (١)

واذا وازنا بين هذه الألوان من السخرية ، الاشارة والقول والفعل ، نجد أن القول هو اشد هذه الألوان تأثيرا وأمدها أجلا ، ذلك لأن الاشارة والفعل كلاهما وقتى يزول بزوال الحدث ، بمعنى أن كلا منهما ينتهى بانتهاء صورته ، سواء أكانت اشارة أم عملا ، ولا يبقى منهما الا ذكرهما ، والذكر نوع من القول ، وليس هو الحدث ، فلو سخر شخص من انسان باشارة من عينيه أو شفتيه ، ثم لم يتحدث أحد بهذا ، لانتهت السخرية بانتهاء موقفها ، ولا يبقى الا الانطباع الذى أحدثته فى نفوس مشاهديها وحدهم ٠ وكذلك لو فعل شخص بشخص آخر فعلا يجعله سخرية لمن يراه ، ثم لم يتحدث هو ولا غيره بهذا لانتهت هذه السخرية بانتهاء الموقف ، ولا يبقى الا مشاهدة من يشاهد هذا الأثر ، أما غير المشاهدين فلا علم لهم ، وبالتالى فان أثر هذه السخرية محدود ومحصور فى المشاهدة الحسية وهى مهما اتسعت فانها محصورة على أوسع الفروض فى حياة صاحبها أو فى جيله٠

أما السخرية بالألفاظ أو صوغ فعل السخرية فى ألفاظ فانه أوســـع انتشارا وأطول عمرا ، ولتقريب هذا المعنى نضرب مثالا لشاعر يهجـو الأعداء ساخرا ، فيصف أنهم فى الحرب أسروا أعداءهم ، ثم ساقوهم كما تساق الماشية ، فان سوقهم كالماشية استهزاء وسخرية بالأعداء ، ولو افترضنا أنهم كانوا قد فعلوا ذلك بالأعداء حقا ، ثم لم يتحدث الشـــاعر بهذا ولم يصفه ، لانتهت هذه السخرية وهذا السوق للاعداء بانتهاء الحرب وتصفية حساباتها بينهم ، وأقصى ما يتصور من أثر هذه السخرية انتهاؤها بانتهاء الجيل الذى حدثت فيه ، طالما لم يتحدث بخبرها أو لم ينقلها أحد الى غيره ، ولكن حديث الشاعر جعلها تستمر حياة ليست لها نهاية منظورة ، وجعلها أيضا تنتشر انتشارا ليس له حدود منظورة ٠ فالسخرية بالقـول اذن أوسع انتشارا وأمد أجلا ٠

---

(١) ١٦ سورة القلم ٠

ومن هذا القبيل سخرية القرآن من هذا الزعيم الموسوم على أنفه ، فان هذه السخرية فى حقيقة أمرها سخرية بالقول وليست بالعمل ، لأن هذا العقاب النفسى لم يحدث بعد ، وانما سيحدث يوم القيامة ، فايراده فى القرآن من قبيل التصوير الساخر ، وليس العمل الساخر ٠

والعرب منذ بداوتهم الأولى قبل الاسلام كانوا أعرف الشعوب بقيمة الكلمة ، ولذلك كانوا أحرص الشعوب على الاهتمام بالكلام وتضمينه كل خبراتهم ومواهبهم ونزعاتهم على اختلاف الوانها ، وهذا السياق الذى نتحدث عنه وهو القول المتضمن إساءة كانوا يحذرونه أشد مما يحذرون أى شىء ، ومن أمثالهم المشهورة (اتقوا مأثور الكلام) أى احذروا الكلام الذى يتضمن اساءة اليكم ، سواء أكان صادرا منكم ، أم صادرا ضدكم ، ومعنى المأثور أى الذى يبقى ويتناقله الرواة ، ولذلك كانوا ينفرون من الكذب ، لا لأنه عيب خلقى فحسب ، بل لأنه يبقى عادة بعد صاحبه ويرويه الناس عنه فيصبح أثرا ٠

ومن الواضح أن كل ما فى القرآن من سخرية انما هو سخرية بالقول، وأوضح منه أن القرآن يختلف عن سائر القول اختلافا شديدا ، سواء من حيث الانتشار ، أو من حيث البقاء ، أو من حيث مستوى الصياغة ٠

أهداف السخرية

من الواضح أن السخرية سلاح نفسى ، ولكنه اذا قيس بغيره من الأسلحة النفسية فانه سيكون اشدها تاثيرا اذا أحسنت صناعته ، وأحسن استخدامه ، وصناعته هى دقة الصياغة ، والجاحظ يفيض فى ابراز أهميـــة الصياغة فى مجال الفكاهة بالذات ، وأن الفكاهة البالغة التاثير قد تفقد روحها وتاثيرها اذا ألقيت بأسلوب آخر غير منـــــاسب أو غير دقيق ، والسخرية هى نقد أو طعن مصوغ فى ثوب فكاهة ، أو فى ثوب فكه ٠

وغنى عن البيان أن القرآن هو القمة غير المنازعة فى دقة الصياغة ، ومن الأغنى عن البيان أن صانع هذه الصياغة هو العليم بطبائع النفوس ، وبأبلغ الوسائل فى التأثير فيها ، وهو الله سبحانه ٠

والقرآن حين يستخدم السخرية سلاحا فانه يحقق بذلك هدفين لا هدفا واحدا ، احدهما ضد الأعداء ، والآخر لخدمة المؤمنين :

اولا :

اما ما يتعلق بالأعداء ، فاذا أردنا أن نعرف مدى تأثير الســـخرية فى الخصم فعلينا أن نلقى نظرة من الناحية النفسية لنحاول أن نستكشف مدى تأثير السخرية فى النفس ، وذلك اننا حين نسخر من شخص انما نكون فى

حقيقة الأمر قد هبطنا بدرجته ومنزلته الى درجة شديدة التدنى ، لأن السخرية ليست الا تحقيرا واستهزاء واستخفافا بالمسخور منه ، وهذه المعانى أشد ما يصيب المرء ذا الكرامة والمروءة ، فهى أشد ايلاما للكريم النفس من أى أذى جسدى أو مادى ، والكريم لا يتردد فى التضحية بمصلحته أو ماله أو حتى بحياته فى كثير من الأحيان ليتفادى موقف هوان يشعر بأنه سيزرى به ويحط من قدره ، لأنه يرى أى ايلام أخف من الايلام فى كرامته وعزة نفسه ، والشاعر النميرى القديم يعبر عن هذا فيقول فى هذا المعنى الرائع :

نعرض للطعان اذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

فالطعن بالسلاح ولو كان فى الوجه أيسر من التعرض للهوان ، بل ان التعرض للهوان غير وارد أصلا فى احتمالات الشاعر ، والسخرية أوجع ألوان الاهانة

وخطورة السخرية أنها تتجه الى جوهر الشخصية ، بما تتضمن هذه الشخصية من كرامة وكيان اجتماعى ، ولو كان اتجاه السخرية اتجاه عداوة تقليدية عادية لكان أخف وطأة مهما يبلغ الضرر ، ولكنه اتجاه احتقار ، والفرق بعيد بين العداوة والاحتقار ، فانك قد تعادى شخصا بأى صورة من صور العداء ، وقد تبلغ كراهيتك اياه أى مبلغ ، ولكنك مع ذلك فيما بينك وبين نفسك تحترمه ولا تحتقره ، وتجد نفسك تقديرا واكبارا له ، وقد تعترف بفضائل له رغم كرهك اياه ، ورغم تمنيك أن تنزل به أى ضرر أو هزيمة ، ولكنك حين تحتقر شخصا فمعناه أنك نزلت بقدره ، وأنك لا تشعر نحوه باحترام ، وانك لا ترضى بأن يكون ندا لك أو مكافئا ، أما العداوة فان الأصل فيها التكافؤ والتقارب بين الخصمين ، والا لما وصفت بأنها خصومة أو عداوة ·

واذن فالعداوة فى حقيقة أمرها ليست الا مشاعر وعواطف لكلا الطرفين نحو الآخر ، ولكنها مشاعر سخط وانعدام مودة ، وهذه المشاعر لا تتضمن حكما على الطرف الآخر ، ولا تقويما له ، أما الاحتقار فهو حكم على الطرف الآخر بأنه لا يحمل من الخلق أو الصفات ما يؤهله للاحترام والتقدير ·

واذا نظرنا الى نفسية المسخور منه حين يجد نفسه قد وضع فى هذا الوضع المهين ، سنرى مدى الايلام النفسى له ، وهذا مما تهدف اليه سخرية القرآن ازاء أعداء الله ·

فان سخرية القرآن تلاحق أعداء الله فى كل موقع فيحط من قدرهم حطا مزريا من شأنه أن يحطم قوتهم المعنوية ، فحينما يكون أعداء الله فى موقع

العقيدة مثلا ، فان سخرية القرآن تصـــــورهم فى صورة مزرية متنوعة التحقير ، تنصب أساسا على الاستهزاء بعقولهم وأفكارهم ، واذا كانت أساليب القرآن فى بعض ألوانها تجعل من بعض أعداء العقيدة أعـــداء تحاورهم وترد على أفكارهم ، فان أسلوب السخرية فى القرآن لا يســـمح لمن توجه اليهم بأن يرتقوا الى درجة العداء ، بل ولا الى درجة الآدمية فى بعض الأحيان ، انما تصورهم فى صورة الماشية أحيانا ، وفى صور أسوأ منها أحيانا ، ولنا أن نتصور نفسية من يجد نفسه مصورا فى صـــورة ماشية ، أو ماشية وضعها أسوأ من سائر المواشى ، وحينما يكون أعـداء الله فى موقع التعالى والقيادة الضالة ، فان سخرية القرآن تصورهم فى صور شتى ، كلها تنزل بهم ليس الى مرتبة الأشخاص العاديين ، وانما الى مرتبة بالغة السوء ، يأبى أن يكون فيها أقل الناس شأنا ، كما سنرى من ذلك فى مواضعه وهكذا ·

واذن فالسخرية تحقير وتهوين ·

وحينما يكون المسخور منه فى وضع الخصومة كوضع الكافرين مع المؤمنين ، فان المسخور منه سيكون فى الوضع الأدنى والأضعف نفسيا ، وهذه نتيجة بالغة الأهمية فى الحروب النفسية ، فان الهدف الأساسى لأى حرب نفسية هو اضعاف نفسية الخصم ، وجعله يشعر بأنه فى المرتبة الأدنى والأضعف ، وهذه هى الهزيمة فى الحرب النفسية ، وهى بداية الهزيمة ووسيلتها فى الحرب العسكرية ·

وهذه النتيجة هى التى يريد القرآن أن يضع فيها أعداء الله ·

ثانيـــا :

فيما يتعلق بالمؤمنين عرفنا من العرض السابق أن السخرية لا تنبع الا من مصدر قوة ، بل ومن شعور بالقدرة على المقاومة ، لأن الســـخرية نفسها من المقاومة ، لأن الخلاف فى العقيدة ، أو فى الرأى ، أو فى أى اتجاه ، حتى ولو كان تنافسا بين طرفين ، كل ذلك يعد نوعا من الخصومة بين طرفين أو أطراف ، فالطرف الذى يسخر من خصمه انما يوجه اليـــه طعنا بسلاح من أسلحة الحرب النفسية ، والطعن بأى سلاح ، وأى أسلوب معناه أن الطاعن لديه قوة وقدرة على المقاومة ·

والقرآن يريد لكل مؤمن أن يكون قويا ، كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

(المؤمن القـوى خيــر واحب الى الله من المؤمن الضعيف)

وكل اتجاه فى القرآن يحفز المؤمنين الى التشبث بالقوة ، ولا يقال انه يدعوهم الى القوة مجرد دعوة ، لأن القرآن يشير الى المؤمنين فى أكثر من موضع ، وبأكثر من أسلوب أنهم أقوياء فعلا ، وما عليهم الا أن يتمسكوا بهذه القوة ويستغلوها فى سبيل الله ، والفرق كبير بين أن يدعوهم الى القوة ، بما معناه أن القوة ليست موجودة لديهم ، وبين أن يدعوهم الى التشبث بالقوة ، فان معناه أن القوة موجودة ولكن يمكن أن يفقدوها اذا فرطوا فيها ٠

والقوة الموجودة لدى المؤمنين حقيقة ، وهى تعتمد على أكثر من أساس ، وليس على أساس واحد ، ومن هذه الأسس :

١ ـ كونهم على الحق وخصومهم على الباطل ، فان هذا الشعور يمثل قوة راسخة فى النفس ، تمد صاحبها بمشاعر التفوق والعلو ، ومن المعروف أن شعور أى طرف بأنه يملك حقا يدافع عنه هو السبب الأقوى فى الانتصار ، وهو ما يعبر عنه بالقوة المعنوية فى الحروب والصراعات ، وعلى العكس من ذلك فان فقدان الشعور بالحق يجعل نفسية صاحبه خائرة لأنها لا ترتكز فى الصراع على أساس ثابت ، وكأن هذا الطرف يسائل نفسه حينئذ : علام أصارع ؟ وما الهدف الذى أسعى اليه فى هذا الصراع ؟ واذا كان الهدف باطلا أو زائفا فهل يستطيع هذا البطلان وهذا الزيف أن يصمد امام موقف خصمى صاحب الحق ؟ ونحو ذلك من الخواطر التى لابد أن تراود هى أو شىء منها نفس صاحب الباطل فتضعف موقفه ، وتضعف مقاومته، ومن محيط هذا قوله تعالى يخاطب المؤمنين :

[فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون ٠٠٠] (١)

فان علو المؤمنين قد تكون له جوانب كثيرة ، ولكن أقوى هذه الجوانب بل أساسها أنهم على الحق وخصومهم على الباطل ، واذا قيل فان صاحب الباطل قد يعتقد أنه على حق ، فالجواب أن الحق اذا كان واضحا فان وضوحه اظهار لبطلان الباطل ، أو على الأقل تشكيك فى موقف الباطل ، وفى هذا الأسوأ من الفروض وهو الشك فان الحق الظاهر سيكون هو الأقوى لأن ظهوره ووضوحه يجعله حقا متيقنا ، بينما الشك فى أحقية موقف الباطل ضعف وبداية انهيار ، والنتيجة أن الحق هو القوة النفسية ، أو على أهون الفروض هو

---

(١) ٣٥ سورة محمد ٠

الأقوى ، والايمان هو الحق الواضح ، فكان من المنطقى أن يكـون المؤمنون كما وصفهم القرآن هم (الأعلون)

٢ - ومن أسس القوة فى موقف المؤمنين شعورهم بتأييد الله اياهم ، وقد لا يكون هذا المعنى واضحا أو مقنعا لغير المؤمن ، بل قد يراه الملحد وهما وخيالا ، ولكن الواقع والتاريخ كلاهما يثبت أن قوة الايمان لا تعدلها قوة ، وان قوة الصمود والمقـــاومة النابعة من الايمان لا تدانيها قوة ، ومن الواضح أن أساس هذه القوة فى نفس المؤمن شعوره بأن الله معه ، وأن موقفه انحياز الى جانب الله ، ومن ذلك نجد المواقف التاريخية المشهورة من المؤمنين فى كل الأديان ، والتى لم يتردد المؤمنون فيها فى احتمال أبشع ألوان العذاب ، وأشد أنواع الألم ، وفى بذل الحياة تمسكا بجانب الله ، وحرصا على رضاه ، ومن أشهر هذه المواقف موقف ايمان السحرة من طغيان فرعـون وكفره ، حين هددهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وبصلبهم على جذوع النخل ، وبالموت ليعودوا الى الكفر ، فاذا هم يجيبونه ســاخرين :

[لا ضير انا الى ربنا منقلبون] (٢)

بمعنى أن كل ما تهددنا به وأشقه على النفس الموت لن يضرنا ولن يغير من الواقع ، والواقع أننا لابد أن نرجع الى الله بالموت ، فأنت لن تفعل أكثر من هذا ، وحين يعذبهم فرعون بأى أنواع من العـذاب مهما قست ، وحين يقتلهم بأية صورة من القتل مهما بلغت بشاعتها فقد يبدو لبعض الساذجين أن فرعون انتصر ، والحقيقة الواضـحة عكس هذا ، فان الصراع بين الطرفين ليس حول التعذيب أو الموت ، بمعنى أن هدف فرعون الواضح ليس هو التعذيب أو القتل لذاتهما ، فهما محض وسيلة الى الغاية ، أما الغاية الوحيدة له فهى خضوعهم واستسلامهم لما يطلب منهم وهو الكفر ، والنصر والهزيمة ، انما يدوران حول هذا الهدف ، فاذا خضعوا فانهم يكونون قد انهزموا ، ويكون فرعون المنتصر ، واذا لم يخضعوا فان فرعون هو المنهـزم ، وهم المنتصرون ، وقد انتصر السحرة انتصارا مدويا باصرارهم على موقفهم وتحديهم فرعون حتى الموت ، فمن أين جاءت هذه القـــوة للسحرة الذين أتوا وكل ما يتمنونه ارضاء فرعون بانتصار سحرهم ، واقصاه أن يمنحهم على انتصارهم أجرا ؟ ومن البدهى أنهم لم يكونوا يملكون حينئذ الا الايمان بالله ، ومن بدهيات الايمان استشعار

(٢) ٥٠ سورة الشعراء .

المؤمن انه فى جانب الله وأن الله فى جانبه ، وهذا التجاوب مع القوة الهائلة التى لا تحد وهى قوة الله تنتج عنه لدى المؤمن قوة هائلة لا توصف ، كهذه القوة التى تحلى بها السحرة حين انحازوا الى جانب الله ٠

وهذا المعنى ـ وهو قوة المؤمن النابعة من انحيازه الى جانب الله ـ يتكرر فى القرآن كثيرا بأساليب مختلفة يغلب عليها المجاز ، ومن ذلك هذه الاشارة فى الآية السابقة :

[فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم] (٣)

فاذا كان اساس هذه القوة وهذا العلو هو كونهم على الحق ، فان هذا الحق هو الايمان بالله ، والايمان بالله معناه أن المؤمن فى جانب الله ، ومن كان فى جانب قوة الله الذى لا يغالب فلابد أن يكون هو الأقوى ، ولكن القرآن يزيد هذا المعنى وضوحا فى تعبير (والله معكم) ٠

ومن ذلك أن الله سبحانه حينما أرسل موسى وأخاه هارون الى فرعون، وهما يعلمان أن فرعون يملك كل أسباب القوة ، وهما لا يملكان من أسبابها المادية شيئا ، فان الله يعطيهما قوة تفوق قوة فرعون وكل قوة ، هى الانحياز الى جانب الله ، أو (معية الله) ويضمن لهما التفوق بمجرد هذه (المعية) دون أن يصدر من الله أى شىء مادى ضد فرعون حينئذ ، ففى القرآن عن هــذا :

[قال لا تخافا اننى معكما اسمع وارى] (٤)

فمجرد معية الله بما يترتب عليها كاف فى تحقيق (لا تخافا)

وهذا الحديث ليس استطرادا ولا ابعادا عن صلب الموضوع ، فــان صلب هذا المعنى الذى نتحدث فيه هو أن القرآن يضع المؤمنين دائما موضع القوة ، ويعطيهم من الأسلحة ما يدعم هذه القوة ، ومن هذه الأســلحة سلاح السخرية ، فالقرآن كلام الله ، ولكنه فى الوقت نفسه لسان المؤمنين وسلاحهم ضد خصومهم ، فحين يسخر القرآن من أعدائه ، فهى أيضا سخرية المؤمنين من هؤلاء الخصوم ، فيكون المؤمنون حينئذ من النــاحية العملية هم الساخرين ٠

---

(٣) ٣٥ سورة محمد ٠

(٤) ٤٦ سورة طه ٠

ومن تكرار القول أن السخرية لابد أن تنبع من قوة ، واذن فالساخرون وهم المؤمنون أقوياء ، وهذا مما يستهدف القرآن أن يحققه للمؤمنين فى خصومتهم مع الشرك والمشركين ، ومع كل من يعاديهم ٠

النتيجــــة :

مما يعرفه علماء الاجتماع أن السخرية من أنجح الوسائل فى تغيير العادات والتقاليد ، ومعنى ذلك أن أسلوب السخرية يتضمن قوة هائلة فى التأثير النفسى والاجتماعى ، لأنه من المعروف أن للعادات والتقــاليد سلطانا اجتماعيا يصفونه بأنه أقوى من سلطان الدين والقانون معــا ، ويضربون مثالا لهذا السلطان بعادة الثأر ، فان المجتمع الذى يزاولها يعلم أنها مخالفة للدين وللقانون ، ومع ذلك لا يستطيع التخلى عن مزاولتها لأن سلطانها أقوى من أى مؤثر آخر ، وكون السخرية تبلغ من قوة التأثير أن تنتصر على العادات والتقاليد فانها تكون فى درجة هائلة من القوة ، رغم أنها تبدو فى صورة فكاهة أو مرح ، ولكن الواقع أن صورة الفكاهة أو المرح لا تقلل من تأثيرها ، بل لعلها من أهم عوامل تأثيرها ، حيث تدفــع النفوس الى تقبلها ، ثم الى تداولها ، ثم عدم الملل من تكرارها والمحــافظة عليها ، كالطبقة الحلوة المذاق التى تغلف بها أقراص الدواء المر ، فان هذه الطبقة لا تقلل من تأثير الدواء ، بل هى التى تجعل المريض يتقبل هذا الدواء ، وهناك معنى بالغ الأهمية فى تأثير السخرية ، وهو أن الفــكاهة محببة بطبيعتها الى النفوس وصــوغ النقد أو الهجوم بروح الفــكاهة كالسخرية مما يجعل النفوس تسرع الى تقبله ، ومن هذا تنتشر الســخرية وتتداولها الألسنة على نطاق واسع بمقدار مقدرة صانع السخرية على حسن صوغها ونسجها ، وعلى سبيل المثال لو وازنا بين الهجاء بأسلوب عادى ليست فيه صياغة فنية طريفة ، أو بين اهانة أو شتائم توجه الى شخص لتحقيره والاساءة اليه ، وبين المعنى الذى هجا به الشاعر هــذا الشخص ، أو الشتائم التى وجهت الى هذا الشخص ، فسنجد الفرق هائلا من حيث التأثير ودرجته ، فان الهجاء أو الشتائم مهما تبلغ من الاساءة الى شخص أو جهة ، فانها لا تنتشر الا بين الذين يعنيهم هذا الشــــخص المهجو ، أو يعنيهم الموقف نفسه ، أما حين يصاغ المعنى نفسه فى أسلوب سخرية ، فان كل النفوس تحرص على سماع هذه السخرية اذا كانت مصوغة فى صورة فنية جيدة ، لأن النفوس حينئذ لاتعنيها الاساءة الى هذا الشخص ، ولا يعنيها الموقف ٠ اذاته، وانما يعنيها أن تستمع بطرافة صياغة هذه السخرية ، فتحرص على سماع السخرية لذاتها بصرف النظر عن قائلها ، أو عمن توجه ضـــده ٠

وتطبيق هذا بالقياس الى سخرية القرآن ، أن القرآن الكريم هاجــم أعداء بأساليب عديدة ، بأسلوب الاستنكار العادى ، وأســلوب التسفيه

لمواقفهم وسلوكهم ، وأسلوب القصة التى تحكى مواقف منكـــرة تماثل مواقفهم ، وهكذا ، ولكننا نستطيع أن نتصور أن كل هذه الأساليب انما يتدبرها ويقف عند مضمونها المؤمنون بالقرآن ، والذين هم منحازون الى حزبه ، أما حين يصاغ الهجوم على أعداء الله فى صورة سخرية ، فان انتشار هذه السخرية ، والحرص على سماعها وتناقلها سيكون على وجه اليقين أوسع كما وأعمق كيفا من أى أسلوب آخر ، بل ان كثيرا من أعداء الله أنفسهم سيحرصون على سماع هذه السخرية لطرافتها ، ثم ان الذى يسمع الهجاء العادى أو الشتم يمل سماعه مرة أخرى ، بينما لا يمـــل تكرار سماع طرائف السخريات ٠

ولكن الأهم من هذا كله فى تأثير السخرية هو جانبها النفسى داخل نفسية من توجه اليه السخرية ، فلا شىء يهز كيان الشخص ، ويحطم من قوته المعنوية كما يهزه شعوره بأنه أصبح سخرية لأحد ، ونستطيع أن نوازن بين شخصين ، أحدهما يتعرض للموت فى موقف حرب أو مبارزة ، وشخص يتعرض لسخرية الآخرين من حوله ، ولا شىء غير السخرية ، فان الذى يتعرض لمواجهة الموت قد يظل قويا متماسكا لشعوره بأن الناس من حوله ينظرون اليه برضا أو اعجاب بموقفه ، بل ان هذا الشعور قد يزيده قوة واستهانة بمواجهة الموت ، بينما الشخص الذى يتعرض للسخرية يزداد ضعفا وانهيارا فى أغلب الأحيان لمجرد شـــعوره بازدراء النـــاس اياه واستخفافهم به ، واذن فتأثير السخرية أقوى من أى تأثير آخر مهما يكن مظهره ، ومن هذا القبيل كان تأثير السخرية فى تغيير العادات الراسخة ، فان معتنق أى عادة يتشبث بها ، ومهما نصح أو تحامل عليه أحد لتغيير عادته فلن يتزحزح غالبا عن عادته ، ولكن اذا شعر بأن مزاولة هذه العادة ستجعله سخرية للناس فانه سيقلع حينئذ عن هذه العادة ٠

وعلى سبيل المثال ، فانه كان من عادة الزعماء الاجتماعيين ورؤساء القبائل اتخاذ مظاهر معينة تدل على مكانتهم فى المجتمع ، منها طول الثياب حتى يجرها خلفه ، ومنها اتخاذ وضع معين للرأس والعنق ، بحيث يبدو صاحبهما وكأنه معوج العنق ، أو كأنه حين يمشى يشيح بوجهه الى ناحية أخرى ، اعلانا عن تعاليه عمن حوله ، وعن أنه متميز أو متسلط متجبر ، وهذا المظهر معروف فى كل المجتمعات قديما وحديثا ، ومعروف أنه تعبير عن الغرور والكبرياء والتعالى على الناس ٠

والقرآن يبغض كل خلق ينحرف عن الخلق السوى ، فيبغض خلق الغرور والتعالى وينهى عنه بأساليب كثيرة ، ولكن أشد هذه الأساليب

تأثيرا فى النفوس هو أسلوب السخرية الذى يصوغ به النهى عن هـذا الخلق ، كقوله تعالى على لسان لقمان وهو يوصى ابنه :

[ولا تصعر خـدك للناس] (١)

فان لفظ (تصعر) سخرية بالغة بالمتكبر المتعالى ، وهى سخرية مصورة فى صورة ، فان الصعر يعرفه العرب مرضا من أمراض الابل ، ويصيب العنق منها فيجعله معوجا بحيث يمشى البعير المصاب به ، صـدره الى امام وعنقه الى جهة أخرى ، فيرسم القرآن هذه الصورة للمتكبر المتعالى ، الذى يمشى معوج العنق ، مشـيحا بوجهه عن الناس تكبرا وتعـاليا ·

ويمكن أن نتصور أساليب أخرى للنهى عن خلق التكبر والتعالى ، ولكن شيئا منها مهما يبلغ فلن يبلغ التأثير النفسى لهذه السخرية ، فان عامة الناس وأتباع هذا السيد المتكبر كانوا بطبيعة الحال يعجبون بهذا المظهر على أساس أنه دلالة على الزعامة والسيادة ، ولكنهم بعد سماعهم هذا التصوير الساخر ، وان هذا المظهر ليس دلالة على السيادة ، وانمـا هو أشبه بمرض الصعر الذى يصيب الابل ، فانهم حينئذ سيتبدل اعجابهم استخفافا وتفكها وضحكا من هذا المظهر ، وصاحب المظهر نفسه حين يشعر بأن مظهره أصبح مثارا للسخرية والاستخفاف فانه لن يسـتطيع بعد ذلك اصطناع هذا المظهر ، وهكذا لن نجد وسيلة أو أسلوبا يبلغ من التاثير مبلغ السخرية ·

ولهذا استخدمها القرآن الكريم ·

---

(١) ١٨ سورة لقمان ·

مجالات السخرية

ومجالات السخرية لا يمكن بداهة حصرها ولا تصنيفها ، لأن السخرية ليست الا تعبيرا عن عـــدم الرضـــا مصـــوغا بأسلوب فكه طـريف ، وكلا الأمرين ، عدم الرضا ، وطرافة التعبير عنه لا حـــدود لتفاوتهما ولا لتنوعهما ، فعدم الرضا قد ينصب على شخص فى شكله أو سلوكه أو خلقه أو صلاته ، أو أى شىء يتعلق به ، وقد ينصب على شىء معين أيا كان هذا الشىء ، لأن هذا الشىء مبعث ضيق أو نفور أو سخط فى أى جانب من جوانبه وقد ينصب على عادة من العادات الشائعة فى المجتمع ، أو سلوك منتشر ، سواء أكان سلوكا قديما أم طارئا على المجتمع ، وهكذا لا نستطيع أن نحصر المجالات التى توجه اليها السخرية ٠

وكذلك صياغة السخرية نفسها ، من البداهة أنه لا قواعد لهـا ، ولا حدود لدرجة تأثيرها ، وأقصى ما قد يقال فى ضوابطها أن حدة أســلوب السخرية أو لينه يتناسب مع درجة السخط فى نفس الساخر ، فكلما كان أشد سخطا كانت صياغته للسخرية أشد ايلاما ، وبالتالى أشد تأثيرا ، هذا اذا افترضنا أنه يملك القدرة الفنية على التحكم فى الصياغة ، لأن اللبنة الأولى فى الأساس الذى تبنى عليه صياغة السخرية هى مقدرة الساخر واستعداده الفطرى لصياغة السخرية ، فليس كل انسان مهمـا بلغ من الذكاء أو من السخط يستطيع أن يصوغ سخرية ، بل وليس كل أديب أو شاعر مهما بلغ من المقدرة الأدبية أو الشعرية يستطيع أن يكون ساخرا، وانما هو استعداد فطرى ، قد تنميه الملابســات الاجتماعية أو الثقافية أو غيرهما مجرد تنمية وصقل ٠

ولتقريب هذه المعانى غير المحددة نستطيع أن نضرب بعض الأمثلة التطبيقية ، فعلى سبيل المثال تعد النزعة المعروفة عالميا عن الشعب المصرى، وهى التعبير عن أحواله أو آلامه بالفكاهة نوعا من أسلوب السخرية ، فكل وضع لا يرضى عنه الشعب المصرى نجد تعبيرا شعبيا عنه فى صورة فكاهة أو ما يسمى (نكتة) وهى فى حقيقة أمرها تعبير أو تصوير ساخر عن عدم رضاه عن هذا الوضع ، ومن المعروف أن الشعب المصرى يجيد التعبير عن مشاعره وخصوصا فى حالة السخط بالأسلوب الساخر الذى يصاغ غالبا فى صورة تجسيد وابراز لموضع السخط ، ولو أنّ أحدا أو جهة استطاعت أن تجمع هذه السخرية لكانت ثروة فنية نادرة ٠

وعلى سبيل المثال فان الشعب المصرى كان يضيق بتعالى الأتراك وتعاظمهم خلال الاستعمار التركى ، فخرجت فكاهات كثيرة تعبر عن هذا الضيق ، منها ما ذهب مذهب الأمثال العامة ، كقولهم (حسنة وأنا سيدك) يعنون أن التركى حتى وان ساءت حاله الى درجة التسول وطلب الصدقة فانه لا ينسى أن يذكر من يطلب منه الصدقة بأنه سيده ، وليس كل الذين يصوغون السخرية متدينين أو يراعون الآداب الدينية ، بل كل همهم ابراز موضع السخرية ، ومن ذلك فى السخرية من تعالى الأتراك عليهم ما يصورونه فى صورة قصة مؤداها أن موظفا تركيا كان له اشراف على عمل ما ، ففى أثناء مروره على العمال وجدهم يحتفون بواحد منهم يتميز بأنه يلبس عمامة خضراء ، وكانت العمامة الخضراء شعار الذين ينتمون فى نسبتهم الى النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة ، فضاق هذا الموظف التركى بأن يجد من هو أشد حظوة منه بالتبجيل والتعظيم كصاحب العمامة الخضراء ، فسأل : لماذا يلبس هذا الرجل عمامة خضراء؟ قالوا لأنه من سلالة النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذ يفكر فى أية وسيلة تجعله أعلى من ذلك ، فاذا هو يقول بدون تفكير : ولكنى من سلالة الله ٠

وما من حاكم فى مصر قديما وحديثا الا صيغت فى شأنه سخريات من الشعب ، لأنه لا يخلو مجتمع من تناقضات واختلافات فى الطبائع والاتجاهات ، فاذا أرضى طائفة فستسخط الطائفة المضادة لها ، وهكذا ، فضلا عن أن فى طبائع كثير من الحكام وسلوكهم ما يثير السخرية ، وفى بعض أحكامهم ونظمهم أحيانا ما يثير السخط والاستنكار ، وحيث كان الحاكم دائما محط الأنظار فان كل ما يصدر عنه من كل صغيرة وكبيرة مرصود ، وقد تعجز بعض الشعوب عن التعبير عن سخطها ، وقد يثور بعض آخر منها للتعبير عن سخطه ، ولكن الشعب المصرى اتخذ سبيلا وسطا ، فهو عادة لا يثور ثورة الهياج والغضب المفتعل ، وفى الوقت نفسه

يجد لديه من الشعور بالعراقة والقوة ما يمنعه من السكوت على ما ينكر فيلجأ الى السخرية معبرا بها عن سخطه أو انفعاله بصفة عامة ٠

ومن أمثلة ذلك أنه صدرت ذات مرة قرارات برفع أسعار كثير من السلع فسرت موجة من التذمر والسخط بين الشعب فخرجت من ثنايا الشعب فكاهات كثيرة ساخرة منها ما صيغ فى صورة قصة مؤداها أن الحاكم ولدت له حفيدة سموها (هالة) ثم سمع جدها الحاكم أنها مريضة فذهب ليعودها ، وكان حارس العمارة (البواب) التى فيها الحفيدة نوبيا ممن ينطقون الحاء هاء ، فسأله الحاكم : كيف هاله ؟ مستفسرا عن صحتها فظن الحارس أنه يسأل عن الحالة ، فأجابه الحارس منفعلا : (هالة زفت) يعنى (حالة سيئة جدا) ٠

ومن ذلك أن الشعب كان يتهم أحد الحكام بالغباء ، وأنه لا يدرى بما يديره أعوانه من حوله ، فصيغت السخرية منه فى صورة قصة مؤداها أن وفدا هنديا طلب مقابلة هذا الحاكم للتفاوض حول بعض المشروعات ، وذهب الوفد ومعه السفير الهندى لمقابلة الحاكم ، وما ان مثل أعضاء الوفد أمام الحاكم حتى خروا ساجدين وأخذوا يزاولون طقوس العبادة له ، فتعجب الحاضرون وسألوا السفير الهندى : لماذا يفعل أعضاء الوفد هذا ؟ فأجاب بأنهم من الطائفة التى تعبد البقر فى الهند ٠

ومن ذلك أيضا أن الشعب كان يتهم أحد الحكام بالجبروت وسعة الأطماع فى السلطة بغير حدود ، فصيغت السخرية من هذا المعنى فى مشهد خيالى لم يراع فيه جلال الله سبحانه ، ومضمونه أنه حين انتقل الذين انتقلوا الى الدار الآخرة جلس الله ليستقبل الملوك والرؤساء ، وحين دخلوا عليه وقف يصافحهم واحدا واحدا ، حتى جاء دور هذا الحاكم المتجبر ، فاذا الله سبحانه يجلس على عرشه ويسلم عليه جالسا ، وحين سئل الله سبحانه لماذا سلم عليه جالسا دون غيره ؟ أجاب سبحانه بأنه خشى أن يجلس هذا الحاكم مكانه ، وكأنهم بهذه السخرية يقولون ان هذا الحاكم يريد أن ينازع الله فى ملكه ٠

ومن الأمثلة أيضا أن السياسة المنظورة للشعب بعد قيام ثورة سنة ١٩٥٢ م كانت هى تحطيم كل مصادر السلطة السياسية والاقتصادية والدينية لتركيز السلطة فى قبضة واحدة ، وتمثل هذا فى حل كل الأحزاب السياسية ، والغاء كل مظاهر الملكية الاقتصادية الكبيرة ، وهى ذات النفوذ ثم شل السلطة الدينية الممثلة فى نفوذ الأزهر بعدة وسائل ، منها التزام اسناد مشيخة الأزهر الى أشخاص ضعاف ، وغالبا ما يختارون قصدا من المصابين بالفالج (الشلل) مع وجود شخصيات لامعة من علماء الأزهر

الأكفاء لهذا المنصب ، فظهرت سخريات شعبية من هذا الوضع حينـذاك ، منها ما صيغ فى صورة أن الحاكم سئل : لماذا لا تولون فلانا مشيخة الأزهر وهو شخصية عظيمة تناسب هذا المنصب ؟ فأجاب بأنه لا يصلح ، فقالوا : لماذا ؟ قال : لأنه غير مشلول ·

وهكذا ما من شيء يصطدم بمشاعر الشعب المصرى الا ويعبر عنـه بسخرية ، وهذه السخرية تلين وتقسو حسب الانفعال النفسى للشعب ، ولو أن جهة من جهات البحث استطاعت أن تجمع هذه السخريات لكانت ثروة من النقد السياسى والاجتماعى لا مثيل لها فى أسـلوبها وتصـويرها وطرافتهـا ·

ولئن كانت قد تغيرت بعض أساليب أو أماكن ظهور هذه السخريات اليوم فذلك لأنها أصبحت تزاول فى أماكن محددة كالمسارح ، بالاضافة الى التغيرات الثقافية والاجتماعية التى طرأت على حياة الشعب ·

والذى يعنينا من هذا كله هو أن السخرية أسلوب واضح ومحدد من أساليب النقد ومواجهة عوامل السخط والاثارة ، أى أنها سلاح من أسلحة المقاومة والدفاع ، وليست أسلوبا من أسـاليب الفكاهة لذات الفكاهة والطرافة كما قد يبدو فى ظاهر الأمر ·

سخرية أعداء الله

واستخدام القرآن أسلوب السخرية انما كان فى الجانب الأهم والواضح منه ردا على سخرية أعداء الله من الايمان والمؤمنين ، فهو سلاح دفاع من هذه الوجهة وليس سلاح هجوم ، والقرآن يسجل فيضا واسعا من أساليب السخرية التى استخدمها أعداء الله ضد كل ما يتعلق بالايمان والمؤمنين ، فقد سخروا كثيرا وبأساليب متنوعة من ذات الله سبحانه ومن رسله وأنبيائه ، ومن القرآن بالذات ، ومن الدين بصفة عامة ومن مظاهر العبادة فى الدين ، وقد صبوا على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم كما سنرى وابلا من السخرية الشديدة الايلام للنفوس ، وكل هذه الألوان من سخرياتهم موجهة الى الرسول ، اما الى شخصه مباشرة ، واما الى دعوته ، وكلاهما جزء من شخصه ·

والنبى صلى الله عليه وسلم بشر ، يؤلمه ما يؤلم سائر الناس ، غاية الأمر أن حلمه وقوة احتماله أعظم منها لدى سائر الناس ، ولكن الاشكال ليس فى شخصه أو ما يصيبه هو لذاته ، وانما الاشكال الأكبر أن سخرية المشركين كانت حربا حقيقية خطيرة ضد دعوة النبى الناس الى الاسلام ، فبينما ينشر الرسول دعوته ، وبينما يبدأ الناس فى التفكير فيها ، أو الاتجاه الى الاستجابة لها ، اذا هم يجدون دعوة مضادة تشوه دعوة الرسول وتنفر الناس منها ، وهذه الدعوة المضادة صادرة من أشخاص لهم مكانهم وقدرهم فى أعين الناس ، ومن ثم فهم فى موضع الثقة والقدوة معا فى المجتمع ، واذن فسيستمع غالبية الناس فى القبائل ويستجيبون لهم ، ويضربون صفحا عما يقوله الرسول الذى لم يعرفوه بعد ، وهذا ما حدث فعلا ، فقد ظل الرسول يدعو الى الاسلام فى مكة ثلاث عشرة سنة ،

ويبذل جهده هو وأصحابه أن ينشروا دينهم فى القبائل ، ومع ذلك لم يكد يبلغ عدد المسلمين فى ثلاث عشرة سنة فى مكة وما حولها من القبائل التى بلغتها دعوة الاسلام نحو ثمانين رجلا ، ولا شك أن محور السبب فى هذا كان هو الدعوة المضادة للاسلام ، وأهمها أسلوب السخرية والاستهزاء الذى استخدمه أعداء الاسلام فى حربهم ضده ·

والقرآن يوضح فى جلاء خطورة سلاح السخرية الذى استخدمه أعداء الاسلام ، وخطورة تأثيره فى النفوس ، وخصوصا نفوس المسلمين، ولا أدل على ذلك من أن يحدث ضيقا فى صدر الرسول نفسه ، صاحب الحلم العظيم ، الذى هو صفة من صفات خلقه العظيم الذى وصفه به القرآن :

[وانك لعلى خلق عظيــــم] (١)

حيث يقول تعالى عن هذه الخطورة :

[انا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعـلم انك يضيق صدرك بما يقولون] (٢)

وتعبير القرآن يتضمن فيما يتضمن أمرين بالغى الأهمية من حيث تأثير سخرية الأعداء واستهزائهم :

١ – وأحد الأمرين أن تعبير (انا كفيناك المستهزئين) يتضمن أن قـوة تأثير سلاح الاستهزاء والسخرية كانت أقوى من مقاومة الرسـول والمؤمنين ، فهى فى حاجة الى قوة أكبر ، وهى قوة الله ، لأن الله شرع الجهاد فى الاسلام ، وما يستطيع المسلمون أن يفعلوه فهم مطالبون به ، ولا يمدهم الله بمدد خارجى الا اذا كان الهجوم فوق طاقتهم ، كما أمدهم بالملائكة المسومين فى القتال الذى كان فوق طاقتهم ، وكما كفاهم الله رءوس المستهزئين وقادتهم ، وكانوا كما فى الروايات عددا معينا من وجوه مكة والبارزين فيها ·

٢ – والأمر الآخر أن تخصيص صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بالضيق يتضمن أن خطر تأثير الاستهزاء والسخرية كان بالغا ، وانه من باب أولى سيكون أشد بلوغا وعمقا فى نفوس غير الرسول من سـائر الناس ، سواء من المسلمين الذين قد يتزعزع ايمان بعضهم ، أو من

---

(١) ٤ سورة القلم ·
(٢) ٩٥ – ٩٧ سورة الحجر ·

غير المسلمين الذين يريدون أن يتجهوا الى الاسلام ، ولم يترك أعداء الله فى الدين معلما أو جانبا الا وسخروا منه ، ومن ذلك :

السخرية من ذات الله سبحانه :

والذى يعنينا من ذلك هنا ليس الكفر لذاته فى أى لون من ألوانه ، وانما يعنينا ما يدل عليه العنوان من سخرية أعداء الله من ذات الله سبحانه، والقرآن يسجل هذا فى أكثر من موضع ، وبأكثر من أسلوب ، وهذا أبعد وأوغل فى الكفر ، أن يتجاوز مرحلة الانكار أو الاشراك أو غيرهما الى مرحلة الاستخفاف والاستهزاء بفكرة وجود الله ، ومن ذلك فى القرآن :

[واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما
الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا] (٣)

فقولهم (وما الرحمن ؟) انكار منهم لوجود الله ، وصوغهم لهذا الانكار فى صورة سؤال يتضمن نوعا من الاستخفاف والسخرية بمن يقول هذا الكلام ، ثم قولهم (أنسجد لما تأمرنا) يتضمن أن فكرة وجود الله فى رأيهم ليست الا خيالا أو ادعاء من قائل هذا لهم ، ورغم أن القائل لهم مجهول فى تعبير القرآن (واذا قيل لهم ٠٠) الا أن بقية الآية تشير الى أن القائل هو الرسول الذى يدعوهم الى الايمان بوجود الله ووحدانيته ، ولذلك يردون عليه بقولهم (أنسجد لما تأمرنا) وينفرون من دعوته هذه (وزادهم نفورا) ٠

ولئن كانت سخريتهم من ذات الله سبحانه غير مكشوفة فى مثل هذه الآية ، فانها صريحة فى مواضع أخرى كقوله تعالى :

[٠٠٠ قل استهزئوا ان الله مخرج
ما تحذرون ، ولئن سألتهم ليقولن انما كنا
نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله
كنتم تستهزئون] ؟ (٤)

فهم يستهزئون بالله ، وبكلامه ، وبرسوله الذى أرسله اليهم ، والاستهزاء بأى شىء يتعلق بالشخص لابد أن يتضمن فى جانب منه استهزاء بالشخص نفسه ، هذا فضلا عن أن ما استهزءوا به من كلام الله ورسله مرتبطا ارتباطا مباشرا بالله سبحانه ٠

---

(٣) ٦٠ سورة الفرقان ٠

(٤) ٦٥ سورة التوبة ٠

واذن فقد وصلوا بسخريتهم من الله سبحانه واستهزائهم به الى قمة الكفر ، بل قمة السوء فى أسلوب الكفر ، فان الأسلوب الذى يزاول به الشىء قد يكون أبلغ فى الدلالة من الشىء نفسه ، سواء أكان خيرا أم شرا ، ففى الخير على سبيل المثال قد يأتيك ضيف فتقدم له طعـــاما مصحوبا بترحاب منك وبشاشة ومودة بينما يأتيك ضيف آخر ، أو يأتى شـــخصا آخر ضيف فيقدم اليه الطعام نفسه ولكن مصحوبا بضيق ونفور وعبوس ، فالطعام واحد ، ولكن أثره فى النفس يختلف فى الحالين اختلافا شديدا ، وفى الشر على سبيل المثال أيضا لو أريد قتل شخص ، ففرق كبير فى الأثر النفسى للمقتول وللمشاهدين بين أن يقتل بضربة واحدة قاضية ، وأن يقطع وهو حى قطعة قطعة حتى يموت ، فالنتيجة فى كلا الحالين واحدة وهى الموت ، ولكن الأسلوب المؤدى اليه يختلف فى الحالين اختلافا شديدا ، فالوسيلة لذاتها قد تكون أبلغ وأعمق أثرا من الغاية ، ووسيلة هـــؤلاء الكافرين فى كفرهم أســـوأ من الكفر نفسه ، حيث كانت وسيلتهم هى الاستهزاء بالله ٠

السخرية من كلام الله :

يتردد فى القرآن كثيرا الحديث عن سخرية المشركين من آيات الله ، والمراد بها حينئذ كلام الله وهو القرآن ، والآية قد يراد بها المعجزة التى يأتى بها المرسل من الله لتكون مدعاة الى تصديقه ، ولكنه من المعـروف أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم تكن له معجزة يتحدى بها كما تحـــدى الرسل بمعجزاتهم الا القرآن ، فسخرية المشركين من آيات الله المراد بهـا سخريتهم من آيات القرآن ، وقد ركز المشركون سخريتهم فى القرآن ، وهذا يدل على فهمهم لأهمية القرآن ، فانه كان ولا يزال وســـيظل هو قاعدة الاسلام ، ولسان دعوته ، وحصنه الحصين ، فمن ذلك القرآن :

[افمن هـــذا الحـــديث تعجبـــون ،

وتضحكون ٠٠٠] (٥)

فهم يتعجبون من القرآن تعجبهم من الشىء الغريب ، ولكن هذا العجب لا يدعوهم الى فكر أو تأمل ، وانما يدعوهم الى السخرية والضـــحك من القــرآن ٠

---

(٥) ٦٠ سورة النجم ٠

ولخطورة الأثر النفسى لسخرية المشركين من القرآن ، وتحاشيا لأن تؤثر هذه السخرية فى نفس أحد من المؤمنين فان الله سبحانه يحـــذر المسلمين من مجالسة الساخرين من القرآن حين يسخرون ، بمثل قـــوله تعـــالى :

[وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سـمعتم
آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا
معهم حتى يخوضوا فى حـديث غيره انكم
اذاً مثلهم •••] (٦)

لأن مجالستهم حينئذ كأنها رضا باستهزائهم من القرآن فضـــلا عما تتضمنه من الدعاية بأن المسلمين أنفسهم راضون عن هذا الاســـتهزاء أو مشاركون للمستهزئين بهذا الرضا ، فأدنى ما يجب على المسلم حينئذ أن يغادر هذا المجلس مغادرة الساخط المستنكر ، وهذه الصـورة من السخط والاستنكار الواضح هو أضعف الايمان فى النهى عن المنكر بالقلب كما فى الحديث النبوى المشهور :

[من رأى منكم منكرا فليغيره ، بيده ، فان
لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه،
وذلك أضعف الايمان]

لأن السخط والاستنكار اذا لم يكونا ظاهرين لمرتكب المنكر ولغيره فلن يكون لهما أثر ، والاستهزاء بآيات الله أسوأ أنواع المنكر •

ويتكرر فى القرآن اثبات سخرية المشركين واســـتهزائهم بالقرآن فضلا عن انكار نسبته الى الله ، ومن ذلك قوله تعالى :

[واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا] (٧)

فهم يجعـــلون من آيات الله ما ينذرهم به الرســـول مادة للتندر والاستهزاء والاستخفاف •

---

(٦) ١٤٠ سورة النساء •

(٧) ٥٦ سورة الكهف •

ويبين القرآن مدى مبلغ الاستهزاء بآيات الله من السوء ، موضحا أنه قمة السوء ، وأن سوءه يتجاوز مرحلة الكفر فى الترتيب ، حيث يقول فى هذا البيان الرائع :

[ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوءى أن
كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون] (٨)

فحين يتحدث القرآن عن عاقبة أعداء الله وما ينتهى اليه حالهم فان السامع يتوقع الحديث عن العقاب فى الآخرة مهما يكن نوعه ، أو الدمار فى الدنيا مهما تكن صورته ، ولكن القرآن لا يتحدث عن هذا ولا ذاك ، وانما يقول ان عاقبتهم ونهاية أمرهم أن وصلوا الى اسوأ ما يتصوره عقل ، وهو أن يستهزئوا بآيات الله فضلا عن تكذيبهم بها ، فالتكذيب كفر ، وهو غاية فى السوء ، ولكن هناك غاية أوغل منها فى السوء ، وهى الاستهزاء والسخرية بآيات الله ٠

فتكذيب المشركين بآيات الله ، وادعاؤهم أن القرآن ليس الا شعرا أو سحرا أو جنونا ، وانه فى كل الأحوال ليس من عند الله ، هذا يتكرر تسجيل القرآن اياه على المشركين ، وهو فى كل صورة كفر ، ولكن الاستهزاء والسخرية بالقرآن مرحلة أسوأ من الكفر ، لأنها تتضمن الكفر ، وتزيد عليه الاساءة بالسخرية والاستهزاء ٠

السخرية من البعث :

والايمان ببعث الموتى يوم القيامة لحسابهم هو من اسس العقيدة الدينية ، كما أن انكاره من أسس الكفر ، وقد انكره المشركون انكارا شديدا ، واقسموا على ذلك بكل ما يملكون من الحلف ، كما فى القرآن الكريم :

[واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله
من يموت ٠٠] (٩)

لأنهم لو آمنوا بانهم سيبعثون ويحاسبون ويجازون لدعاهم هذا الى الايمان بالله ، ولكنهم ينكرون الله سبحانه ذاته ، أو ينكرون الوهيته فى صورتها الصحيحة وهى الوحدانية ، فمن باب أولى أن ينكروا البعث أو غيره مما يترتب على الايمان بالله ٠

---

(٨) ١٠ سورة الروم ٠

(٩) ٣٨ سورة النحل ٠

ولذلك فانهم لا يؤمنون بالآخرة أصلا ، وانما يعتقدون أنه لا حياة بعد حياتهم الدنيا ، كما ينقل القرآن عنهم :

[وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين] (١٠)

لأن اعترافهم بالبعث والحساب تترتب عليه مسئوليتهم عن كل ما يصدر عنهم ٠

ولكن الذى يعنينا هنا ليس انكارهم لذاته ، وانما سخريتهم واستهزاؤهم ، فقد اتخذوا من البعث مدعاة للسخرية منه وممن يقول به ، والقرآن ينقل لنا هذه الصورة من سخريتهم من البعث وممن يحدثهم به ، فى قوله تعالى :

[وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد ، افترى على الله كذبا أم به جنة ٠٠٠] ؟ (١١)

وكأنهم كلما قابلوا شخصا أو جماعة يقولون لهم : هل سمعتم بأغرب ما يتصوره عقل ؟ ان هناك رجلا يزعم أن الواحد منكم بعد أن يموت ، ويتفرق عظاما مبعثرة ، أو ذرات متناثرة يعود مخلوقا جديدا مرة أخرى ، وهذا الرجل يزعم أن الله هو الذى أخبره بهذا ، فما تقولون فى هذا الرجل الا أحد أمرين : اما أنه يفترى على الله الكذب ، واما أنه مجنون يتخيل خيالات وأوهاما لا تقرها العقول ، ولا ينطق بها العقلاء ؟ ويعنون بالرجل شخص النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا قمة الاستخفاف والاستهزاء بفكرة البعث ، وبالنبى الذى يحدثهم بها ٠

---

(١٠) ٢٩ سورة الأنعام ٠

(١١) ٧ ، ٨ سورة سبأ ٠

وكذلك سخر الأقوام السابقون من حديث البعث ، ومن أنبيـائهم حين حدثوهم به ، ومن هؤلاء قوم نوح ، كما ينقل القرآن عنهم فى حديث بعضهم البعض عن نوح عليه السلام :

[أيعدكم أنكم اذا متـم وكنتم ترابا وعظاما
أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون ،
ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما
نحن بمبعوثين ، ان هو الا رجل افترى على
الله كذبا وما نحن له بمؤمنين] (١٢)

ومن الغريب ان المشركين العرب يعترفون ان حـــديث البعث الذى أخبرهم به الرسول ليس جديدا ، وانما أخبر به الأنبياء السابقون أقوامهم، وبدل أن يتخذوا من هذا دليلا على صدق رسولهم ، وأن ما جاء به ليس الا تأييدا لمن سبقوه ، اذا هم يتخذون من ذلك دليلا فى زعمهم على كـــذب الرسول ، متصورين أو متوهمين أن الأنبياء السابقين ماداموا قد أخبروا الأجيال السابقة بأنهم سيبعثون بعد الموت فقد كان ينبغى أن تبعث هــذه الأجيال السابقة بعد موتها ، ولكن أحدا منهم لم يبعث فاذن حديث البعث فى زعمهم وهم وخيال وكذب على الله ، واذن فأحاديث الأنبياء السابقين عنه ليست الا أساطير وخرافات ، واذن أيضا فحديث رسولهم عن البعث ليس الا ترديدا لأساطير الأولين (ان هذا الا أساطير الأولين) والاشارة فى (هذا) تعنى حديث رسولهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ٠

والقرآن يسجل ان ما قاله الأقوام السابقون عن البعث قاله مشركو العرب لرسولهم ، ففى القرآن الكريم :

[بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أئذا
متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، لقد
وعـدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هـذا
الا أساطير الأولين] (١٣)

ومثل هذه الأساليب لا تعنى مجـــرد انكار البعث ، وانما تعنى السخرية ، واثارة العجب من فكرة البعث ، وممن يتحدث بها ، وكأنهـم يقولون متعجبين ساخرين : كيف يعود التراب خلقا سويا ؟ وكذلك كيف

---

(١٢) ٣٥ – ٣٨ سورة المؤمنون ٠

(١٣) ٨١ – ٨٣ سورة المؤمنون ٠

تعود العظام المتفرقة ، أو الأجزاء المبعثرة من الأجساد بعد الموت أناسا مرة أخرى ؟ ان من يقول هذا فى زعمهم حقيق بأن يكون محطا للسخرية والاستهزاء به ·

السخرية من الدين والعبادة :

ومما سخر منه أعداء الله واتخذوه هزوا هو اعتناق الاسلام ، وبصفة خاصة ما يدل عليه ويميزه عن الأديان الأخرى وهو الصلاة ، فقد كانت أيضا مدعاة لسخريتهم ، ولكن القرآن يشير الى أن الذين تولوا كبر هذا النوع من السخرية بالاسلام وبالصلاة هم اليهود ، ثم من شايعهم من غيرهم ، ولذلك يتجه خطاب القرآن فى هذا المجال الى فريق من أهل الكتاب من الواضح أنهم اليهود ، لأن القرآن يصفهم حينئذ بما تكرر وصفهم به فى مواضع أخرى من القرآن صراحة ، ثم يصفهم بالنفاق ، وقد كانوا هم أساتذة النفاق ومعلميه (١٤) ولذلك ظهر النفاق واضحا فى المدينة وما حولها كما سجل القرآن فى قوله تعالى :

[وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق] (١٥)

ولم يظهر فى مكة ، لأن المدينة كانت المركز الرئيسى لمواطن اليهود فى الجزيرة العربية ، ويزيد القرآن اشارته الى اليهود وضوحا حيث يتحدث عن الأحبار ، وهم أحبار اليهود ، فيقول تعالى محذرا المسلمين من الانخداع باليهود وصلاتهم بهم :

[يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين ، واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ، قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ، قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل

---

(١٤) انظر كتاب أسلوب السخرية فى القرآن للمؤلف فصل السخرية واليهود طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ·

(١٥) ١٠١ سورة التوبة ·

منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكانا واضل عن سواء السبيل ، واذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله اعلم بما كانوا يكتمون ، وترى كثيرا منهم يسارعون فى الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ، لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم واكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ، وقالت اليهود يد الله مغلولة ...] (١٦)

فهم اتخذوا دين المسلمين (هزوا ولعبا) وكذلك اتخذوا صلاة المسلمين (هزوا ولعبا) وكل ما سبق فى الآيات انما هو صفات صريحة لليهود ، تكرر التصريح بها فى مواضع عديدة أخرى من القرآن ·

وسخريتهم من دين الاسلام معناه سخريتهم من كل ما جاء به ، وخصوصا الصلاة ·

السخرية من الرسول :

والقرآن يؤكد فى مواضع عديدة منه أن رسل الله كانوا بصفة دائمة وملتزمة موضع سخرية أقوامهم ، وقد يبدو هذا فى المنطق العقلى أمرا غريبا ، فالأنبياء والرسل (١٧) صفوة مجتمعاتهم دون شك خلقا وعقلا ، فضلا عن أن ما يدعون اليه انما هو نهوض وتقدم ، سواء بالادراك العقلى أو بالسلوك ، فيما يعبر عنه القرآن باخراج الناس من الظلمات الى النور ، أى من ظلمات الضلال والتيه أو الحيرة العقلية الى وضوح الطريق وطمأنينة العقول ، فهم ليسوا متفوقين فحسب على أقوامهم ، وانما هم قمم متميزة منفردة لا ينافسهم فى هذا أحد الا فى الاقتداء والتأسى بهم ، ولن تكون هذه منافسة ، وانما هى محاولة للدنو منهم ، والتشبه بهم ·

---

(١٦) ٥٧ - ٦٤ سورة المائدة ·

(١٧) الفرق بين النبى والرسول أن النبى من كان يوحى اليه من الله ولكن الله لم يكلفه تبليغ ما يوحى اليه الى الناس ، أما الرسول فهو الذى يوحى اليه ويكلفه الله تبليغ ما يوحى اليه الى الناس فالنبوة أعم ، والرسالة أخص ، وقد يطلق النبى على الرسول على أساس أن الرسول لابد أن يكون نبيا ·

فكيف اذن يكونون موضع السخرية والاستهزاء وهم بهذه الصفة ؟ والواقع أن تميزهم أو تفردهم هو الذى يصنع الفجوة بينهم وبين أقوامهم ، وذلك من ناحيتين :

١ ـ احداهما أن التميز والتفرد يثير ضدهم الخاصة من المجتمـــع ، وهم السادة والقادة الاجتماعيون ، فهؤلاء يرون أنهم هم أصحاب التميز والتفوق عمن سواهم وخصوصا عامة الناس ، وهم فى العادة يتنافسون فيما بينهم على التفوق ، فيما يعرف بالتنافس على السيادة والزعامة ، وقد يختلفون أو يتصارعون فيما بينهم ، ويكون هذا أمرا مألوفا ، بل متوقعا ، بل قد يوجد قدر أو نوع من الروابط فيما بينهم رغم اختلافهم أو تصارعهم ، لأنهم يتنافسون على أمور مشتركة بينهم ، كل منهم يريد أن ينفرد بها ، أو أن يكون نصيبه منها أكبر من نصيب خصمه ، ولكن حينما يظهر شخص يكون تميزه فى مجال الرسالة الدينية فانه يكون غريبا على الجميع ، لأنه خــارج نطاق هذه الخصومات ، وليس بينه وبين أحد منهم قدر مشترك فيما يتنافســون عليــه من أعراض الدنيا ومظــاهرها ، وليست بينه وبينهم أصلا أية رابطة أو علاقة ، سواء أكانت علاقة اتفاق ، أم علاقة اختلاف ، أم علاقة تنازع ٠

فيبدأ المتميزون فى المجتمع كالأغنياء والسادة ينفرون من هذا الدخيل على ميدان تميزهم وتفوقهم ، وهو صاحب الدعوة الدينية ، الذى ينظرون اليه بطبيعة الحال على أنه دخيل يريد أن يسلبهم جميعا ما يتنافسون عليه وهو التفوق أو السيادة ، لينفرد به هو ، ثم يتحول نفورهم منه الى خصومه له وحيث ان الموقف يجمعهم جميعا ، فانهم يبدأون فى العــادة فى توحيد صـــفهم وتناسى خصوماتهم حتى يتخلصوا من الخصم الجديد الطارىء ، كما يحدث فى الصراعــات والحروب العــادية ٠

ومن هنا تتحول الطبقة المتفوقة فى المجتمع الى خصوم للنبى المرسل ، سواء أكان مصدر شعورهم بالتفوق هو المنصب كالسيادة او الزعامة ، أو هو المال ، أو هو النسب ، أو غير ذلك ، حسـب ظروف كل مجتمع ٠

وهؤلاء جميعا لا يحسون بخطورة النبى الجديد ، أى نبى ، الا عندما يدعو الناس الى الدخول فى دعوته ، فانهم حينئذ لا يركزون اهتمامهم فى دعوته ، أو فى شخصه ، وانما فى شىء واحد ، هو أنه

يريد أن يجتذب الناس اليه ليكونوا أتباعا له ، فالذين سيتبعونه يخرجون من سلطان السادة ، ونفوذ الأغنياء ، وســطوة أصحاب النسب ، ولن يكون خضوعهم أو انقيادهم الا لهذا النبى الجديد ، أو هذا الدخيل فى رأيهم على مجال الزعامة والسيادة .

واذن فهو خطر فى نظرهم على كل هذه الطبقة التى تنظر اليه أصلا على أنه دونهم جميعا ، لأن الأنبياء المرسلين لا يملكون فى العادة تلك المظاهر الاجتماعية ولا يسعون اليها ، فهم ينظرون الى النبى نظرة مهانة واحتقار ، وهذا هو السبب الأصلى فى أن كل رسول لابد أن يواجه بالاستهزاء والسخرية من حيث ان هذه الطبقة تنظر اليه باستخفاف ، كيف أنه مع كونه لا يملك شيئا من مقومات السيادة والتفوق الاجتماعى يريد أن ينتزع هذا التفوق من كل المتطلعين اليه ، والمتنافسين فيه وهم الذين يملكون .. مقوماته وأسبابه التى توصلهم اليــه .

٢ ـ والناحية الأخرى مما يصنع الفجوة بين الأنبياء وأقوامهم ناحيــة العادات والتقاليد ، فانه من المعروف أن للعادات والتقاليد الموروثة سلطانا قاهرا شديد السيطرة على المجتمعات ، لا ينافسه فى سيطرته على المجتمعات شىء آخر .

ومن الواضح أن كل مجتمع له عاداته وتقاليده الموروثة ، وحينما يأتى نبى بدعوته وشريعته ، فان أول ما تتجه اليه دعوته هو عدم الاعتراف بالعادات والتقاليد ، بل سيكون المبدأ الذى لا محيد عنه ولا جدال فيه عند النبى أن كل شىء لابد أن ينظر اليه من خلال المنظــار الدينى ، فالدعوة الدينية الجديدة هى التى تحدد الحكم على كل شىء ، ان كان خيرا أو شرا ، مقبولا أو مرفوضا ، ومؤدى ذلك الغاء سلطة العادات والتقــاليد ، وحينئذ يحدث الاصطدام الرهيب بين قوتين لا مرونة فيهما ، حيث ان كلا منهما تريد أن تنفرد بالسلطة والتوجيه ، وهما قوة الدعوة الدينيــة التى تريد أن يكون الحكم على كل شىء من خلالها ، وبالتالى أن تكون هى القوة الوحيدة الموجهة لكل السلوك ، وقوة العادات والتقاليد التى تعودت عبر أجيال وعصور أن تكون هى القوة الوحيدة التى لا تستطيع قوة أخرى أن تنافسها أو تعارضها .

ولكن المقيم أرسخ قدما من الدخيل الطارىء ، والعادات هى المقيمــة عبر أجيال وعصور ، والمجتمع مؤمن بهـــا كل الايمـــان ، خاضع لها كل الخضوع ، حتى انه لا يستطيع فرد فى العادة أن يشذ عليها أو يتمـــرد ، وان فعل جحظت اليه كل العيون تعجبا واستنكارا .

والأنبياء لا يتمردون على العادات محض تمرد ، وانما يمقتونها

مقتا ، ويحاربونها حربا لا هدنة ولا هوادة فيها ، لأن فى مقدمة عـادات المجتمعات وتقاليدها عبادة آلهة غير الله سبحانه ، وهذا الموقف هو ميدان الصراع بين كل الأديان السماوية والمجتمعات فى كل العصور ، وعلى أيدى كل المرسلين من الله الى البشر ، فلابد اذن أن يواجه رسل الله من هذه المجتمعات فى مجموعها بكل العداوة والاستنكار ٠

والقرآن حافل بما يؤكد أن العقبة الأولى والأهم أمام كل الأديان السماوية هى تمسك المجتمعات بالعادات والتقاليد الاجتماعية فى صورة التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد ، لأن العادة لا تكون عادة اجتماعية الا اذا كانت قديمة وعامة فى المجتمع ، أما ما يستحدثه الأفراد من عادات فى حياتهم الشخصية فهى عادات فردية وليست اجتماعية ، وليس لهـا من السلطان ما للعادات الاجتماعية ، فهم لا يريدون أن يتزحزحوا عـن عاداتهم ، ولا أن يستبدلوا بها شيئا أو دينا آخر ، لأنها فى رأيهم كافية لهم وليست فى حاجة الى تغير أو تزيد ، كقوله تعالى عن مثل ذلك :

[واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا] (١٨)

وحتى الفاحشة التى لا ينكرون أنها منكر وفاحشة لا يخجلون منهـا ولا ينفرون طالما كانت عادة اجتماعية ، كقوله تعالى :

[واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ٠٠] (١٩)

فكونها عادة موروثة يجعلها فى نظرهم أمرا مباحا ومقبولا ، وكذلك الشرك بالله يرونه من حقهم ما دام موروثا عن آبائهم ، كقوله تعالى :

[أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ٠٠٠] (٢٠)

فهم متشبثون بعاداتهم الموروثة مهما كانت منافية للعقول ، كقـوله تعالى فى التعقيب على رفضهم الدين الحق تمسكا بالعادات الموروثة عن آبائهـم :

[أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون] ؟ (٢١)

---

(١٨) ١٠٤ سورة المائدة ٠

(١٩) ٢٨ سورة الأعراف ٠

(٢٠) ١٧٣ سورة الأعراف ٠

(٢١) ١٧٠ سورة البقرة ٠

بمعنى أن يتمسكوا بهذه العادات الموروثة ولو كانت منافية للعقول ؟ وكذلك هم متشبثون بهذه العادات مهما بلغت من الجهل وعدم المعــرفة ، كقـــوله تعــالى :

[··· أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شـيئا
ولا يهتدون] (٢٢)

والعامة من الناس هم أشد المجتمعات تشبثا بالعادات والتقــاليد ، لأن الخروج على العادات يتطلب أمرين لابد منهما :

١ ـ العقل الناضج الذى يستطيع أن يكشف سوء العادة أو ضررها أو تفاهة التمسك بها ان كانت عادة سيئة ·

٢ ـ قوة الارادة التى تمكن صاحبها من المقدرة على تحدى مشــاعر المجتمع فى نظرته الى المتمرد على العادة ، فليست المعرفة وحدها كافية لنبذ العادة ، حيث يمكن أن يتضح لشخص سوء عادة ما ، ولكنه مهما تبلغ معرفته لسوئها لا يجرؤ على نبذها أو الخــروج عليها خوفا من نظرة المجتمع اليه ، وعلماء الاجتماع يمثلون لسيطرة العادات ولكون سلطانها أقوى على المجتمعات من سلطان الـدين والقانون بعادة الأخذ بالثار ، فان الفرد فى هذه المجتمعات يجـد نفسه مرغما نفسيا على مزاولة هذه العادة مع يقينه بمخالفتها الدين والقــانون ·

والأمران معا ، نضوج العقل ، والقوة لا يتوافران للعامة ، لأن من يتوافران فيه سيكون من الخاصة وليس من العامة ·

واذن فالعامة فى مجموعهم لا يستطيعون الخروج على العــادات حتى وان أدركوا سوءها أو ضررها ، لأنهم لا يجرؤون على تحدى مشاعر المجتمــع ·

ونخرج من هذا كله بأنه من الواضح حينئذ انه حينما يأتى نبى بدين جديد الى قومه ، فان قومه بصفة عامة سيواجهونه بالرفض والتحـدى والعداوة ، سواء الخاصة منهم والعامة ، فأما الخاصة فيمنعهم من اتباع النبى الجديد خوفهم على سيادتهم ونفوذهم ، واستكبارهم أن يكونوا تابعين بعد أن كانوا متبـــوعين ، وأما العامة فيمنعهم من اتبـــاع النبى خضوعهم للعادات الموروثة عن آبائهم وأجدادهم ، ومن هذه العــادات الموروثة خضوعهم للسادة والزعماء ·

---

(٢٢) ١٠٤ سورة المائدة ·

وكل من الفريقين ، الخاصة والعامة ، سيستخدم كل أسلحته ضـــد النبى الجديد ، ولكنه لابد أن يكون ضـــمن أسلحة الفريقين السخرية والاستهزاء ، وان اختلف المصدر النفسى للسخرية لدى كل منهما ، أو اختلفت طبيعة السخرية ونوعها وأسلوب صياغتها ، ومن أمثلة سـخرية العامة بأنبيائهم قول القوم لنبيهم شعيب عليه السلام :

[أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو

أن نفعـل فى أموالنا ما نشـــاء انك لأنت

الحليم الرشيد] (٢٣)

وأوضح ما تكون السخرية فى الآية فى تعبيرين :

١ ـ أحدهما تعبير (أصلاتك تأمرك) فلاهم ولا أحد غيرهم يعتقـــد أن الصلاة يصدر منها فعل أو قول ، فلا هى تأمر ولا هى تنهى ، وهم لا شك موقنون بهذا ، ولكنهم يسخرون ، من حيث انهم لا يعترفون بالله سبحانه ، فشعيب يقول لهم الله يأمرنى بهذا ، وكأنهم يقولون له ، لا يوجد شيء اسمه الله ، وبالتالى لا يوجد من يأمرك الا صلاتك التى نراها ·

٢ ـ والتعبير الثانى (انك لأنت الحليم الرشـــيد) فهم فى ظاهر التعبير يؤكدون أن شعيبا حليم بمعنى أنه عاقل عقلا متميزا ، ورشيد بمعنى أنه حسن السلوك مهتد فى عمله الى الخير ، ومن البداهة بمكان انهم لو كانوا يقصدون حقيقة هذين المعنيين لآمنوا به وصدقوه ، ولكنهـم لا يقصدون هذا ، وانما يقصدون السخرية من شعيب ، بمعنى هل ما يصدر منك يا شعيب من هذه الدعـــوة يليق صدوره من عاقل رشيد ؟ أو بمعنى عهدناك قبل ذلك عاقلا رشيدا ، فكيف صار بك الحال الى ما تدعونا اليه مما لا يليق بعاقل أو رشيد ؟

والذى يدل على أن الذين صدرت منهم هذه السخرية هم عامة القوم وليس خاصتهم أمران :

١ ـ أحدهما أن خطاب شعيب عليه السلام كان موجها الى القوم عامة ، والرد صدر أيضا من القوم عامة ، وليس من (الملأ) وهم السادة والخاصة فى مواضع كثيرة من القرآن ·

---

(٢٣) ٨٧ سورة هود ·

٢ ـ أن الذين كان شعيب يحاورهم وهم يردون عليه قالوا فى نهـــاية المحاورة كما ينقل عنهم القرآن :

[قالوا يا شـعيب ما نفقـــه كثيـــرا مما تقول] (٢٤)

فاعترافهم بأنهم لا يفهمون أكثر كلامه دليـــل واضح على أنهم من العامة وليس الخاصة ٠

وأما سخرية الخاصة فان القـــرآن يورد كثيرا منهـــا مما واجه به السادة كل الأنبياء فى كل العصور ٠

وفيما يتعلق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فقد تكرر كثيرا فى القرآن الحديث عن السخرية منه ، بل ان عددا معينا من زعماء مكة كأنهم اتخذوا السخرية من الرسول عملا وحرفة لهم ، هؤلاء الذين تحدث عنهم القـــرآن فى قوله تعـــالى :

[انا كفيناك المستهزئين] (٢٥)

والروايات تذكر أسماءهم وتتحدث عن أشـــخاصهم ، ومن أمثلة السخرية البالغة الايلام لأى شخص توجه اليه ، هذه الصورة من السخرية التى كانوا يصوبونها نحو الرسول صلى الله عليه وسلم :

[واذا رأوك ان يتخذونك الا هـــزوا أهذا الذى بعث الله رسولا] (٢٦)

فالاشارة فى لفظ (أهذا) وما بعدها تتضمن قمة التحقير ، وغـــاية الاستهزاء ، فان تعبير الآية يتضمن كأنهم لا ينكرون الله ، ولا ينكرون ارسال الله الرسل ، ولكنهم ينكرون صلاحية هذا الرسول لحمل رسالة الله اليهم ، وكانه لا مانع لديهم من قبول هذه الرسالة والايمان بها لو كان من يحملها ممن يرونه أهلا لها ، كما قالوا :

[لولا نزل هذا القـــرآن على رجـــل من القريتين عظيم] (٢٧)

---

(٢٤) ٩١ سورة هود ٠
(٢٥) ٩٥ سورة الحجر ٠
(٢٦) ٤١ سورة الفرقان ٠
(٢٧) ٣١ سورة الزخرف ٠

فهم يوضحون أنه لا يصلح فى رأيهم لحمل هذه الرسالة الا أحد زعيمين ، الوليد بن المغيرة فى مكة ، وعروة بن مسعود فى ثقيف ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فلا يصلح فى رأيهم لحملها لأنه ليس زعيما ولا غنيا ولا أتباع من حوله ، ولكنهم لو قالوا هذا أو ما هو أسوأ منه كما وصفوه صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون والشعر لما كان داخلا فى نطاق موضوعنا وهو السخرية ، أما موضع الاستشهاد فهو السخرية من الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا التعبير البالغ التحقير والتهوين والذى تبرزه الاشارة فى (أهذا الذى بعث الله رسولا) ؟ وكأنهم يقولون انها مفاجأة بالغة العجب أن نتبين أن هذا الشخص المهين الذى لا شأن له هو الذى بعثه الله رسولا بعد أن كنا نتوقع أن يكون زعيما مجلجل الصوت ٠

ومن سخريتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ما ينقله عنهم القرآن فى قوله تعالى :

[وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل
ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق
جديد ، أفترى على الله كذبا أم به
جنة ٠٠٠] ؟ (٢٨)

بمعنى أن بعضهم يقول لبعض أتريدون أن تعرفوا رجلا تبلغ به الغرابة أن يزعم أن الميت يخلق من جديد بعد أن يتمزق جسده كل التمزيق؟ فما تظنون بهذا الرجل الا أحد أمرين ، اما أنه مجنون ، واما أنه يفترى على الله الكذب حيث يقول ان الله أرسله ليبلغ الى الناس هذا ، فان الله لا يمكن أن يقول هذا ٠

ومركز السخرية هو تعبير (هل ندلكم) ؟ فان مقتضى هذا التعبير انهم يبحثون عن شخص أو عن شىء بالغ الغرابة أو الطرافة أو العجب لأنك لا تقول لشخص أنا أدلك الا اذا كان يبحث أو يطلب ما تدله عليه ، ثم جوهر موقف السخرية أن ما يقوله الرسول من حديث البعث بعد الموت هو الغرابة أو الطرافة التى يريدون ان يتسلوا بها ، والتى يريد بعضهم أن يدلهم عليها فى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

ومهما يكن حلم الرسول ، ومهما تكن قوة احتماله فهو بشر يتألم كما يتألم البشر ، ويتأذى كما يتأذى البشر ، بل المفروض أن تكون النفوس

---

(٢٨) ٧ ، ٨ سورة سبأ ٠

الكبيرة أشد تأذيا ، وأعمق احساسا بالاهانة والاذلال ، والقرآن يكشف ما يجول فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من احساس بالألم والضيق، وما يحاول أن يكظمه ويخفيه عن الناس من هذا الاحساس فى مثل قوله تعـــالى :

[ولقــد نعلـم انك يضيق صـــدرك بمـا يقولون] (٢٩)

وحتى يمحو القرآن من نفس الرسول أثر سخرية الأعداء به ، فانه يؤكد له أن هذه السخرية ليس مقصودا بها هو لذاته ، وانما هى ســـنة اتبعها المشركون وأعداء الله عامة تجاه رسل الله أن يجعلوهم دائما موضع السخرية والاستهزاء ، ولكن الأعداء يفاجأون بأن رسل الله فى النهـاية هم المنصورون ، وأنهم هم الخاسرون ، كقوله تعالى :

[ولقد استهزىء برســـل من قبلك فحاق بالــذين ســـخروا منهـــم ما كانــوا به يستهزئون] (٣٠)

وهذا المعنى يتكرر بلفظه أيضا فى آية أخرى (٣١) ويتكرر صـــدر الآية أيضا (٣٢) ٠

بل يؤكد القرآن للرسول أن الاستهزاء لم يوجه نحو رسل معينين ، أو الى بعضهم دون بعض ، وانما كان أسلوبا متبعا من الكافرين نحـــو جميع رسل الله على الاطلاق ، وبدون استثناء ، كقوله تعالى :

[وما يأتيهـــم من رســـول الا كانـوا به يستهزئون] (٣٣)

وكذلك قوله تعالى :

[ومـا يأتيهـــم من نبى الا كانـوا بـــه يستهزئون] (٣٤)

ويسوق القرآن هذا المعنى فى أسلوب آخر بالغ التأثير النفسى ، حيث يتضمن التحسر على البشر فى هذه السنة العجيبة الغريبة التى التزموها

(٢٩) ٩٧ سورة الحجر ٠
(٣٠) ١٠ سورة الأنعام ٠
(٣١) ٤١ سورة الأنبياء ٠
(٣٢) ٣٢ سورة الرعد ٠
(٣٣) ١١ سورة الحجر ٠
(٣٤) ٧ سورة الزخرف ٠

زاء رسل الله وهى أن يجعلوهم دائما موضع سخريتهم واستهزائهم ، فى قوله تعـالى :

[يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون] (٣٥)

فالنداء على الحسرة لتدركهم (يا حسرة) ثم العطف والاشـفاق عليهم فى وصفهم بأسمى وأوثق ما توصف به العلاقة بين الله ومخلوقيه وهو وصف (العباد) ، ثم هذه السـخرية الضمنية التى يتضمنها أن الاستهزاء برسل الله أصبح عادة وهواية عند البشر ، كل ذلك يبرز أهمية المضمون ، ويزيد من لفت الأنظار اليه ٠

السخرية من المؤمنين :

الذين يتجهون الى الايمان بدعوة الأنبياء انما يكونون فى العـادة من عامة الناس وفقرائهم ، وهذا أمر واضح ، ومن أوضح أسبابه :

١ ـ أن عامة الناس ليست لهم مزايا أو أوضاع اجتماعية يخافون فقدانها ، فنفوسهم وعقولهم ليس فيها ما يثقلها ويشدها الى أوتاد معينة، فيتاح لعقولهم حينئذ أن تفكر وتقدر دون خوف أو تأثر بعوامل اجتمـاعية خاصة بهم ، وسترى الحق واضحا فى الايمان بالله ، فتتجه اليه ما لم تصدها عوامل اجتماعية أخرى كالخوف من سلطان السادة ، أو من آثار التمرد على العادات ، ولكن العامة حتى مع وجود هذه العوامل فهـم أقرب الى الدين من الخاصة ، لأن الموانع من الدين عند الخاصة أمـور شخصية تتعلق بذواتهم مباشرة ويشـعرون بأنهم مسـتفيدون منها ، كشعورهم بالسيادة التى سيفقدونها حينما يتحولون الى اتباع للنبى ، أما موانع العـامة من الدين فهى أمور خارج ذواتهم كروابط بينهم وبين المجتمع ، مثل رابطة الخوف من المجتمع ٠

٢ ـ أما أن المتجهين الى دعوة الأنبياء لا يكونون فى العادة من الأغنياء فلأن الغنى أيضا هالة تحيط بصاحبها فتحول بينه وبين التجـرد العقلى والنفسى للتفكير فى الدين وفى الاتجاه اليه ، فهو يخاف حينئـذ من فقدان النفوذ أو الجاه الذى يتيحه له المال ، ثم ان الغنى يبعث فى نفسه عادة من التعالى والغرور ما يمنعه من أن يضع نفسه موضع التابع للنبى،

---

(٣٥) ٣٠ سورة يس ٠

او موضع المؤاخى لأتباع النبى من الفقراء فلا يشعر لنفسه حينئذ بميزة عليهم ، والقرآن يؤكد أن الغنى يبعث فى النفوس مشاعر من الزهو والتعالى تصل الى حد الطغيان :

[أن الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى] (٣٦)

فحينما يرى الانسان نفسه استغنى يبدأ فى الطغيان ، الا من تعصمه عوامل أخرى ، والشاعر الجاهلى يعبر عن هذا المعنى بقوله :

والظــــلم من شيم النفوس فان تجــــد
ذا عفــــة فلعــــلة لا يظـــــلم

فالظلم من طبيعة النفوس القادرة عليه ، وأقدر الناس عليه الأغنياء، لأن فى أيديهم وفى أموالهم حقوق الذين يتعاملون معهم ، ولديهم من أدوات الطغيان الكثير . والذى يدعو الى التمهيد السابق أن القرآن يؤكد أن المؤمنين بالأنبياء كانوا دائما موضع ســـــخرية أقوامهم واستهزائهم ، فالواقع أن سخريتهم ليست من ايمان المؤمنين لذاته ، وانما من فقرهـــم وهوانهم ، غاية الأمر أن انحياز المؤمنين الى النبى ، واعتناقهم دينا يخالف تقاليد المجتمع يعد فى نظر المجتمع تمردا وتحديا ، فهم يسخرون من هـــذا التناقض بين ضعف هؤلاء المؤمنين فى المجتمع ، ثم مقدرتهم على التحدى والتمرد ، ولو كان المؤمنون من السادة أو الأغنياء ما كانوا موضـــــع سخرية ، وما تعرضوا لايذاء ، ومن هذا القبيل كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ربه أن يعز الاسلام بأحد العمرين ، عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام (أبى جهل) ، بل مضمون الدعوة أنهما لن يمنعا عن نفسيهما الأذى فحسب ، بل سيمنعانه عن غيرهما من المؤمنين .

واذن فاجتماع الأمرين ، الفقر والايمان هو مصدر سخرية الأقوام من المؤمنين ، وان كان الفقر يعد سببا بعيدا والايمان هـــو السبب القريب المباشر ، لأن الايمان لذاته فى نظر الأقوام أمر شـــاذ خارج على عرفهم وتقاليدهم فهو موضع سخريتهم .

وأما أساس سخريتهم من الايمان بالله ، وعدم اقتناعهم بالدين كله فهو نظــــرتهم المادية الى الدين ، حيث يقيسونه بالمقيـــاس المادى الحسى فلا يجدونه موافقا لهذا المقياس ، ولو استخدموا عقولهم مجردة عن الأهواء والأثقال المادية والاجتماعية لكانوا أقرب الى الهـــداية وأوضح بصيرة ، ولكنهم يلغون عقولهم ، ويستخدمون الأثقال المادية والاجتماعية ممثلة فى

---

(٣٦) ٦ ـــ ٧ سورة العلق . والطغيان مجاوزة الحد فى أى شىء ، ومنه قوله تعالى (انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) ١١ سورة الحاقة ، ومنه الظلم لأنه مجاوزة الحق .

النظرة الحسية ، والنظرة من خلال التقاليد فيوغلون فى الضلال ، فحينما يحدثهم نبى عن الله لا يستخدمون عقولهم فى التفكير فى الكون وفى أنه دائما متجدد ، وفى ان كل موجود لابد له من موجد ، وكل حادث لابد له محدث ، وانما يستخدمون حواسهم التى تصور لهم أن كل موجود لابد أن تدركه الحواس ، فاذا لم تدركه حاسة من الحواس فهو غير موجود ، ولذلك طلب الكافرون أن يروا الله جهرة حتى يؤمنوا بوجوده ، كما قال اليهود لموسى عليه السلام :

[لن نؤمن لك حتى نرى الله جهـرة] (٣٧)

وكل شىء ينظر اليه الكافرون نظرة حسية ، بينما الدين يقوم أساسا على الغيبيات ، فالله سبحانه لا تدركه الحواس ، وليس كمثله شىء يشبه به أو يقاس عليه ، وكذلك البعث والجنة والنار والملائكة والوحى من الله كل ذلك غيب ، ومع ذلك فهو جوهر الايمان ، فالكافرون يرفضونه لأنه لايخضع للحواس ، وهم لا يؤمنون الا بما تدركه حواسهم ، والقرآن يعرض صورا من تفكير المشركين ونظراتهم الحسية الى كل شىء فى الدين كقوله تعالى ناقلا عن مشركى العرب بعض ما قالوه لمحمد صلى الله عليه وسلم فى هذا المجـال :

[وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجـر لنـا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خـلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسـفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السـماء ولن نؤمن لرقيـك حتى تنـزل علينـا كتـابا نقرؤه ...] (٣٨)

فالله الذى يحدثهم عنه النبى لا يتصـورون وجوده الا اذا رأوه أمامهم وكذلك الملائكة ، والجنة التى يحدثهم عنها لا يتصـورونها الا اذا رأوها أمامهم جنة من جنات الدنيا ، وكذلك العذاب الذى يحدثهم عنـه لا يتصورونه الا اذا رأوه فى صورة سقوط السماء أمامهم أو عليهم جهرة، والوحى الذى يحدثهم عنه لا يتصورونه الا اذا عـرج النبى الى السماء بجسده أمامهم ، بل يزيدون على ذلك أنهم لن يصدقوا بأى وحى اليه أو بأى كلام ينقله عن الله خلال رقيه الى السماء الا اذا كان أمرا حسيا فى صورة كتاب ينزل من السماء أمامهم فيقرءوه .

---

(٣٧) ٥٥ سورة البقرة .

(٣٨) ٩٠ ـ ٩٣ سورة الاسراء .

أما اذا لم يفعل الأنبياء ذلك فانهم سيكونون موضع سخرية أقوامهم كما كانوا فعلا ٠

والقرآن يوجز هذا التفكير المادى من الكافرين فى تعبير :

[زين للذين كفروا الحياة الدنيا]

بمعنى أن التفكير المادى الدنيوى سيطر على نفوسهم ، وحيث لم يتحقق لهم ذلك جعلوا المخالفين لتفكيرهم وهم المؤمنون موضع سخريتهم ، كقوله تعالى :

[زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ٠٠٠] (٣٩)

بمعنى أن سخريتهم من المؤمنين نابعة من سيطرة المقاييس المادية الدنيوية على نفوسهم فهم يرون المؤمنين بما يعتقدونه من الغيبيات بصفة عامة شاذين يستحقون السخرية والاستهزاء ، مع أن حقيقة الأمر أن المؤمنين هم أصحاب الفكر السليم والنظرة الصحيحة ، وسيتبين للجميع هذا يوم القيامة ، وهو معنى (**والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة**) ٠

يعرض القرآن صورة عملية من واقع سخرية أعداء الله بالمؤمنين بدعوة الاسلام ، حيث يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم طلب من المسلمين جمع الصدقة فى مناسبة التجهز للقتال ، فجاء أحد المهاجرين وهو عبد الرحمن بن عوف بنصف ماله ، بأربعة آلاف درهم ، وجاء أحد الأنصار وهو أبو عقيل الانصارى بصاع واحد من التمر ، وقال انى قضيت ليلتى أعمل أجيرا بصاعين ، فجئت بأحدهما وتركت الآخر لعيالى ، فأخذ أعداء الله يسخرون من الرجلين معا ، متهمين اياهما بالرياء والتظاهر ، مع أن الرجلين مختلفان فى موقفهما المعيشى ، وان جمع بينهما الايمان العميق ، ولكن أعداء الايمان لا يرضون عن شىء يتعلق بالايمان ، حتى وان كان من باب الشىء ونقيضه ، ويروى أن هذا سبب نزول هذه الآية :

[الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم] (٤٠)

---

(٣٩) ٢١٢ سورة البقرة ٠

(٤٠) سورة التوبة ٠

واللمز ليس عداوة مباشرة فى صورة المواجهة ، وانمــا هو نوع من السخرية والاستهزاء ٠

والقرآن يوضح فى مواضع عديدة منه أنه كان من أسباب نفــور السادة والملأ من الدخــول فى الأديان السماوية أنهم يأنفون من أن يجتمعوا مع الفقراء والعامة الذين اعتنقوا الدين ، ويرون هــذا نزولا بأقدارهم ومكانتهم الاجتماعية ، وقد كان هــذا منهجــا دائما للمشركين فى كل العصور ، ومن ذلك قول قوم نوح له :

[أنؤمن لك واتبعك الأرذلون] ؟ (٤١)

وكان وجود هؤلاء الفقراء المستضعفين من المؤمنين حول النبى هو المانع الوحيد لهم من الايمان ٠

والقرآن يعرض أيضا صورة من واقع الاسلام ضمن صور كثيــرة فى هذا المجال ، فان النبى صلى الله عليه وسلم من شدة حرصه على توسيع نطاق الاسلام وعلمه بنفور الخاصة من النزول الى مصاحبة العامة ، شغل عن عبد الله بن شريح المعروف بابن أم مكتوم وكان من فقراء المســلمين وكان كفيف البصر ضاق به ، وشغل عنه باستقبال عدد من سادة قريش راجيا أن يكون حسن تودده اليهم شارحا صدورهم للاسلام ، ولكن الله سبحانه يلوم رسوله لوما شديدا فى هذا ، حتى كان هذا اللوم اسما لسورة مستقلة فى القرآن ، فى قوله تعالى :

[عبس وتولى ، أن جــاءه الأعمى ، وما
يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ،
أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك
ألا يزكى ٠٠] (٤٢)

فكان كلما قدم ابن أم مكتوم على رسول الله بعد ذلك يستقبله قائلا: اهلا بمن عاتبنى فيه ربى ٠

والقرآن ينوع عرض مشاهد الســخرية من المؤمنين ، ومشــاهد ذكريات هذه السخرية ، فكما عرضها فى مشاهد الدنيا فى عدة مشاهد فكذلك يعرض ذكريات هذه السخرية فى الآخرة وعواقبها ٠

ومن هذه المشاهد مشهد فى جهنم ، حيث يتلظى أعداء الله عذابها ، ويرى بعضهم بعضا ، ولكنهم يجولون بأبصــارهم يبحثون عن هــؤلاء

---

(٤١) ١١١ سورة الشعراء ٠
(٤٢) سورة عبس ٠

الفلة من المؤمنين الذين كانوا يرونهم أراذل النـــاس وشرارهم ، والذين يوقنون بانهم اليوم أسوأ الناس حالا كما كانوا فى الدنيا فى نظرهم أسوأ الناس حالا بفقرهم وهوانهم ، ويظلون يبحثون ويتســـاءلون عنهـــم فلا يجدونهم ، ويتعجبون من ذلك لأنهـــم لا يشكون فى أنهم فى أســـوأ الأحوال ، وجهنم اليوم هى أسوأ الأحوال ، وكأنهم لا يجدون حينئذ الا أحد احتمالين لعدم رؤيتهم المؤمنين فى جهنم ، فاما أن يكون المؤمنون قد تعمدوا أن يختفوا عن الأنظار خزيا وخجلا لعدم تحقق ما كانوا يحلمون به فى الدنيا من الكرامة والنعيم فى الآخرة ، واما أن يكونوا لقلة عددهم تائهين بين هذا الزحام الشديد فلم تستطع العيون أن تتبين مكانهم ، ولكنهم فى كل حال لابد أن يكونوا فى جهنم كما يتصور أعداء الله ، والقـرآن يعرض هذ الصورة فى قوله تعالى :

[وقالوا ما لنا لا نرى رجـــالا كنا نعـــدهم من الأشرار ، اتخـــذناهم سخريا أم زاغت عنهـــم الأبصار] ؟ (٤٣)

وتعبير (**اتخذناهم سخريا**) ؟ بمعنى لعل المؤمنين خجلوا من سخريتنا بهم فتواروا عنا حتى لا نراهم فنكرر سخريتنا منهم ، وشماتتنا فيهم حيث لم يتحقق لهم ما كان يعدهم به النبى ، وهذا على افتراض أن المؤمنين لابد أن يكونوا حينئذ فى جهنم فى رأى المشركين ·

ومن مشاهد الآخرة أيضا مشاهد تستعاد فيها ذكريات الســـخرية من المؤمنين ، ولكن من زاوية أخرى ، هى اظهار النتيجة ، نتيجة ســخرية أعداء الله بالمؤمنين فى الدنيا ، وهى خزى الساخرين ، وفوز المســـخور منهم فى الآخرة ، ولذلك يسوق الله سبحانه مثل هذه الصورة عن طريقه هو، وبكلامه هو سبحانه ، كقوله تعالى للذين كانوا يسخرون من المؤمنين فى الدنيا ، وهم اليوم فى جهنم :

[قال اخسأوا فيها ولا تكلمون ، انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخريا حتى انسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ، انى جزيتهم اليـوم بما صبروا انهم هم الفائزون] (٤٤) ·

---

(٤٣) ٦٣ سورة ص ·

(٤٤) ١٠٩ ــ ١١٢ سورة المؤمنون ·

ففى المشهد السابق كان أعـــداء الله هم الذين يســـتعيدون ذكرى سخريتهم بالمؤمنين ، ولكن فى هذا المشهد فان الله سبحانه هو الذى يذكرهم بهذه السخرية ، مذكرا اياهم تذكيرا مؤلما بنتيجة سخريتهم بالقياس اليهم هم ، والى المؤمنين ، فاما هم فكانت النتيجة هذا العذاب الذى يصطلونه اليوم ، وأما المؤمنون فكانت نتيجة صبرهم على الايذاء والسخرية أنهـم اليوم هم الفائزون بالجنة والنعيم ورضوان الله ، ومن الواضح أن ايراد مثل هذا المشهد فى القرآن يتضمن انذارا وتحـــذيرا للذين يسخرون من المؤمنين بالمصير الذى ينتظرهم يوم القيامة ، كما يتضمن سلاحا نفســيا للمؤمنين ، يعينهم على احتمال ما يلقون فى سبيل الايمان من ســـخرية وايذاء ، حين يعلمون الوضع الذى سيكونون فيه هم ، والوضع الـذى سيكون فيه الساخرون منهم ٠

وتنتقل مشاهد القرآن من جهنم الى مشاهد فى الجنة ، يسوقها الله سبحانه من جهته هو ، من باب التحـــذير والانذار أيضا للساخرين من المؤمنين ، وكذلك لتثبيت ايمان المؤمنين وتقوية احتمالهم لما يلاقون من سخرية وأذى ، ومن ذلك هذا المشهد فى الجنة ، فى سياق وصف النعيـم الذى يتمتع به المؤمنون فى الجنة ، والكرامة التى رفعهم الله اليها بعـــد أن كانوا موضع ســخرية الناس فى الدنيا ، ومن ذلك هذا المشـــهد فى قوله تعـــالى :

[٠٠٠ عينا يشرب بها المقربون ، ان الذين أجرموا
كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم
يتغامزون ، واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ،
واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون] (٤٥)

فالمشهد يستعيد ذكرى سخرية أعداء الله من المؤمنين بالله ٠ مصورا كيف كانوا يحولون مجالسهم الى تسلية وتندر بالمؤمنين ، وكيف أنهم يتغامزون حين يمر بهم أحد المؤمنين ، ولا يكتفون بذلك ، وانما ينقلون هذه التسلية من المجالس الى البيوت ، فيكملون بقية أوقاتهم فى البيوت ساخرين مستهزئين بما عليه المؤمنون من الايمان ، موقنين بأن الايمان بالله ضلال وجهـــل ٠

---

(٤٥) ٢٨ ـ ٣٢ سورة المطففين ٠

ولكن المشهد يبرز النتيجة التى تطعن صدور الساخرين ، بينما تملأ صدور المؤمنين ثباتا ويقينا ورضا ، وهذه النتيجة هى :

[فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظـــرون ، هل ثوب الكفـــار ما كانوا يفعلون] ؟ (٤٦)

فالمشهد يقلب الوضع الى ما هو أحسن بالقياس الى المؤمنين المسخور منهم ، فكما كان المشركون يتخذون مجالس يسخرون فيها من المؤمنين ، فالمؤمنون اليوم فى مجالس خير من مجالس أولئك ، مجالس على الأرائك فى الجنة ، وهم يســـــخرون من أعـــداء الله الذين كانوا فى الدنيا هم الساخرين ، وكما كان أعداء الله ينظرون الى المؤمنين حين يمرون بهـم ساخرين منهم ، فكذلك المؤمنون فى الجنة (ينظرون) الى أعداء الله وهم يصطلون من عذاب الله فى جهنم ، وحينئذ يبرز هذا السؤال البالغ السخرية من الكفار (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) ؟ بمعنى هل أعطاهم الله ثواب ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من السخرية بالمؤمنين ، ومن أبرز مواضـــع السخرية فى الآية لفظ (ثوب) المبنى للمجهول ، فان العذاب الذى هم فيـه ليس ثوابا لهم ، وانما هو عقاب ، فالتعبير من باب السخرية والتهـــكم ليكون مجازاة لهم على سخريتهم بالمؤمنين ، والسخرية تنبع من أن القرآن يشبه سخرية الكافرين من المؤمنين بالعمل الحسن ، وكل عمل حسن لـه ثواب مادى أو معنوى ، وكأن الكافرين كانوا ينتظرون ثواب ســـخريتهم من المؤمنين ، فيقال لهم فى عذاب جهنم هذا ثوابكم ، أو هل ترون هذا ثوابا مناسبا لعملكم ؟

---

(٤٦) آخر سورة المطففين .

سخرية القرآن

من الواضح أن أعداء الله هم الذين يبدءون الحرب والهجوم على الدين ممثلا فى شخص النبى ودعوته وأتباعه من المؤمنين ، لأن دعـــوة الأنبياء جميعا دعوة سلم ، تقـــوم على اللين والحسنى ، ولا يتجاوزون الدعوة باللسان والمنطق العقلى الى الايمان بالله وحده ، وهذا هو جوهر كل دعوات الأنبياء على الاطلاق ، ولكن الأنبياء دائما يواجهون بنوعين من الكفر ، أحدهما انكار وجود الله ، والآخر الاعتراف بالله ولكن مـــع وجود شركاء له من الآلهة التى يعبدونها من دون الله أو مع الله ، فكل دعوات الأنبياء تنحصر أساسا فى وحدانية الله التى تتضمن الشقين ، الايمان بالله ، وبأنه واحد لا شريك له ، وعندما يتخطى الانسان هـــذه العقبة فكل شىء فى الدنيا أيسر ، وهذا معنى الحديث الشريف :

[خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا اله الا الله]

فعندما يؤمن الانسان بوحدانية الله ، فسيؤمن بالرسول الذى ارسله ، وينقاد لله فيما يأمره به وينهاه عنه ، وحتى اذا عصى الله ، فانه اذا كان صادق الايمان بالله فسيخاف من غضب الله وعقابه ، وهذا الخوف نفسه توبة الى الله تنتج مغفرة الله ورضاه ، بخلاف الذى وضع بينه وبين الله سدا هو الكفر ، ولهذا يتكرر فى القرآن مثل قوله تعالى :

[ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء] (١)

---

(١) ٤٨ سورة النساء وأيضا ١١٦ سورة النساء .

فكل نبى لا يطلب من قومه أساسا غير وحدانية الله ، ولكن الغالبية العظمى من الناس ترفض هذه الدعوة ، ثم لا تكتفى بالرفض ، وانما تبدأ فى ايذاء النبى وتابعيه بأساليب ووسائل مختلفة حسب اختلاف البيئة والملابسات . مما هو معروف . حتى ان بعض الأنبياء كان يقضى حياته يدعو قومه الى الايمان فلا يستجيب له بضعة أفراد ، والباقون يعلنون الحرب النفسية على النبى ودينه وأتباعه ، ومن أهمها حرب السخرية ، وكذلك كان الحال فى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل لا زال الحال حتى اليوم . وسيظل كذلك الى ما شاء الله ، فالصراع بين الايمان والكفر ، والخير والشر صراع ملازم للبشرية منذ وجدت ، وسيظل حتى تزول . ومن الواضح اليوم أن الدين بصفة عامة ، وخصوصا الاسلام موضع سخرية أعداء الله فى العالم كله ، بل موضع سخرية المنافقين من بين المسلمين أنفسهم ، وغالبيتهم من المثقفين الذين تغذت عقولهم مما يدسه أعداء الله من سموم فكرية ، فأثمرت هذه السموم الحادا عميقا فى نفوسهم ، لا يستطيعون اعلانه لأنهم فى نظر المجتمع مسلمون ، فيحولونه بدورهم الى سموم يبثونها من خلال ما يقدمونه فى ثوب ثقافى ، سواء الى طلابهم أو فى وسائل الاعلام المختلفة ، وهؤلاء المنافقون ليسوا قلة ، بل هم كثرة منتشرة بطريقة كأنها مدروسة ومقدرة فى كل أنحاء الأمة الاسلامية ، وبالذات فى مجالى الثقافة والاعلام ، وهما أخطر مجالين للتوجيه الفكرى والنفسى .

والاسلام دين حى ، وقد تعهد الله سبحانه باستمرار حياته ، من خلال حياة القرآن ، فان القرآن دستور الاسلام ، بل هو روح الاسلام ، وقد تعهد الله بحفظ القرآن فى قوله تعالى :

[انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون] (٢)

وبمنطق التلازم أو التعاقب بين الأضداد أو ما يشبهها ، فانه ما دام الخير موجودا فلابد أن يكون الشر أيضا موجودا ، وما دام الايمان موجودا فلابد أن يكون الكفر أو الالحاد أيضا موجودا ، ومقتضى وجود الاسلام حيا أن يكون مقابله وهو الكفر به أو الالحاد فيه موجودا ، ولست أعنى بمقابله المجتمعات غير الاسلامية ، فمن البدهى أن غير المسلمين أعداء للاسلام صراحة أو حكما ، ولكنى أعنى المجتمع الاسلامى نفسه ، فالمجتمع الاسلامى لا نستطيع أن نعد كل أفراده مؤمنين بالاسلام ، لأن هناك فرقا

(٢) ٩ سورة الحجر .

كبيرا وشاسعا كما هو معروف بين معنى الاسلام وهو الطاعة والانقياد ، ومعنى الايمان وهو الاقتناع واليقين النفسى والعقلى ، والاسلام يورث ، ولكن الايمان لا يورث ، بمعنى أن المولود فى مجتمع اسلامى أو غيره ينشأ عادة وهو معتنق عادات هذا المجتمع وتقاليده ، ومنها دينه ، لأن أى دين يتحول فى المجتمع الى ما يشبه العادات والتقاليد فى عباداته ومظاهره ، ولكن الأفراد ذوى التفكير كالمثقفين حينما يحتكون بفكر غير الفكر الاســـلامى لابد أن تحدث فى نفوسهم ولو بدون قصد موازنة بين فكر الاسلام وغيره ، ولابد أن يتردد هذا فى داخل نفوسهم ، فيصبح الاسلام فى جوهره الدينى كأنه معروض عليهم من جديد ، كما كان معــــروضا على الناس فى بدء الاسلام ، فالنفوس التى يلقى الله فيها التهيؤ للايمان واليقين الدينى تزداد تمسكا بالاسلام ورسوخا فيه ، والنفوس التى لا يلقى الله فيها هذا التهيــؤ تمتلىء بالوساوس والشكوك ، فتنتهى الى أى لون من ألوان الالحاد ، كالشيوعية أو الوجودية أو البهائية أو النزوع الى أى دين أو مذهب آخر غير الاسلام ، ويكفى للالحاد فى الاسلام أو فى أى دين أو مذهب عـــدم الاقتناع به ، فان الايمان هو اليقين النفسى والعقلى ، فاذا نزل عن هذه الدرجة الى أية درجة من الشك أو الظن أو الاحتمال لم يكن ايمانا ، وهذا ما حدث لكثير من المثقفين فى كل انحاء الأمة الاســـلامية الذين يعلنون انتماءهم الى مذاهب أو عقائد غير الاسلام ، واغلب الظن أن الذين لـــم يعلنوا علانية انتماءهم الى مذاهب أخرى أكثر عددا من المعلنين ، وهؤلاء هم المنافقون فى الاسلام ، ولكنهم لنشأتهم فى مجتمـــع اسلامى ، وارتباط مصـــالحهم ومنافعهم بهذا المجتمع لا يســـتطيعون اعـــلان انسلاخهم من الاســـلام ، ثم لا يكتفون بحمل الالحاد فى نفوسهم ، وانما يلتمسون كل سبيل لبثه ودسه فى وسائل كثيرة متنوعة كما نشاهد من واقع الحيـــاة اليـــوم (٣) .

واذن فاعتناق الاسلام شىء ، والايمان النفسى والعقلى به شىء آخر ، ومن روائع القرآن فى هذا قوله تعالى :

[قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولـــكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم] (٤)

---

(٣) انظر كتاب أسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٤) ١٤ سورة الحجرات .

بمعنى أنكم يصدق عليكم وصف الاسلام بمعنى الطاعة والانقياد ، ولكن مرحلة الايمان واليقين النفسى والعقلى لا تتحقق لكم فور اعــلان اسلامكم ، فاذا داومتم على الطاعة ، وتفهمتم الدين ، واقتنعت به نفوسكم وعقولكم ينتظر لكم وصف الايمان الذى هو اليقين النفسى والعقلى ، وهو معنى (ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) ، ولكنهم وان لم يستحقوا بعـد وصف الايمـــان الا أنهم فى الطـــريق اليه ، أما الذين نتحدث عنهم فى المجتمعات الاسلامية اليوم فليسوا فى طريق الايمان ، وانما فى الطـريق المضاد للايمان ، ورغم أنهم يتزيون بزى الاسلام ، وينطقون شهادة الاسلام ، بل كلما شعر أحدهم بأن ضوء الدين اتجه اليه ليكشف نفاقه سارع الى التفاخر بشدة تمسكه بالاسلام ، وبما يؤديه من عباداته ، ليتخذ من هذا غطاء يحاول ستر الحاده به ·

والأسلحة التى يستخدمها أعداء الله ضد الاسلام لا تكاد تحصى فى كثرتها وتنوعها ، ولكن الذى يعنينا منها هنا ســـلاح الســـخرية الذى استخدموه ضد كل شىء فى الدين كما رأينا فى النبذة السابقة ، وكما نرى اليوم فى السخريات المرسومة والمقدرة التى تصوب نحو الدين من كل وجه من أوجه أعداء الله الظاهرين ، وأعداء الله المنافقين ·

وعلى سبيل المثال فان أعداء الدين يصوغون شعارات فى صـــورة مصطلحات للسخرية من الذين يتمسكون بالدين ، وفى الوقت نفسه للتنفير من التمسك بالدين ، وحينما يصوغون مصطلحا يركزون كل وسائل الاعلام لابرازه والتشهير بمن ينطبق عليه ، والسخرية الشديدة ممن يلصق به ، فاذا خبا بريق هذا المصطلح يكونون قد أبرزوا مصطلحا جديدا تنقـــل وسائل الاعلام أضواءها وأبواقها اليه ، ولنأخذ من هذه المصطلحات على سبيل المثال ثلاثة ألفاظ تداولها هذا القرن العشرون بالترتيب فى أحقاب متوالية ، وهى :

التعصب :

انطلق دوى هذا المصطلح فى الحقبة الأولى من هذا القرن ، وجلجلت أصداؤه فى أنحاء المجتمع بتركيز شديد من وسائل الاعلام ، فى تصوير أن الذى يظهر أى تشبث بالدين أو تمسك به أو دفاع عنه فهو يستحق أن يوصف بهذا الوصف وهو التعصب الذى تصوره وسائل الاعلام فى صورة بالغة القبح والشذوذ ، وكأن المتعصب شخص منطو على نفسه وعلى دينه، شديد النفور بل الكراهية لكل الناس وكل الأديان ، بل كأنه امرؤ يعيش فى الحياة وبين الناس مغمض العينين، أصم الأذنين، موثق اليدين والرجلين، لا يرى ولا يسمع ولا يتحرك الا فى صومعة محكمة الاغلاق عليه ، لا تتيح

له أن يحس بشيء مما حوله بأية حاسة من حواسه ، لأن أبواق أعـــداء الدين تصوره مجردا من كل حاسة الا حاسته الدينية السطحية ، وقـــد لا يكون هذا الذى يصفونه بالتعصب شديد التمسك بدينه ، ولا شديد التوافق فى سلوكه مع مقتضيات دينه ، ولكنهم يريدون أن يجعلوا من مجـــرد الانتماء الى الدين سبة ينفر منها كل انسان ٠

وحيث ان أعداء الدين يكونون عادة جماعات منظمة ذات أهداف محددة ، وهم يحرصون دائما حرصا شديدا على أن يتملكوا أزمة التوجيه الفكرى فى المجتمع ، وخصوصا زمام الثقافة بما تشتمل عليه من وسائل التعليم والتأليف وغير ذلك ، وزمام الاعلام بكل ما يشتمل عليـــه من وسائل الصحافة والاذاعة ووسائل الترفيه الهادف المعروف بالفن فى كل صوره ، فحينما يطلق هذا الوصف وهو التعصب على شخص فى خلال حديث أو جملة قد يبدو هذا شيئا عابرا أو عاديا ، ولكن أعداء الدين لابد أن يجعلوا ذلك فى سياق يجعل من هذا الوصف كأنه قذيفة قاتلة اجتماعيا لمن توجه اليه ، وتترتب على ذلك أمور كثيرة منها الحيلولة غالبا دون من يوصف بالتعصب والوصول الى أى منصب أو ميزة ، فان أعداء الدين عادة يكونون كما سبق جماعات منظمة يجمعها العداء للدين ، والشعور بأنهم يواجهون عدوا مشتركا وهو المؤمنون ، وقد ترددت فى القـــرآن الكريم الاشارة الى هذا المعنى كقوله تعالى :

[المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ٠٠] (٥)

فانهم حينما يكونون فى مجتمع مؤمن يجمعهم الشـــعور بالخطر فيصبحون كأنهم شخص واحد (بعضهم من بعض) يديرون أمرهم فيمـــا بينهم بتنظيم وتقدير كما يشير القرآن الى نحو ذلك فى كثير من مواضـــعه كقـــوله تعـــالى :

[واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون] (٦)

وشياطينهم هم مركز قيادتهم ، وقيادة تجمعهم ، والذى يعنينا من هذا هنا أن تجمعهم المتغلغل فى كل مكان وخصوصا فى الأماكن الهـــامة فى المجتمع يستطيع أن يحارب من يوصف بالتعصب فيحول بينه وبين الوصول الى أى مكان ذى قيمة ، ويضع العقبات أمامه فى كل طريق يسير فيه ، ليكون عبرة للمتمسكين بالدين ، وتنفيرا لكل راغب فى الاتجـــاه الى الايمـــان ٠

---

(٥) ٦٧ سورة التوبة ٠

(٦) ١٤ سورة البقرة ٠

ولكن اليسير من التأمل فى هذا المصطلح وهو التعصب يكشف لنا مدى التضليل والتزييف فى دلالته التى يريدونها ، فان التعصب للـدين بمعنى التمسك والتشبث به والدفاع عنه هو أمر من صلب الايمان نفسه ، فلا يعد المرء مؤمنا بعقيدة أو بأى شىء الا كان متمسكا به ومستعدا للدفاع عنه ، والمؤمن الذى لا يتشبث بعقيدته ولا يدافع عنها لا يعد أصلا مؤمنا ، بل مدعيا ادعاء كاذبا أو خادعا ، وأعداء الدين يعرفون هذا ويقرونه فى كل شىء الا فى الدين ، فحينما يتحدثون مثلا عن الوطنيـــة يؤكدون بل ويبالغون فى أن المواطن لابد أن يتشبث بانتمائه الوطنى ، وأن يدافع عن وطنيته بكل ما يملك ، بل حينما يتحدثون عن الموقف أو الرأى يؤكدون أن صاحب الموقف أو الرأى لابد أن يتمسك بموقفه أو رأيه ، ولابد أن يدافـع عنهما ، ويكون هذا هو الوضع الصحيح المحمود فى كل شىء الا فى العقيدة فان التشبث بها أو الدفاع عنها فى زعمهم هو الشىء القبيح المذموم ، وهم ولا شك أعلم الناس بأنهم فى هذا كاذبون ومخادعون ، فان العقيدة هى القيادة الحقيقية التى صاغت فكر البشرية وحضارتها وثقافتها فى كـل العصور والأجيال ، سواء أكانت عقيدة صحيحة أم باطلة كالحضـــارة الفرعونية التى نبعت كلها من العقيدة ، وكل مهمة الدين أن يصحح هـذه القيادة حتى لا يضيع الانسان حياته فى طريق خاطىء ، وحتى لا تضيع البشرية أيضا حياتها على الأرض فى ضلال الطريق ٠

الرجعيـــة :

وحينما خبا بريق مصطلح (التعصب) أبرز أعداء الدين مصطلحا آخر فى الحقبة الثانية من هذا القرن ، وهو اصطلاح (الرجعية) ليكون سلاحا للسخرية أشد ايلاما وأوسع شمولا ، ويصوب ليس نحو المتمسكين بدينهم فحسب ، وانما أيضا نحو كل من يهتم بالتراث ، أو يحاول احيـاءه أو الدعوة اليه ، أو يرى فى الماضى كله ما يستحق أن يرجع اليه ، أو ينظر اليه ، سواء أكان ماضيا دينيا أم علميا ، ولكن هذا الخطر فى الرجـــوع الى الماضى ينتهى عند ماضى الاسلام الدينى والعلمى والحضارى ، أما اذا تجاوز الرجوع ذلك الى الايغال فى الماضى البعيد كالرجـــوع الى ماضى الفراعنة أو الاغريق أو أى أمة ، فانه رجوع حسن مفيد ، بل هو رجـــوع عظيم النفع والعون على التقدم الحضارى والعلمى ، فان العثور على حجر أثرى ، أو كلمة هيروغليفية فرعونية ، أو جملة تنسب لمفكر اغريقى مهمـا تكن دلالتها أو قيمتها صغيرة أو كبيرة فانها فى رأيهم تدفع البشرية درجة أو درجات فى سلم الحضارة والترقى ، أما العيب فى رأيهم كل العيب ، والجهل كل الجهل والسفه كل السـفه ، وقل ما شئت من ألفاظ الاهانة والسخرية فهى لمن ينظر الى أى شىء من ماضى الاسلام أو ما يتعـلق

به ويتصل بحضارته ، سواء من اللغة ، أو العلم أو النهضة المعمـــارية أو الفنية أو أى شىء يرتبط بالاسلام وتاريخه ، فقد وجدوا أن الاســـلام له جذور تغذيه ، وله فروع أثمرها فى حضارته ، ومن جذور الاسلام اللغة العربية التى اذا ندثرت تقطعت الجسور الموصلة الى الاسلام بطريق مباشر ومما يتصل باللغـــة العـــربية الآداب العـــربية ، ســـواء من الجاهلية والاسلام ، وأما فروع الاسلام فكثيرة منها النهضة الفكرية والعلميـــة التى غمرت العالم فى القرون الأولى من الاسلام ، وأعداء الاسلام لا تعنيهم هذه التفاصيل لذاتها ، وانما يعنيهم أن يحاولوا تقطيع كل الخيوط التى تربط المسلمين بالاسلام ، وتشويه كل ما أثمره الاسلام من حضارة فى أية صورة، ليحاولوا زعزعة عقيدة الاسلام فى نفوس المسلمين ، وليحـــاولوا قطـــع الطريق على من يريد الاتجاه الى الاسلام من غير المسلمين ٠

وحشدوا كل وسائل الاعلام بأقلامها وألسنتها وأفانينها المســـموعة والمصورة لتصب سيلا دافقا من السخرية على الرجعية والرجعيين ، حتى أصبحت كلمة (الرجعية) سبة من أقبح السباب ، بل ان كثيرا من السباب المؤلمة ، والسخريات المزرية قد يشار بها الى شخص فلا تبلغ به من الهـــوان ما يبلغه وصفه بأنه (رجعى) ٠

وحيث كان أبناء الأزهر بحكم ثقافتهم هم حراس التراث ودعـــاة الاسلام ، فقد نالوا من سخرية أعداء الاسلام باسم الرجعية الكثير من السخريات ، وعلى سبيل المثال كانت تصدر فى أواسط هذا القرن مجـــلة فكاهية أسبوعية تسمى (البعكوكة) تصوغ كل موضوعاتها وآرائها فى أسلوب فكاهى يأخذ صورة النقد الساخر ، وفيها باب ثابت للشعر الفكاهى، يؤخذ فيه بيت من الشعر الذائع ، ثم تنسج على منواله قصيدة فكاهية ، تطرق الموضوع نفسه بوصفه عنوانا ، ثم تسوق ما تريد من معان وآراء فى هذا الموضوع ، فأخذوا ذات مرة مطلع قصيدة شوقى فى تحية الأزهر وتمجيده ، وهو :

قـــم فى فم الدنيـــا وحى الأزهرا —
وانثر على سمع الزمان الجـــوهرا

فصاغو كما يلى :

قم فى فم الدنيـــا وحى الأزهـــــرا
قوم اذا قيـــل اقدموا رجعـــوا ورا

ثم ساقوا بقية القصيدة فى ســـخرية شـــديدة من الأزهريين الذين يخالفون فى رأيهم سنة الحياة ، فبينما الحياة تدعو الى التقدم والحضارة

هم يسعون الى التأخر والتخلف بشعار الرجعية الذى أبرزوه فى المطلع (رجعوا ورا) وكل جريمة الأزهر عند أعداء الاسلام أنه (يرجع) الى الاسلام وشريعته وتراثه ، فهو اذن (رجعى) ولكنها عندهم جريمة لا تعدلها جريمة أخرى ٠

التنـــوير :

وحين خبا أيضا بريق مصطلح الرجعية أبرزوا فى الآونة الأخيرة بيننا مصطلحا آخر ، هو مصطلح (التنوير) بمعنى الانارة والاضاءة ، وهم يعنون به أن عقول الشعب تحتاج الى انارة واضاءة لازالة الظلام الـــذى خيم عليها ، والمصدر الوحيد فى رأيهم لهذا الظلام هو الاسلام ، الـــذى يرونه محض خرافات وأساطير ، وهذه الخرافات والأساطير هى التى أفسدت تفكير الشعب وأظلمت عقوله فهى فى حاجة الى (تنوير) وقـــد هيأهم الله سبحانه هم لينيروا عقوله كما يزعمون فى أنهم هم الذين يحملون أمانة (التنوير) ومسئوليته ٠

وقد بدأت أيضا وسائل الاعلام تحشد أبواقها وألسنتها وأقلامها وسائر وسائلها لابراز (التنوير) ومحاولة جعله هو القضية القومية التى يجب أن تحشد لها كل الامكانات ، وتتقدم على غيرها من القضايا ، وقد رأينا دوى حملة (التنوير) فى أرجاء المجتمع ٠

فهذه هى المعارض الثقافية العـــامة تخصص كل ندواتها الثقافية اليومية لتكون تحت شعار (التنوير) اضافة الى ما يتوالى من ندوات ومحافل ثقافية ، ومقالات عديدة متتالية فى هذا الموضوع ، وهذه هى الجامعات ، سواء فى القاهرة أو الأقاليم تتخذ من ذكرى طه حسين مناسبة أو ستارا لحملة (التنوير) ، بشعار أن طه حسين هو قائد (التنوير) أو هو من أبرز قادته ، حيث كان من أشد أئمة التنوير تلميحا وتصريحا بأهداف دعاته ، ومن أمثلة ذلك أنه يتحدث عن سيرة النبى صلى الله عليه وسلم بوصفه رسول الاسلام فيصرح بمـــا مضـــمونه ان ذلك كله ليس الا خـــرافات وأساطير أراد أن يســلى بهـــا عواطف النـــاس ووجدانهم ، وذلك فى مقدمة كتـــابه (على هامش الســـيرة) ، وأيضـــا من المعـــروف أن طه حســين ظل طـــوال حياته يعلن عـــداوته البـــالغة للازهر ، ويطـــالب علانية بالغاء التعليم الدينى الذى يمثله الأزهر ، وقد كتب فى ذلك مقالا مشـــهورا بعنوان (الخطـــوة الثـــانية) ومضـــمونه أنه حيث نجحت الثورة فى الغاء القضـــاء الشرعى ، فعليها الخطـــوة الثانية وهى الغاء التعليم الدينى ، وهكذا ، فهو اذن جدير بأن يحتفل دعاة (التنوير) بذكراه، وأن يجعلوه اماما لدعوتهم الى انارة العقول من خرافات الاسلام التى ملأت العقول ظلاما كما يزعمون ٠

وهؤلاء المنافقون الذين يتحدثون باسم الاسلام ويتزيون بزيه وفى الوقت نفسه يهدمون فى قواعده ، ويطعنون فى صرحه خطورتهم أن كثيرا من صغار الثقافة الاسلامية ، أو صغار الادراك العقلى قد ينخدعون ببعض قولهم ، كما يقول تعالى فى سياق الحديث عن المنافقين :

[وفيكم سماعون لهم] (٧)

خصوصا وأن المنافق لن ينجح فى نفاقه ، بل لا يستطيع أن يكـــون منافقا الا اذا كانت لديه مهارات تحدث عنها القرآن بتوضيح فى مواضع كثيرة منه وخصوصا فى سورة (المنافقون) ومن هذه المهارات اجــادة الحديث ، كقوله تعالى :

[ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا
ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصــام ،
واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ··] (٨)

ومن هنا كان النفاق أخطر من الكفر الصريح الظاهر ، وبالتالى فان جريمته أكبر وأشد ، ومن هذا القبيل قوله تعالى :

[ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار] (٩)

والعقاب يتحدد بمقدار الجرم ، فكونهم فى الدرك الأسفل مبنى عــلى أن جريمتهم وهى النفاق أسوأ جريمة على الاطلاق ، بما فى ذلك الشرك والكفر الظاهر الصريح ، وهذا واضح فى واقع المسلمين اليوم وفى كـــل عصر ، فان الهجوم على الاسلام حينما يأتى من غير المسلمين فانه يثيــر حمية المسلمين للدفاع عن دينهم ، فينبرى للدفــاع عنه حتى ذوو الايمان الواهى ، أما الهجوم على الاسلام من شخص يؤكد أنه مسلم ، وأنه لايريد الا رفعة الاسلام والنهوض به ، وان ما يعيبه على الاسلام أو المســـلمين انما هو من باب محاولة تنقية عقيدة المسلمين مما يكون سببا فى ضعفهم او تخلفهم كما يزعم المنـــافقون اليوم من أمثـــال دعاة (التنوير) لعقول المسلمين فهذا هو الخطر الداهم ، لأن هذا التغرير والخداع سينطلى على بعض غير قليل من عامة الشباب والمثقفين ، ثم يصـبح هـذا التشكيك كالداء الذى يسرى فى داخل الجسد الاسلامى سواء بسرعة أو ببطء ·

---

(٧) ٤٧ سورة التوبة ·

(٨) ٢٠٤ سورة البقرة ·

(٩) ١٤٥ سورة النساء ·

موقف القـــرآن :

وننتهى من هذا كله الى أن القرآن حين يستخدم السخرية لا يستخدمها للهجوم ، وانما للدفاع ، حيث ان أعداء القرآن منذ بدء الاسلام حتى اليوم استخدموا ولا زالوا وسيظلون يستخدمون كل أسلحتهم ضد الاسلام ، ومن أبرز أسلحتهم سلاح السخرية ، بل هو السلاح الذى يؤكد القرآن كثيرا أنه ما من رسول من رسل الله الى البشر الا وعانى من هذا السلاح الـذى يراجهه به قومه وهو السخرية والاستهزاء ، كقوله تعالى :

[يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون] (١٠)

ومن آثار اعجاز القرآن ، وكونه من عند الله أن يكون كاملا فى الوفاء بكل ما يتعلق بالاسلام وتحتاجه شريعته بوصفه دينا يجمع بين مقتضيات الدين والدنيا ، ومن ذلك :

اولا :

القـرآن يحتوى على كل أســاليب الدعـوة الى الاســلام ، فـان للدعوة أساليب متعددة متنوعة بتنوع عقليات الناس ونفسياتهم وطبائعهم، ومن المعروف حتى فى التعامل بين الناس أن بعضهم يؤثر فيه الاحسان ويجتذبه به ، بينما بعض آخر لا يؤثر فيه الا التخويف والوعيد ، وبعضهم يفهم حتى بالاشارة ، وبعضهم لا يفهم الا باطناب وبسط ، وبعضهم لا يحسن الاصغاء الا للقصص وأسلوب الاثارة العاطفية والوجدانية ، بينما بعضهم يكفيه الأسلوب العادى أو الخبرى ليلقى اليه بكل سمعه ، وهكذا يتنـــوع الناس ويختلفون اختلافا شديدا ، ولهذا نجد القرآن تتنوع أساليبه تنوعا كبيرا ، بين أساليب الوعد والاغراء ، وأساليب الوعيد والتخويف ، وأساليب القصة والحوار ، وأساليب المنطق والتفكير ، وأساليب العبرة والموعظة وغير ذلك ، بحيث نجد القرآن مستوعبا وشاملا كل الأساليب التى تحتاجها الدعوة الى الاسلام ليكون القرآن بذاته دعوة كاملة الجوانب والفروع ، وليكون مدرسة كاملة شاملة لكل ما يحتاجه الدعاة الى الاسلام من أسس التوجيه اذا أحسنوا فهم القرآن والاستفادة من تركيزه وايجازة ، وشعار هذا فى القــرآن :

[ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة] (١١)

---

(١٠) سورة يس .
(١١) ١٢٥ سورة النحل .

فان من حكمة الدعوة مراعاة أن الناس يختـــــلفون فى الأسلوب والطريقة التى يمكن أن تستميلهم الى الاسلام ، والنبى صلى الله عليه وسلم هو امام الدعاة ، لأنه أفهمهم للقرآن ، وأكملهم فى تطبيق توجيهه ، كما قالت عائشة حين سُئلت عن خلق النبى (**كان خلقه القرآن**) بمعنى أن خلقه كان تطبيقا عمليا كاملا للقرآن ، وقد بلغ من حكمته فى الدعوة أنه كـــان فى مكة مصارع رهيب يسمى ركانة ، لا يصمد أمامه فى المصارعة البدنية أحد ، فقال له النبى (أرأيت يا ركانة ان صرعتك ، أتسلم ؟) قال : نعم ، ثقة فى أن أحدا لا يستطيع أن يغلبه ، فصارعه ، فصرعه النبى ، فقـــال ركانة : لقد أخذتنى على غرة ، فلو أعدت المصارعة مرة أخرى ، فصارعه مرة أخرى ، فصرعه النبى أيضا ، ولعل النبى بطبيعة الحال كان قد دعاه بالمنطق العقلى فلم يستجب ، فوجد أن مثله لا يفهم ولا يستجيب عن طريق عقله ، وانما عن طريق قوته البدنية التى ملأته غرورا ، والنبى يملك هذه القوة البدنية ، فجعلها أسلوبا من أساليب الدعوة ، وفى نطاق (الحكمة) لأنها أسلوب سلمى بناء على اتفاق الطرفين ، وليس أسلوب بطش أو بغى ٠

ومن أساليب الدعوة فى القرآن السخرية ، فان الشرك بالله كان يقوم على دعائم راسخة فى المجتمع ، منها تقديس الآلهة ، ومن أصلب قواعد تقديس الآلهة أن عبادة الآلهة انتهت الى صورة عصبية قبلية ، حيث كان لكل قبيلة اله تعبده ، ولكن أهم ما فى هذه العبادة أن هذا الاله أصـــبح رمزا وشعارا للقبيلة ، ومن قواعد الشرك أيضا تراث الآباء والأجـداد فى عبادة هذه الآلهة ، فان ذكرى الأجداد من السادة كان لها عنـــدهم نوع من القداسة ، فما داموا كانوا يعبدون هذه الآلهة فان مخالفتهم تعنى تخطئتهم وتسفيههم ، وهذا أمر غير متصور فى مقـــابل تقديس الآباء والأجداد ، ولكن القرآن جعل آلهتهم موضعا ومجالا للسخرية ، كما جعل تقديس الآباء مع ضلالهم أيضا مجالا للسخرية ، وكانت هذه السخرية من أبلغ الوسائل لدعوة العقول الى التفكير الموضوعى المحايد فى حقيقة الآلهة التى يعبدونها ٠

ثانيا :

القرآن يتضمن كل جوانب التشريع الاسلامى مجملا ومفصلا ، ولم نكن مهمة النبى صلى الله عليه وسلم الا أنه بمثابة (الشارح) لمجمل القرآن ليفصله ، والمطبق لمفصله تطبيقا عمليا كاملا ، ليكون القدوة للمؤمنين ، وهذا أيضا معنى قول عائشة عن خلق النبى حين سئلت عنه (كان خلقه القرآن) وكل ما جاء به النبي من زيادة أو تفاصيل زائدة عما فى القرآن

مما يوصف بالسنن أو المستحبات فهى أمور كمالية فى الاسلام ، لا يخل نقصانها بايمان مؤمن أو تدينه ٠

فالقرآن تضمن كل الأسس الاسلامية ، سواء فى الجانب الروحى فيما يتعلق بالصلة بين العبد وربه من سائر العبادات المعروفة ، وفى الجانب الاجتماعى ، سواء أيضا ما يتعلق بتعامل الفرد مع غيره من الأفراد ، أو فى تعامله مع الجماعة والدولة ، أو فى تعامل الجماعات والدول بعضها مع بعض ٠

وقد كانت نعمة الله الكبرى التى خص بها الاسلام أن تعهد سبحانه بحفظ القرآن كما فى قوله تعالى :

[انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون] (١٢)

وقد ترتبت على ذلك مزايا للاسلام بالغة الأهمية ، بل مزايا يتعلق بعضها بحياة الاسلام نفسه بوصفه دينا ، ومن أهم هذه المزايا :

١ ـ حفظ الدين الاسلامى نفسه بوصفه تشريعا من التغيير والتبديل والتناقض ، فالوضع الطبيعى الذى يمكن أن يحدث فى أى دين سماوى أو مذهب بشرى ، أنه يوضع فى بدء أمره سليما محددا فى الصورة التى أريد بها ، ويظل كذلك طوال حياة النبى ان كان دينا سماويا ، أو منشىء المذهب ان كان مذهبا بشريا ، سياسيا أو اصلاحيا ، ولكن بعد وفاة النبى أو صاحب المذهب يبدأ أتباعه فى الاختلاف ، تبعا لاختلاف وجهات النظر فى التطبيق ، ونتيجة لتنافس قادة الاتباع وزعمائهم على أن يكون لكل منهم الوضع الأعلى ، فيبدأ كل منهم فى محاولة أن يجعل لنفسه وفكره طابعا يميزه عن غيره حتى يمكن أن يتميز أتباعه عن غيرهم فى أن لهم أحكاما وشعارات خاصة ، وهذا يستلزم بالضرورة أن يلجأ هذا الزعيم الى اضافة شىء الى الدين أو المذهب ، أو الى تغيير وتبديل فى الدين أو المذهب ، والا لما ساغ أن يكون له أتباع يختص هو بقيادتهم ، فالزعماء الدينيون الذين يخلفون أى نبى مثلا فى دينه لو ظلوا محافظين على الدين كما هو فلن يكونوا قادة أو زعماء بالمعنى الصحيح للقيادة والزعامة ، وانما يكونون فى أحسن أحوالهم قدوة دينية لغيرهم ، أما تبعية الأتباع جميعا فستكون للنبى ودينه فحسب ، بمعنى أن الأتباع حينئذ مهما تعددت القدوة أو العلماء فانهم انما يدينون للنبى ودينه الذى تركه ، بحيث اذا صدرت من الشخص الذى يقتدون به مخالفة للنبى فى دينه فانهم يرفضون الاقتداء

---

(١٢) ٩ سورة الحجر ٠

به فى هذه المخالفة ، بل ان ثقتهم فيه بوصفه قدوة لهم يحدث فيها خلال واهتزاز ، لذلك يحاول الزعيم الدينى أن يحدث فى الدين اضافة أو تغييرا، ويحاول بمهارته أن يجعله فى نظر الاتباع جزءا من الدين ، ثم بعد حين يحدث تغييرا أو اضافة ، حتى يصبح هو ذا مذهب أو منهج فى الدين خاص به ، ومن ثم يكون له أتباع متميزون بمذهبهم ومنهجهم عن غيرهم ، وفى الوقت نفسه يكون للزعيم أو الزعماء الآخرين مذهبهم ومنهجهم ، وهكذا قد يتحول الدين الأصلى ليس الى مذاهب فحسب ، بل الى أديان مختلفة ، وقد تصل فى اختلافها الى التعاوض والتناقض ٠

ولكن حفظ القرآن من التغيير والتبديل وهو مشتمل على أسس التشريع الاسلامى كاملة حمى الدين الاسلامى من تحويله الى أديان أو اتجاهات متعارضة متضاربة ، وقد تعددت فى الاسلام المذاهب والفرق والاتجاهات، ولكنها لم تستطع أن تصل الى حد التضارب والتناقض لوجود المرجع الأصلى وهو القرآن كاملا وسليما ، وأصبح وضع المذاهب الاسلامية على تعددها بين أمرين ، اما أن تتفق مع القرآن فتكون فى محيط الاسلام، واما أن تختلف معه فتخرج من دائرة الاسلام كله ، ولذلك انحصرت معظم خلافات المذاهب الاسلامية فى الفروع والسنن التى لا تخل بالاسلام ، والقلة التى خالفت أسس القرآن كان واضحا ومعروفا أنها ضالة عن الاسلام وخارجة عليه ، مع مراعاة أن تعبير الخروج هنا لا يعنى الاصطلاحات التاريخية فى الاسلام كجماعة الخوارج ، فان اصطلاح الخوارج لا يراد به الخروج على التشريع الاسلامى أو القرآن ، وانما يراد به الخروج على وحدة المسلمين وجماعتهم ٠

ويترتب على هذا أمر بالغ الأهمية الدينية ، وهو ان كل مسلم واع فى أى مذهب من المذاهب الاسلامية يدرك أن تبعيته الحقيقية انما هى للقرآن والرسول ، وأن زعماء مذهبه مهما يكن شأنهم فلن يزيدوا عن أن يكونوا قدوة له بشرط أن يستمدوا وضعهم من القرآن وهدى الرسول ، فان حادوا وجب عليه أن يخالفهم ، بل أن يواجههم بأنهم أخطأوا ، من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى لا عذر لمسلم قادر فى أن يتجاهله ، كما حدث من زيد بن على حينما كان فى مجلس الخليفة عبد الملك بن مروان فسمع من عبد الملك ما لا يتفق مع الدين فقال له اتق الله يا أمير المؤمنين ، فغضب عبد الملك قائلا أتأمرنى بتقوى الله يا زيد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ليس أحد فوق أن يؤمر بتقوى الله ، وليس أحد دون أن يأمر بتقوى الله ٠

٢ ـ وكان من أهم مزايا حفظ القرآن من الله رسوخ الانتماء الى الاسلام فى نفوس المجتمعات الاسلامية بحيث يستعصى فصم هذا الانتماء،

أو احلال أى انتماء بديل له ، وقد كانت هذه ميزة سياسية لحظها الباحثون والمؤرخون ، حيث لوحظ أن المجتمعات الاسلامية هى الوحيدة التى استعصت على الذوبان فى غيرها من الأمم الفاتحة والمنتصرة ، فكثير من الأمم حتى من ذوات الحضارة العريقة كالحضارة الفرعونية ، والحضارة البابلية ذابت فى الأمة الغازية ، فانمحت عاداتها وتقاليدها ولغتها ومعالم شخصيتها لتذوب فى حضارة الأمة العربية الفاتحة ، ولكن المجتمعات أو الشعوب الاسلامية هى التى لم تستطع قوة فاتحة أن تمحو شخصيتها ومعالمها ، وكان السبب فى ذلك هو وجود القرآن ، فان كل مسلم ، وكل مجتمع اسلامى يشعر بأنه مشدود الى القرآن وأن مخالفته اياه أو خروجه عليه أو انفصاله عنه يمحو عنه صفة الاسلام ، ولا يوجد بديل لذلك يحقق له الصفة الدينية التى سيفقدها ٠

ثالثا :

من جوانب التكامل فى القرآن أنه يشتمل على كل مقتضيات الدعوة الدينية وآثارها ، ومن ذلك أنه يتضمن أسلحة الهجوم وأسلحة الدفاع معا ، فأما أسلحة الهجوم فهى أسلحة عقلية بحتة ، لا تتجاوز دعوة الناس الى الدين الحق ، والعبادة الصحيحة متضمنة ابراز خطأ ما عليه الناس حينئذ من ضلال العقيدة والعبادة ، وهذا هو جانب الهجوم ، وأما جانب الدفاع فلم يكن عقليا بحتا ، وانما كان من نوع ما يستخدمه الناس من أسلحة ، وذلك أن المشركين لو بادلوا القرآن موقفه العقلى لما كان هناك داع لتجاوز الموقف العقلى ، ولكن ردهم على الدعوة العقلية من القرآن كان هجوما على النبى ومن شايعه فى دعوته من الناس بكل ما لديهم من أسلحة اعلامية كاستخدام الألسنة فى السب والتشهير والاهانة بكل صورها ، واستخدام الاقتصاد كالمقاطعة والمحاربة فى التعامل بكل صنوفه ، واستخدام الحرب بكل صورها النفسية كتأليب القبائل وحشد الحشود وتنفير الناس من الاسلام بكل وسيلة ، وصورها العسكرية كاستخدام الأسلحة العسكرية فى قتال ٠

وقد رد القرآن عليهم فى كل سلاح استخدموه بسلاح مماثل فى النوع ، ولكنه أمضى وأنفذ ، ومن الواضح أن القرآن قد وجه المسلمين الى استخدام كل الأسلحة التى لوح أو يمكن أن يلوحوا بها فى أى عصر وأى مكان ، ويمكن أن تكتب بحوث مستقلة فى كل نوع من هذه الأنواع ، وعلى

سبيل المثال فان القرآن يحشد كل الوسائل فى الحرب النفسية والعسكرية للرد على أعدائه ، ولحماية دعوته وأتباعه من طمع الطامعين فى قوله تعالى :

[وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم] (١٣)

ففى هذه الكلمات القليلة حشد هائل لكل أنواع الحرب النفسية والعسكرية ، ولكن اعجاز القرآن يصوغها فى هذه الكلمات الموجزة ٠

وذلك أن الآية لا تتحدث عن السلاح العسكرى مباشرة ، وانما تجعله نوعا من أنواع القوة ، فالأمر منصب على اعداد (القوة) فى كل صورها الممكنة سواء فى صورة القوة الاقتصادية ، أو القوة العلمية ، أو القوة الصناعية ، أو القوة السياسية ، وبصفة عامة (ما استطعتم من قوة) ثم كأنه قيل وبصفة خاصة رباط الخيل الذى هو رمز القوة العسكرية ، وكل هذه القوة فى كل صورها ليست للاستخدام المباشر ، فلم يقل فقاتلوا أو حاربوا بها وانما (ترهبون به) واثارة الرهبة فى العدو هى ثمرة أية حرب نفسية ، والآية تشير الى ثلاثة أنواع من الأعداء كلهم تردعه الرهبة من هذه القوة التى يملكها المسلمون ، وهم :

١ ــ الأعداء الذين يوجهون عداوتهم لحرب الدين نفسه بالتشكيك فيه أو بتنفير الناس منه بأية وسيلة ، وهم فى الآية (عدو الله)

٢ ــ الأعداء الذين يوجهون عداوتهم لحرب المسلمين بوصفهم كيانا اجتماعيا أو سياسيا بأية وسيلة من وسائل الحرب النفسية أو العسكرية وهم فى الآية (عدوكم) ٠

٣ ــ أنواع من الأعداء غير ظاهرين للمسلمين ، سواء أكانت عداوتهم هى المختفية رغم ظهور أشخاصهم كالمنافقين ، أم كانوا هم غير ظاهرين للمسلمين فى كيانهم كالأعداء فى أماكن أو أقاليم تبعد عن أعين المسلمين أو آذانهم ، سواء من القبائل أو الشعوب المحيطة بالمسلمين ، وهم فى الآية :

[وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم]

والذى يعنى هذا الحديث من موقف أعداء الاسلام وأسلحتهم هو سلاح السخرية الذى استخدمه أعداء الله ضد كل ما يتعلق بالدين ، كما

---

(١٣) ٦٠ سورة الأنفال ٠

رأينا من أمثلته فى الفصل السابق ، فان القرآن يرد عليهم بسلاحهم نفسه، وهو السخرية ، وهو العدل فى المعاملة بالمثل ، كما قال نوح عليه السلام لقـــومه :

[ان تســـخروا منـــا فانا نســـخر منكم كمـــا تســـخرون] (١٤)

وكما قال الله لرسوله محمد عليه السلام

[الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم] (١٥)

ولهذا نلحظ أن القرآن سخر من أعداء الله وأعداء الاسلام فى كل مجال استخدم فيه أعداء الله السخرية ·

ولكن هناك فارقا جوهريا فى الهدف بين سخرية القرآن وسخرية أعداء الله، فان سخرية أعداء الله تنصب على تحقير من توجه اليه واهانته ولا تكاد تعدو ذلك ، بينما سخرية القرآن ترتبط بأهداف الدين وغاياته ، وقد يبدو بعضها منصبا على اهانة شخص أو طائفة ، ولكن اليسير من التأمل سيظهر لنا أن الهدف ليس مجرد التهوين أو التحقير ، وانما الهدف خدمة قضية من قضايا الدين ، فسنجد مثلا أن السخرية من شخص انما تهدف الى ازالة نفوذ هذا الشخص من طريق الدين ، حيث أنه عقبة فى طريق نشره، لأن نفوذه وجاهه يخيفان العـامة والضعفاء من أن يتجهوا الى الدين ، وسنجد أن السخرية من طائفة معينة ليس لمجرد تحقيرها أو لمجرد الرد على ما يصدر منها ، وانما الهدف متعلق بالدين ، فان ما يصدر من هذه الطائفة قد يتضمن تنفيرا من الاسلام أو تشـــكيكا فيه ، أو تاكيدا له ، فسخرية القرآن تكشف كل ذلك ، وتعين المسلمين على مقاومة شرهم ، أو تكفيهم اياه ، كما أنها تبعث فى نفوس الراغبين فى الاسلام القوة والجرأة على الاتجاه اليه ، وعدم التأثر بما ينبعث من حنايا هذه الطائفة ، وهكذا نجد سخرية القرآن انما هى معالجة لقضايا من صلب الدين وأهدافه ، غاية الأمر أنها صيغت بأسلوب ساخر ، بينما صيغت هذه المعالجة نفسها فى القرآن بأساليب أخرى · حتى يكون تنوع هذه الأساليب مستوعبا لكل طبائع الناس فى استعدادهم للتقبل والفهم والاستيعاب ·

---

(١٤) ٣٨ سورة هود ·
(١٥) ٧٩ سورة التوبة ·

سخرية القرآن والعقيدة

حيث كانت العقيدة بكل أسسها وقواعدها هى جوهر الايمان ، وهى التى يدور حولها كل صراع الأنبياء مع أقوامهم فان أعداء الدين ركزوا فيها سخريتهم كما رأينا فيما سبق من سخريتهم بكل شىء فى الدين من الايمان بالله وبالبعث وبالرسل وبما جاء به الرسل ، كما سخروا من وحـدانية الله التى هى اللبنة الأولى فى الايمان ، كقولهم ساخرين من محمد صلى الله عليه وسلم كما ينقل القرآن عنهم :

[أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب] (١)

فهم يؤمنون بآلهة متعـــــددة ، ولكن الشىء الغريب الذى يتعجبون ويسخرون من ادعائه هو جمع الآلهة المتعددة لتصبح الها واحدا ، فهذا شىء يملأ نفوسهم بكل معانى التندر والتعجب ، بل كأنهم يقولون اننا نتعجب من أمور كثيرة ، ولكن عجبنا من هذا الأمر يختلف عن كل عجب ، ولذلك صاغوه فى لفظ (عجاب) فى قولهم (ان هذا لشىء عجاب) ولو أنهـــم قالوا مثلا نحن ننكر أن تكون الآلهة الها واحدا ، أو أنه مخطىء فى هــذا الادعاء ، أو أن ادعاء محمد أن الآلهة اله واحد أمر عجيب أو غريب أو نحو ذلك فان شيئا من هذا لن يكون سخرية ، وانما هو رفض وانكار ، أما السخرية فهى فىمضمون الاستفهام من تعبير **(أجعل الآلهة الها واحدا)آ**

(١) ٥ سورة ص ٠

بمعنى كيف يبلغ به السفه أو الجنون حتى يقول هذا ؟ ولذلك وصفوه فى هذا السياق نفسه بأنه ساحر وكذاب فى قوله تعالى عنهم :

[وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، اجعل الآلهة

الها واحدا ان هذا لشيء عجاب]

السخرية والعقول :

من تكرار القول أن سخرية القرآن لا تهدف الى التحقير والتهوين لذاته ، فكلام الله أجل وأحكم وأسمى هدفا ، وانما الهدف فى كل ما جاء فى القرآن يرتبط دائما بالدعوة الى الله ، سواء بأسلوب مباشر أو غير مباشر ، وحيث كان المحور هو الدعوة الى الله فان القرآن يوضح بل يكرر كثيرا التنبيه الى استخدام العقول ، لأن الاسلام مبنى على العقل ، وطريقه المباشر هو استخدام الفكر ولو فى أيسر صوره ، فان الايمان بالله لا يحتاج الى فلسفة أو عبقرية ، وانما يحتاج الى التجـــــرد من المؤثرات النفسية والاجتماعية ثم مجرد الاتجاه العقلى الى الله ، ومن آثار اعتماد الاسلام على العقل أن الله سبحانه لم يجعل لمحمد صلى الله عليه وسلم معجزات حسية كالأنبياء السابقين ، وانما كانت معجزته الوحيدة عقلية وهى القرآن، فكل من يستخدم عقله مجردا من المؤثرات لابد أن يهتدى الى الله ، ولهذا يركز القرآن اهتماما واضحا فى الدعوة الى استخدام العقول بأساليب عديدة كتعبير التدبر والتفكر والتعقل والتذكر وغير ذلك ٠

ومن أساليب الدعوة الى استخدام العقول النعى على الذين آتاهم الله عقــولا ولكنهم يلغونها ، ويتكرر هذا النعى فى القرآن كثيرا ، كقـــوله تعـــالى :

[بل اكثرهم لا يعقلون] (٢)

وقوله تعالى :

[ذلك بانهم قوم لا يعقلون] (٣)

ولكن القرآن لا يكتفى بالنعى على عدم استخدام العقول بأسلوب الانكار العادى ، وانما يستخدم اسلوب السخرية للفت الأنظار الى مـــدى غرابة وضعهم العقلى ، والغائهم نعمة أنعم الله عليهم بها وهى العقل، وهذه النعمة هى التى فضل الله بها الانسان على سائر الحيوان الأعجم ، فحين

---

(٢) ٦٣ سورة العنكبوت ٠

(٣) ٥٨ سورة المائدة ، ١٤ سورة الحشر ٠

لا يستخدمون عقولهم ينزلون بأنفسهم عن مرتبة الانسان التى رفعه الله اليها بالعقل ، الى منزلة الحيوان الذى لم يحظ بهذه النعمة ٠

وحين ينزلون عن مرتبة الآدمية الى محيط الحيوان يعقد القــرآن موازنة بينهم وبين الحيوان الأعجم فيتضح تفوق الحيوان الأعجم عليهم ، لأن كل أنواع الحيوان تؤدى ما خلقت من أجله أداء كاملا ما عدا الانسان، وهذا أمر واضح ، فان الحيوان الذى خلق للركوب يؤدى عمله فى طاعة وانقياد ، والذى خلق للخدمة كالحرث والسقى كذلك ، وهكذا كل مخلوقات الله تؤدى كلها ما خلقت من أجله الا الانسان ، فان أقلهم هم الذين يؤدون ما خلقوا من أجله أما أكثرهم فهم متمــردون على خلقتهم وبالتالى فانهم متمردون على خالقهم سبحانه ، وهذا المعنى يتكرر فى القرآن ، كقــوله تعــالى :

[ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجــوم والجبــــال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم ٠٠] (٤)

فكل المخلوقات فى الكون أحياؤها وجمادها وظاهرها وخفيها تؤدى ما خلقت من أجله ، وشعاره السجود لله بمعنى الطاعة والانقياد الكاملين فى كل ما خلقت له ما عدا بنى آدم ، فان بعضا منهم هم الذين يطيعون الله فيؤدون ما خلقوا له ، وهم كثــرة فى ذاتهم ، ولكنهم قلة بالقيـــاس الى المتمردين على الله ، كما توضح ذلك مواضع كثيرة فى القرآن كقــوله تعــالى :

[وقليل من عبادى الشكور] (٥)

ويحدد القرآن الهدف الذى خلق الجن والانس من أجله وهو ذات الهدف الذى خلقت كل المخلوقات من أجله فى قوله تعالى :

[وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون] (٦)

فان العبادة فى لغة العرب هى الطاعة ، وهو المراد فى الآية ، بمعنى أن الله خلقهم ليطيعوه فى كل ما خلقوا من أجله ، ولهذا كان كل ما أمر به

---

(٤) ١٨ سورة الحج ٠

(٥) ١٣ سورة سبأ ٠

(٦) ٥٦ سورة الذاريات ٠

الدين من العمل والسعى على الرزق والتناسل والتعارف والتعاون وغير ذلك عبادة لله بمعنى أنه طاعة لله فيما أراده وأمر به ٠

ومن هذا تتضح نتيجة الموازنة بين الانسان وسائر المخلوقات ، فان سائر المخلوقات تؤدى ما خلقت له ، أما الناس فقليل منهم العابدون ، وكثير منهم العاصون ، غير أن الطائعين من الناس أفضل من سائر المخلوقات المعروفة على الاطلاق بمن فى ذلك الملائكة ، لأن الطائعين من الناس يؤدون الطاعة لله عن اختيار منهم ومقدرة على العصيان ، أما الطائعون من المخلوقات الأخرى ومنهم الملائكة فانهم يؤدون الطاعة عن تسخير لا يتيح لهم الخروج عليه ، وليس فى طبيعتهم ما يدعوهم الى مخالفة هذا التسخير ، بخلاف الانسان الذى ركزت فى طبيعته غرائز وشهوات وطبائع تدعوه دائما الى مخالفة العبادة التى هى الطاعة بمعناها الواسع، وفى مقابل هذا فان المتمردين على طاعة الله يكونون بداهة أسوأ مخلوقات الله ، وهذان المتقابلان ، واضحان فى القرآن الكريم كقوله تعالى :

[لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين]

فأما فضل الطائعين العابدين من بنى آدم على سائر المخلوقات المعروفة فشعاره فى القرآن سجود الملائكة لآدم العابد لله ، وأما نزول المتمردين على الله من بنى آدم عن درجة سائر المخلوقات التى تدب على الأرض فواضح فى مثل قوله تعالى :

[ان شر الدواب عند الله الذين كفروا ٠٠] (٧)

فكما كان آدم بوصفه عابدا لله أفضل من سائر المخلوقات المعروفة فضلا كبيرا يستدعى سجود الملائكة له ولمزاياه ، فكذلك كان المتمردون على عبادة الله وطاعته من بنى آدم ، يبلغون من السوء أن يكونوا شرا من كل ما يدب على الأرض ، والسبب فى هذا أنهم لم يستخدموا عقولهم فى التفكير فى أمور بدهية لكل عقل متجرد من الهوى والمؤثرات ، فلم يفكروا فيمن خلقهم ، وفى طبيعة الصلة التى يجب أن تكون بينهم وبين خالقهم ، وهكذا ألغوا عقولهم فيما يتعلق بالأساس الذى وجدوا فى هذه الحياة من أجله كما وجدت كل المخلوقات وهى طاعة الله ، واستخدموها فيما عدا ذلك من أمور فرعية وقتية ليست فى حقيقتها ذات قيمة ، وهى أمور الحياة المعيشية فى الدنيا ٠

---

(٧) ٥٥ سورة الأنفال ٠

وقد انصبت سخرية القرآن على هذا الوضع غير المتلائم فى استخدام العقول ، من حيث انهم يلغونها فيما هو أساس واجب وهو الايمان بالله وطاعته ، ثم يستخدمونها استخداما لا قيمة له ، وهـــو ما يتعلق بأمور الحياة الدنيا ، فهى حينئذ كأنها معطلة ، وكأنهم حينذاك بغير عقــول ، لأن الدنيا كلها فى حقيقة أمرها كأنها وهم وسراب لا حقيقة له ، كما وصفها القرآن كثيرا بنحو ذلك ، كقوله تعالى عن كل أعمالهم فى الدنيا :

[والذين كفروا أعمـــالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ‥] (٨)

والوهم مرتكز فى انهم ينتظرون من وراء أعمـــــالهم ثمرة وفائدة فلا يجدون شيئا ، ومن أسس الدين أن كل عمل بدون الايمان مهما يكن فهو عند الله مرفوض ، اذ كيف يقبل الله من شخص شيئا وهذا الشــخص لا يعترف به ولا يؤمن له ·

واذن فحين لا يستخدمون عقولهم فى الايمان بالله يصبحون كأنهم بغير عقول مهما كانت سبل استخدامها فيما عدا الايمان ·

ومن صور سخرية القرآن من هذا الوضع فى عقول الكافرين والمشركين هذه الصورة التى تنبه الرسول صلى الله عليه وسلم وكل مخاطب الى عدم الاغترار بما يبدو من عقولهم وحواسهم مهما يكن شـــأنه ، فان حقيقة وضعهم العقلى والحسى أنهم كالماشية التى تستأنسونها وتعرفون وضعها العقلى كالابل والبقر والغنم ، بل هم أسوأ منها وضعا ، فان الابل والبقر والغنم تؤدى شأنها فى الحياة وما خلقت من أجله كاملا ، أما هم فقـــد ألغوا عقولهم فى أهم جانب ، وهو الغرض الذى خلقهم الله له ، حيث يقول الله تعالى :

[أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا] (٩)

ووجه السخرية فى الصورة أن المعنى فى الآية منصب على العقول والأسماع بمعنى الأفهام ، فالسمع هو المرحلة الأولى التى توصل الى العقل ما يبحثه ويفكر فيه ليحكم عليه ، فكان المتوقع أن يتجه الانكار والتسفيه الى العقول والأفهام نفسها ، ولو قيل كما ورد فى القرآن كثيرا من نحو أنهم لا يعقلون ولا يفكرون فلن يكون سخرية ، وانما السخرية أن يتحاشى التعبير

---

(٨) ٣٩ سورة النور ·

(٩) ٤٤ سورة الفرقان ·

التعقيب على عقولهم وأسماعهم صراحة ليرسم لهم هم صورة ساخرة ، هى صورتهم وهم فى أشكال الحيوانات العجماء ، ويزيدون على ذلك سوءا أن هذه الحيوانات تائهة أو ضالة حائرة ، أو فى أية حالة تشذ فيها عن حالة جنسها ، ولو أن رساما ماهرا أخذ هذه الصورة نفسها :

[ان هم الا كالأنعام بل هم أضل]

ونقلها الى رسم يدوى بأن يتمثل جماعة منهم بهذا الوضع فيرسم أجسامهم مثلا أجسام حيوانات كالبقر والثيران وتبقى رءوسهم كما هى رءوس آدميين ، للدلالة على أنهم آدميون شكلا ، ولكنهم حيوانات عجماء موضوعا ، ثم يجعل وضع هذه الحيوانات فى الصورة وضعا شاذا عن سائر مثيلاتها ، بأن تكون مثلا هائجة أو تائهة أو مشوهة ، فحين يذيل الصورة بهذا التعبير الكريم **(ان هم الا كالأنعام بل هم اضل سبيلا)** حينئذ سيكون مضمون التعبير ومضمون الصورة شيئا واحدا ٠

وليس هذا ابعادا فى توضيح أو تصوير معنى الآية ، بل هو حرفية مضمونها ، والعرب بذوقهم الأدبى واللغوى المعروف كانوا اقدر الناس على تذوق تعبير القرآن وتصويره ، ولذلك لم يكن غريبا أن يملأ أسلوب القرآن نفوسهم وأذواقهم ووجدانهم ، لا لأنهم آمنوا به ، فان المشركين انفسهم كانوا أول من تمتلىء نفوسهم انفعالا بالقرآن ، وانما لأن ذوقهم الأدبى واللغوى كان يبرز لهم روعة القرآن واعجازه ٠

على اننا ينبغى أن نلحظ أن هذه السخرية من القرآن بعقول أعدائه انما كانت ردا على سخريتهم ، فان سياق الآية يؤكد هذا ، حيث ان السياق يعرض صورة من سخرية المشركين بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقسى صور السخرية وأشدها ايلاما ، وكان مصدر سخريتهم حرصهم على عقيدة الشرك ، وخوفهم أن يزحزح الرسول الناس عنها ، معترفين بأن دعوة الرسول وحجته أقنعتهم حتى كادوا يعترفون بالايمان ، ويعقب القرآن على ذلك ضمنا بأن نكوصهم عن الايمان بعد وضوح الحق فى نفوسهم لم يكن لشبهة عقلية ، وانما لهوى فى نفوسهم من المصالح الشخصية ، والتراث الاجتماعى ، والسياق فى قوله تعالى :

[واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث

الله رسولا ، ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان

صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب

من أضل سبيلا ، أرأيت من اتخذ الهه هواه افأنت

تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم اضل سبيلا] (١٠)

ومن تمام السخرية بهم أن النفى ليس متجها الى عقولهم فحسب ، بل الى أسماعهم قبل عقولهم ، وهذا مما ينقصون به عن الأنعام ، فان الأنعام تسمع ، ولكنهم هم كأنهم لا يسمعون ، لأن سماعهم لا يؤدى الى فائدة ·

وفى صورة أخرى نجد سخرية القرآن تضيف عنصرا آخر مما يفقده الكافرون من معالم الآدمية ، بل الحيوانية المألوفة ، وهو عنصر البصر ، فهم فى هذه الصورة التالية بدون عقول ، وبدون بصر ، وبدون سمع ، والانسان يكون عادة ذا عقل مدرك ، وذا عينين مبصرتين ، وذا أذنين سامعتين ، وبعض الناس من غير الأسوياء يكون بدون عقل فلا يكون هذا غريبا ، فلا غرابة فى أن نرى مجنونا أو معتوها ، وبعضهم قد يكون أعمى فلا يكون غريبا ، ولا غرابة فى أن نرى شخصا أعمى أو أكمه (١١) ، وقد يكون بعضهم أصم فلا غرابة أيضا فى أن نجد شخصا أصم فاقد السمع ، لأن هؤلاء جميعا يفقدون أدوات الحس وأعضاءه ، فالأعمى مثلا يعد بدون عينين ، لأن العين لا تسمى عينا الا اذا كانت مبصرة ، وكذلك الأذن ، ففقدان الحواس ليس غريبا ·

أما الغريب المثير للسخرية فهو أن تكون الحاسة موجودة ولكنها لا تؤدى وظيفتها ، والأغرب أن يكون هذا ليس فى حاسة واحدة ، وانما فى عدة حواس فى وقت واحد ، والأبلغ فى الغرابة أن يكون فقدان هذا العدد من الحواس ليس فى شخص واحد ، وانما فى جمع أو طائفة من الناس فى مكان وزمان واحد ، كقوله تعالى :

[··· لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ···] (١٢)

فكلهم ينطبق عليهم الوصف فى فقدان العقول والأبصار والأسماع ، والشذوذ يكون عادة فى الأفراد ، أما فى الجماعات فغير متصور ، ومن هنا تكون السخرية أن نرى طائفة أو جمعا من الناس كله بهذا المنظر

---

(١٠) ٤١ ـ ٤٤ سورة الفرقان ·
(١١) الأكمة الذى يولد أعمى ·
(١٢) ١٧٩ سورة الأعراف ·

العجيب الغريب ، لهم عقول ولكنها لا تفهم ولا تفقه ، ولهم أعين ولكنها لا تبصر ، ولهم آذان ولكنها لا تسمع ٠

ومن دقة تعبير القرآن أن الصياغة بهذا الأسلوب تبرز مسئوليتهم وجريمتهم فى حق أنفسهم ، فان التعبير يوضح أن لهم عقولا اعطاهم الله اياها ، ولكنهم عطلوها فلم يفكروا بها فى الدين الحق ، واعطاهم أبصارا وبصائر تدرك مشـــاهد الكون وآيات الله فيه ولكنهم لم يســـتخدموها ، وأعطـــاهم آذانا تنصت وتتأمل وتتيح للعقل أن يفكر ويقـــدر ، ولكنهم أصموها ٠

وقد وعد الله سبحانه بأن من يعمى بصيرته فى الدنيا يحشره الله يوم القيامة أعمى كما أراد هو لنفسه فى الدنيا كما يقول تعالى :

[ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضـــنكا
ونحشره يوم القيامة اعمى ، قال رب لم حشرتنى
أعمى وقد كنت بصـــيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا
فنسيتها وكذلك اليوم تنسى] (١٣)

فهم يظنون أنفسهم فى الدنيا مبصرين لأنهم يتمتعون بالبصر الحسى فيرد الله سبحانه عليهم بأن البصر الحقيقى هو البصر المعنوى ، وهـــو استخدام العقل استخداما قويما مجردا من الهوى والمؤثرات ، وهم قـد ألغوا فى هذا الجانب عقولهم الغاء فعميت بصائرهم ، فيحشرون فى الآخرة كما أعموا أنفسهم فى الدنيا ، وكذلك حيث أغلقوا عقولهم وأبصـــارهم وآذانهم عن الله فان الله يحشرهم على هذ الصورة يوم القيامة ، كقـوله تعـــالى :

[ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما
وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ،
ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ٠٠] (١٤)

فحشرهم على هذه الصورة جزاء لكفرهم الذى جعلهم يلغون عقولهم وبصائرهم وانصاتهم للحق ، فيجاء بهم يوم القيامة على الصورة التى أرادوها لأنفسهم فى الدنيا ، وهى صورة واضحة السخرية ، حيث أنها تشويه كامل لهم ، يجعلهم فى غاية الشـــذوذ والغرابة والهـــوان شكلا

---

(١٣) ١٢٤ ـ ١٢٦ سورة طه ٠
(١٤) ٩٨ سورة الاسراء ٠

ومضمونا ، فأما الشكل فحشرهم على وجوههم ، سواء أكان اكبابا اياهم عليه ، أم كان مشيا عليه ، أم كان غير ذلك ، فان الهدف الأهم ليس التفصيل، وانما تصويرهم فى أسوأ صورة من حيث المظهر ، وهو مظهر أناس يقادون جميعا على وجوههم ، وكذلك من حيث المضمون مع المظهر ، حيث يكونون فى هذه الصورة من اجتماع العمى والبكم والصم ، وليس بعد هاتين الصورتين ـ المجتمعتين شكلا ومضمونا ـ قبح وهوان ٠

وأيضا نلحظ أن السخرية فى هذه الصورة انما هى رد ضمنى على موقف عداء شديد للاسلام ، ففى سياق هذا التصوير نجد فيما سبقه حديثا يشير الى الذين أتاهم الله علما وهديا كان يمكن أن ينتفعوا به ، وحينئذ يسمون بعقولهم وأنفسهم الى الله من خلال الايمان ، وقد وصل اليهم العلم فعلا ٠ فاستوعبته عقولهم وفهموه ، وحملوه فى صدورهم فلم ينسوه ، ولكن ذلك كله لم يغير من حالهم شيئا ، بل ازدادوا بهذا الخير ســــوءا ، لأنهم رفضوا الانتفاع به ، كانوا جهلة ضالين قبل العلم ، فلم يزدادوا بالعلم عقلا أو هداية ، بل نبذوا هذا العلم فازدادوا حيرة عقلية وضلالا دينيا ، فلم يتغير حالهم بعد أن حملوا العلم عما كانوا عليه قبل حمله ، فأصبح مثلهم كمثل الكلب الذى يلهث باخراج لسانه فى صورته المعروفة ، سواء أكان هناك ما يدعوه الى ذلك أم لم يكن ، فالمفروض فى الحيوان عامة الا يلهث الا مع جهد شاق يبذله ، ولكن الكلب يلهث مع هذا الجهد ، ويلهث أيضا بدون أى جهد ، وهم كذلك يستوى حالهم قبل حمل العلم وبعده ، كقوله تعـالى :

واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغـــاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الأرض واتبع هــواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلا القـــوم الذين كذبوا بآياتنا وانفسهم كانوا يظلمون ، من يهـد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ، ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهـــم آذان لا يسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون] (١٥)

---

(١٥) ١٧٥ ـ ١٧٩ سورة الأعراف ٠

والمسلمون كانوا حين نزلت هذه الآيات يعرفون أن مثل الكلب الذى ضربه القرآن اشارة الى علماء اليهود ، وانما ضرب المثل لشخص واحد ولم يكن التعبير للجماعة نحو آتيناهم آياتنا أو مثلهم كمثل الكلاب ، لأن العلم دائما فردى ، فيقال فلان عالم ، أو فلان وفلان وفلان علماء ، بمعنى أن كلا منهم عالم وله علمه الخاص فى حجمه أو نوعه ، ولا يقال ان أهل هذه الأسرة أو البلدة أو الطائفة علماء الا تجوزا ، ويتضح هذا فى تعبير (**آتيناه آياتنا**) فى الآية السابقة ، فان الله عادة لا يمنح أى علم لأى جماعة مجتمعين ، وحتى اذا كان هناك جماعة يطلبون علما واحدا معينا ، فانهم لا يحصلونه جميعا بصورة واحدة فى نفوسهم ، وانما يكون لكل منهم فهمه وتحصيله الخاص من هذا العلم ، ولم يكن هذا حال عالم واحد من علماء اليهود ، وانما هو حال احبارهم جميعا تقريبا فى موقفهم من الاسلام ومن شخص الرسول صلى الله عليه وسلم فى التكذيب والسخرية مما لا يحتاج الى توضيح ، ولذلك كان التعبير بالجمع فى عجز الآية اشارة الى نحو هذا فى قوله تعالى :

[**ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا**]

فالشخص الذى ضرب به مثل الكلب ينطبق مثله على الآخرين ٠

ومسئولية هذا العالم الذى ضرب مثالا لغيره تتركز فى الانسلاخ من نعمة أسديت اليه كان المتوقع أن يستفيد بها فيهتدى ويعلو قدره عند الله

[**آتيناه آياتنا فانسلخ منها**]

وبدلا أن يسمو مرتفعا بقدره الى أعلى اذا هو يهبط بمنزلته الدينية الى أسفل :

[**ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الأرض**]

ولم يكن رفضه لآيات الله وهديه لشبهة أو غموض ، وانما لهوى فى نفسه وحرص على منافعها الدنيوية (**واتبع هواه**) فكانت نتيجته ونتيجة أمثاله انهم حولوا الهدى فى نفوسهم الى ضلال ، وبدلوا اسلام نفوسهم لله ولدينه الى تكذيب وسخرية من الله ورسوله ودينه واتباعه مما تفيض به الروايات ، ومما سجل كثيرا منه القرآن نفسه كما رأينا فيما سبق ٠

فالصورة الساخرة التى نحن معها وهى :

[**ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما**]

تتضمن فيما تتضمن ردا على موقف هؤلاء من كل وجوهه ، حيث أنه تصوير ضمنى لموقفهم فى الدنيا ، حيث أعطاهم الله عقولا وبصـــائر وأسماعا فألغوها وأصروا على رفض كل شىء من الله والسخرية منه ، فيؤتى بهم فى الآخرة فاقدين كل هذا ، ويكون جزاء نزولهم عما رفعهم به الله من نعم العقول والمدارك أن ينزل بهم فى الآخرة الى أسوأ صورة للنزول وهى أن يحشروا على وجوههم ·

ومما تنبغى الاشارة اليه أن التشبيه بالكلب لا يبدو منه أى تحقير للكلب ، فليس فى الحيوانات شىء أو نوع حقير ، بل كل منها يؤدى الغرض الذى خلق من أجله أداء كاملا ، فلا شىء فى الحيوانات معيب ، أما المعيب حقا فهو الذى يتخلى من بنى آدم عما خلق من أجله ، ولذلك لو ألقينا نظرة متأملة فى الآية الكريمة للموازنة بين الآدمى الذى ضرب له المثل والكلب الذى ضرب به المثل ، لوجدنا الكلب خيرا منه ، لأنه (انسلخ) مما آتاه الله وهيأه له ، أما الكلب فلم ينسلخ ولم يرفض ما هيأه الله له ، والتشبيه فى المثال لا يعدو ابراز حال من أحوال الكلب دون التعرض لخلق الكلب اطلاقا، لأن اللهث مظهر جسدى عضوى ، ومن المعروف أن العيوب الحقيقية هى العيوب فيما يتعلق بالأخلاق ، وليس فى الجسد ، وقد سبق القول أن وجه الشبه منصب على أن حال هذا العالم سواء قبل حمله العلم وبعده فى الضلال والكفر ، كما أن حال الكلب سواء قبل أن يتعرض لجهد ومشـــقة وبعـــده ·

سخرية القرآن وموقف الكافرين :

وحيث ألغى الكافرون عقولهم وعطلوا وظيفتها فيما يتعلق بالدين فقد اتخذوا بناء على ذلك موقفا من الدين بكل جوانبه ، وقبل أن نتحدث عن هذه الجوانب فى موقفهم من الدين بالتفصيل نشير الى موقفهم الدينى بصـــفة عـــامة ·

والقرآن حافل بالحديث عن موقفهم من الدين ، وهو يعرض هـــذا بأساليب مختلفة ، ولكن الذى يعنينا من هـــــذه الأساليب هو أسلوب السخرية الذى صور به القرآن هذا الموقف منهم ، وفى القرآن كثير من الصور الساخرة من موقفهم الدينى ·

فمن هذه الصور ما نستشفه من قوله تعالى :

[وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون] (١٦)

---

(١٦) ٨٢ سورة الواقعة ·

فى سياق تكذيبهم أن القرآن من عند الله ، فأصل المعنى أنتم تكذبون أن هذا القرآن من عند الله ، وليس هناك معنى مقصود زيادة على ذلك ، ولو قيل هذا المعنى بنحو هذا الأسلوب ما كانت فيه سخرية ، ولكن السخرية واضحة فى الصياغة التى صيغ بها المعنى وهى [**وتجعلون رزقكم انكم تكذبون**] فالرزق هو النصيب الذى يناله المرزوق ، وهو دائما يطلق على على جانب الخير ، فرزق المرء من الله ، أو من غنيمة ، أو من شىء عام ، أو غير ذلك انما يوصف عادة بأنه رزق اذا كان خيرا ومنفعة ، فتعبير الآية فى صياغتها كأنه يرسم صورة مؤداها فى تصور السامع حينما يسمعها لأول وهلة أن هناك أنصبة وأرزاقا وزعت ، فبعض الناس كان رزقهم مثلا ذهبا أو فضة ، وبعضهم كان رزقه ابلا أو غنما ، وبعضهم كان رزقه منفعة أخرى من أى لون ، ولكن هؤلاء المشركين كان رزقهم دون غيرهم هو أنهم يكذبون بآيات الله ، وتتركز السخرية بصورة أوضح فى لفظ (وتجعلون) بمعنى أن هذا كان اختيارهم بأنفسهم ، ولم يفرض عليهم ، وكأن الأرزاق كانت معروضة من كل نوع من أنواع الرزق العديدة، وكل طائفة من الناس اختارت رزقها من الأموال والمنافع والمصالح بصفة عامة ، أما هم فقد أصروا على أن يكتفوا بهذا النصيب الذى اختاروه وهو التكذيب ، وهذا المعنى هو المطابق للواقع الدينى ، فان المؤمنين يختارون رزقهم مما ينفعهم فى الآخرة ، أما الكافرون فيختارون ما يظنون أنه ينفعهم فى الدنيا فحسب ، وقد ظنوا أن حرصهم على الأوضاع التى ورثوها عن آبائهم وعلى مصالحهم الدنيوية يقتضى أن يرفضوا دعوة النبى حتى لا تتعرض مصالحهم للضياع ، وينبغى أن نلحظ فى الآية التعبير بالمضارع فى لفظ (تكذبون) فان المضارع يختلف فى دلالته عما لو كان التعبير بالماضى نحو وجعلتم رزقكم انكم كذبتم ، فان مثل هذا التعبير يقتضى أن التكذيب صدر منهم فى موقف واحد ، أو فى زمن مضى ، وهذا يوحى بالأمل القريب فى تغيير موقفهم ، وبصفة أخص لا يوحى باصرارهم على موقفهم ، أما المضارع بما يفيده من معنى التجدد والاستمرار فانه يعنى أن تكذيبهم مستمر ومتجدد ، وهذا يقتضى اصرارهم عليه ٠

ومن مجموع الايحاءات التى توحيها جوانب الدقة فى صياغة الآية تكتمل الصورة الساخرة من موقف المشركين ، والتى لابد أن ترتسم بوضوح فى خيال كل سامع عربى سليم الذوق من أول وهلة ، وفى نفس كل متأمل

للتعبير • وملابسات الصورة تزيد من وقع هذه السخرية فى النفوس ، وهذه الملابسات فى قوله تعالى :

[فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لا يمسه الا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ، افبهذا الحديث أنتم مدهنون ، وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون] (١٧)

فالله سبحانه يقسم بقسم عظيم هو مواقع النجوم ، أن القرآن كلامه ، ولكن المشركين لا يقدرون الله سبحانه ، ولا يقدرون أنه يحلف لهم مع أن هذا كان يقتضى أن يملأ نفوسهم خجلا واستصغارا لشأنهم بالقياس الى الله ، ولكنهم بدل من ذلك لجأوا الى موقفهم المثير للسخرية ، والذى يتضمن كأنهم يقولون : حسبنا من الرزق التكذيب •

وفى صورة أخرى يعبر القرآن عن موقف الكافرين من الله فى لون من ألوان مواقفهم فيقول تعالى :

[أو لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين] (١٨)

فخلق الانسان من نطفة حقيقية بوصف النطفة مرحلة من مراحل تكوينه ، ولكن خصومته مع الله فى صورتها الظاهرة فيها تجوز ، لأن الخصمين طرفان فى خصومة ، وهذا الوضع ليس متصورا على حقيقته بين الله وأحد أو شىء من مخلوقاته ، وانما الوضع الحقيقى أن بعض الناس كذبوا بالله ، أو بما جاء به الرسل من الله ، فأصبحوا كأنهم خصوم لله ورسله ، حيث وضعوا أنفسهم موضع الخصم ، وقد يفعل بعضهم ازاء الله ورسله ما يفعله الخصم ضد خصمه ، وقد يتصور بعضهم نفسه خصما

---

(١٧) ٧٥ ــ ٨٢ سورة الواقعة •

(١٨) ٧٧ سورة يس •

حقا لله ورسوله ، ولكن شيئا من ذلك لا يعد خصومة بالصورة المألوفة فى خصومة الناس بعضهم بعضا ، لأنها فى أقرب الفروض خصومة من طرف واحد هو الانسان ، وقد يكون الرسل وأتباعهم طرفا فى هذه الخصومة ، من لا تستطيع العقول فضلا عن الألسنة أن تتصور مدى قوته وهو الله سبحانه موقفه فى القرآن من أعدائه فى صورة الخصم ، فان هذا التمثيل لبس الا تصويرا يقرب الى الأذهان مدى وضوح الحق ، وهو كيف يتصور الانسان أن يكون خصما عنيدا لله كما يتصور المشركون ، مع أنه مخلوق لله، وهو ليس مخلوقا من شيء قوى أو شيء عزيز ، وانما هو مخلوق من أضعف الأشياء وأهونها .

وليس هذا موضع السخرية ، وانما تتركز السخرية فى لفظ (فاذا) وفى موضعه من التعبير ، فان لفظ (فاذا) يفيد المفاجأة ، وموضعه يأتى فى الانتقال فجأة بين شيئين شديدى التباعد فى العقول فضلا عن استحالة هذا الانتقال فى واقع الحياة ، وهذان الشيئان هما النطفة من جهة ، والخصومة القوية من جهة أخرى ، فوجه السخرية كما توحيه الصياغة بوضوح أن الانسان حينما يكون فى أولى مراحل خلقه وهى مرحلة النطفة فجأة يصبح خصما عنيدا لربه ، ولا ينتظر ليمر ببقية مراحل خلقه حتى يصبح آدميا مكتمل الخلق ، مع مراعاة شيئين ، أحدهما أن الخصومة حينئذ ليست خصومة يسيرة أو عادية ، وانما هى خصومة قوية ظاهرة (**خصيم مبين**) والآخر أن الخصومة ليست مع طرف عادى ، أو شخص مألوف مهما تكن قوته ، وانما هى مع الله سبحانه على قدرته وجلاله ، فاذا أعدنا تأمل صياغة الآية الكريمة :

[أو لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين]

نتبين من عناصر السخرية فيها ما يلى :

١ ـ **أولا :** عنصر النطفة ، وهى المرحلة الأولى التى يبدأ فيها تحول الانسان من الطين الى اكتمال النمو مارا بمراحل عديدة ، يصفها القرآن الكريم فى مثل :

[ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة

علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين] (١٩)

فالنطفة هى الطور الأول للانسان قبل أن يتحول الى علقة ثم مضغة ثم عظام ثم بشر سوى ·

٢ ـ **ثانيا** : المفاجأة البالغة الغرابة أن يحدث التحول والتطور عقب النطفة مباشرة ، فلا يتحول الانسان فى مراحل خلقه المعتادة من نطفة الى علقة ، وانما يتحول من نطفة الى خصم ، ولا يمر بمراحل خلقه العادية ، وهنا الطرافة والغرابة التى تملأ المشاعر والأذواق احساسا بالتعجب والتندر ، أن نتخيل فى نفوسنا نطفة تصبح فجأة خصما يعرف كيف يخاصم وكيف يعادى ، أو أن نتخيل النطفة نفسها حينما تكتمل ، وقبل أن تتحول الى طور آخر من أطوار الخلق تصبح فجاة خصما يخاصم ويعادى ، ولفظ (الفاء) فى تعبير (**فاذا هو خصيم**) يعد ركيزة أصلية فى معنى المفاجأة والتحول ، ولو كان التعبير مثلا خلق الانسان من نطفة ثم اذا هو خصيم لما أفاد التعبير هذا المعنى الرائع للسخرية ، لأن (ثم) كما هو معروف تفيد الترتيب والتراخى ، فيكون المعنى حقيقة وليس مجازا ، بمعنى أن الله خلق الانسان من نطفة ، ثم تدرج الانسان فى مراحل الخلق حتى اكتملت قوته فوضع نفسه حينئذ موضع الخصم لله ، وهذا حقيقة ، أما لفظ الفاء فكما هو معروف أيضا يفيد الفورية فى الترتيب ، أو حسب تعبير اللغويين تفيد الترتيب والتعقيب ، بمعنى أن يأتى ما بعدها عقب ما قبلها مباشرة دون فاصل زمنى ، ومؤداه الحرفى فى الآية ، أن الله خلق الانسان من نطفة فاذا هو عقب ذلك مباشرة ودون أى فاصل من الزمن أو الأطوار أصبح خصما لله ، وهذا ليس على الحقيقة ، وانما هو أسلوب مجاز يهدف فيما يهدف اليه الى اثارة العقول للتفكير فى موقف خصوم الله ·

٣ ـ **ثالثا** : التحول المفاجىء والفورى للانسان من النطفة الى الخصومة لم يكن ليخاصم بشرا مثله ، بل ولا ليخاصم أية قوة على الأرض، وانما ليخاصم الله ذاته سبحانه ، ونلحظ من هذا المجال فى صياغة الآية أمرين بالغى الدقة ، أولهما عدم ذكر المتعلق فى لفظ الخصومة مع وضوحه فلم يقل خصيم لله ، مع أن السياق يوضح أن خصومة الانسان موجهة الى الله ، ولكن عدم ذكر لفظ الله سبحانه يوحى كأن هذا الوضع وهو الخصومة بين الله واحد غيره لا تتصور ، ولا تقبل العقول السليمة تخيلها

---

(١٩) ١٢ ـ ١٤ سورة المؤمنون ·

فلا ينبغى أن تذكر الا من زاوية تصور أعداء الله ، حيث تصوروا أنهم يستطيعون أن يخاصموا الله بما يفعلونه فى مجال الدين ، والأمر الثـانى ما يوحيه لفظ الخلق فى تعبير (**خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم**) فان التعبير بلفظ الخلق يوحى فيما يوحى بمعنيين وليس بمعنى واحد ، أحدهما تفوق مقدرة الخالق بداهة عن مقدرة المخلوق ، فمن الغرابة الا يدرك من يريد مخاصمة الله الفارق بين مقدرته وهو المخلوق ومقدرة الخالق الذى يريد هو أن يخاصمه ، والمعنى الثانى خلقى ، فان من أيسر حقوق الخالق على مخلوقه الوفاء وعرفان الجميل ، والناس يجدون غاية العجب من نكران الجميل فى مثل قول الشـاعر :

أعلمـه الرماية كل يـوم ... فلما اشتد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافى ... فلما قـال قافية هجـانى

فيتعجبون من نكران المتعلم جميل معلمه ومخاصمته بهذه الصورة ، فكيف بنكران الجميل ومخاصمة الذى كان خالقا وليس معلما فحسب ، فتجتمع فيمن يخاصم خالقه خستان وليست واحدة ، احداهما السفه فى تصور المقدرة على الخصومة ، والأخرى نكران جميل الذى تابع خلقـه منذ كان نطفة ، وهو الذى منحه هذه القوة التى يخاصم بها ، وليس بعد هذا خسـة ٠

٤ ـ رابعـا :

لفظ (مبين) فى تعبير **(فاذا هو خصيم مبين)** يوضح أن هذه الخصومة الموجهة الى الله لم تكن يسيرة ولا خفية ، وانما هى خصومة محتـدمة عنيدة ظاهرة ، وكأن هـؤلاء الكافرين أو المشركين لا يكتفـون بمحض الخصومة العادية فى خصومتهم مع الله ، وانما يجعلونها خصومة قـوية يحشدون فيها كل امكاناتهم وقوتهم حتى يوصف الواحد منهم بأنه (خصيم) وليس خصما فحسب (٢٠)، ثم ليس خصيما فحسب ، وانما هو خصـيم (مبين) فى الخصومة بمعنى أنه قوى عنيد فيها ، وهمـا مدلول قوله تعـالى :

[**خصيم مبين**]

---

(٢٠) لفظ خصيم صيغة مبالغة على وزن فعيل والمبالغة تقتضى القوة والزيادة فى الوصف بالفعل بخلاف خصم ٠

وفى تصوير حشد الانسان طاقاته بهذه الصورة فى خصومته مع الله نوع من السخرية به ، لأن خصومته فى حقيقة أمرها لا وزن لها ولا قيمة اطلاقا عند الله ، وهنا تختلف نظرة المؤمن ونظرة الكافر ، ومن هذا القبيل ما يروى من أن القرشيين حينما أسلموا كانوا يقولون للمسلمين قبلهم : كنا نرى أهون ما يهجونا به شعراؤكم رمينا بالكفر والشرك ، فلما أسلمنا عرفنا أن ذلك أشد هجاء لنا ، فالكافر قد يرى خصومته مع الله ورسوله والمؤمنين ذات نفع وفوز له ، ولكن المؤمن يراه على وجه اليقين سفها فى واقعها ، وخسرانا فى نتيجتها حتى وان انتصر الكافرون ماديا أو دنيويا ، لأن الغاية الحقيقية عند المؤمن هى الآخرة وليست الدنيا ٠

٥ ــ خامسا :

تعبير **(أو لم ير الانسان ٠٠٠٠٠)** يوحى بالقاء نظرة كلية على الصورة لتوضيحها مكتملة ، فالهمزة للاستفهام ، والواو للعطف على محذوف يفهم من السياق ، بمعنى أغفل الانسان أو جهل أو عمى عليه ولم ير هذه الحقيقة الواضحة ؟ وهى أنه يخاصم الله ودينه مع أن الله هو الذى خلقه ، ومهما تخيل الانسان فى نفسه من قوة فيجب ألا ينسى أنه مخلوق من أضعف الأشياء وأهونها وهى النطفة ، وأنه مهما يبلغ من القوة فهو بالقياس الى الله كأنه ما زال نطفة ، فكيف تستطيع النطفة أن تخاصم من لا تستطيع العقول فضلا عن الألسنة أن تتصور مدى قوته وهو الله سبحانه ، فتعبير (أو لم ير) يحفز العقول الى التفكر فى هذه الصورة مجتمعة فى تناقضها وغرابتها على أن لفظ يرى فى (أو لم ير) يوحى بدقة معينة ، وهى أن هذه الحقيقة التى تتضمنها الآية واضحة مرئية حتى للابصار فضلا عن العقول ، فهى فى وضوحها وغرابتها لا تحتاج الى عميق فكر أو تدبر ، وانما الى مجرد نظرة ، وهذا بخلاف ما لو كان التعبير أو لم يفكر الانسان أو نحو ذلك ٠

سخرية القرآن والنفاق

الحديث عن النفاق والمنافقين واسع مستفيض ، وخطورة المنافقين ، ومواقفهم التى ظهرت ضد الاسلام لا تكاد تحصى ، وما لم يظهر منها كان أدهى وأخطـــر ٠

وقد كان المنافقون أخطر عدو للدين بما يتاح لهم من مزاولة حـــرب الاسلام فى خفية ، ومن أشد أسلحتهم السخرية التى يتفننون فى صوغها وتوجيهها نحو كل شىء فى الاسلام ، ولكن القرآن يرد عليهم فى صور كثيرة منها أنهم يجعلون موقفهم من الدين ومن المؤمنين به مثيرا للسخرية ، حيث قسموا الزمن فى موقفهم من الاسلام قسمين ، قسما يلبسون فيه ثوب النفاق وهو النهـــار ، وقسما يخلعون فيه هذا الثوب وهو الليل حينما يجنهم الظلام ويطمئنون الى أنهم أصبحوا فى خفية عن أعين المؤمنين ، فى مثـــل قوله تعـــالى :

[وقالت طائفة من اهل الكتاب آمنوا بالذى انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعـــون] (١)

فالايمان وجه النهار والكفر آخره يعنى كأن النفاق عمل ومهنة لهم ، وكأن ثوب النفاق ثوب العمل الذى يلبسه العامل وقت العمل وهو النهار ، ثم يخلعه حينما يأوى الى بيته ، فالمنافقون يلبسون ثوب النفاق فى النهار ليستروا به حقيقتهم ، ثم يخلعونه آخر النهار عندما يتركون عملهم اليومى

(١) ٧٢ سورة آل عمران ٠

وهو النفاق ، وتعبير (لعلهم يرجعون) الضمير فيه يعود على المؤمنين ، فالمنافقون يجعلون الهدف من هذ الصورة فى نفاقهم ارجاع المؤمنين عن ايمانهم ، وذلك لأن خداعهم المؤمنين بادعائهم الايمان مثلهم يجعل المؤمنين يثقون فيهم على أساس أنهم مؤمنون مثلهم ، ومن خلال هذه الثقة يتقبلون ولو شيئا مما يدسه المنافقون من الشك فى الدين والسخرية به ، أو على الأقل يتشككون ولو بعض الشك فى دينهم ، وكل هذا نجاح للمنافقين فى محاولة ارجاع المؤمنين عن الاسلام (لعلهم يرجعون) لأن تسرب أى شـك الى الايمان هو نوع من الخلل فى العقيدة ، وهنا تكمن خطورة المنافقين ٠ والقرآن هو الذى كشف للمسلمين المنافقين وأساليب نفاقهم ، وبين لهـم العـلامات والأعـراض التى اذا وجـدوها فى شـخص فلابد أن يكون منافقا (٢) حتى قال المسلمون حين نزلت آيات النفاق فى القرآن لم يخف علينا منافق بعدها ٠ ولكن القرآن فضلا عن ذلك يتولى الرد على موقف المنافقين وسخريتهم فى صور عديدة متنوعة :

فمن هذه الصور تصوير أسلوب من أساليب التخفى التى يلجأ اليها المنافقون دائما لمحاولة خداع المؤمنين حتى لا يكشفوا حقيقتهم ، وهـو أسلوب الحلف ، فهم دائما يعتمدون على الحلف بكل الايمان التى يصدقها المؤمنون ، كشأن كل كاذب يشك فى تصديق محدثه اياه ، فيحاول نفى هذا الشك بكل أساليب التأكيد وأبرزها الحلف ، والمنافقون انما ينافقون اذا خافوا من قوة من ينافقهم وهم المؤمنون ، فيحاولون سـتر نفاقهم واخفائه بالايمان التى يحلفونها ، ولكن القرآن يصوغ هذا المعنى فى صورة مجسدة ساخرة ، بأن يصور كأن المنافقين جعلوا من الحلف درعا يلبسونها حول أجسادهم فى قوله تعـالى :

[اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهـم
ساء ما كانوا يعملون] (٣)

فالجنة ــ بضم الجيم وفتح النون المشددة ــ فى لغة العرب ، وهى لغة القرآن ، الدرع التى يلبسها المقاتل كالقميص حول جسمه لتحميه من طعنات العدو ، وهى تصنع من الحديد ، فهذه الصورة تعنى أن المنافق جعل من الايمان الكاذبة التى يحلفها درعا حوله ليستتر بها جسمه فلا ينكشف لطعنات العدو ، وحين نتخيل فى أذهاننا مقاتلا كل ما يحميه من خصمه هو درع يلبسها ، ولكنها ليست من حديد ، بل ولا من أى شىء مادى يقى

(٢) انظر كتاب أسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

(٣) ٢ سورة المنافقون ٠

من أى طعن ، وانما هى من الايمان التى يحلفها هذا المقاتل ، وليت هـذه الأيمان كانت صادقة ، اذن يمكن أن يتوهم أنه يستتر بشىء واقعى له وجود ولو معنوى ، وانما هى أيمان كاذبة زائفة ، فلن تكون هذه الصورة المتخيلة الا مثارا للتفكه والتندر والسخرية ٠

ولكن دقة تعبير الآية يستوجب أن نقف قليلا عند الألفاظ الآتية :

١ ـ لفظ (اتخذوا)

فان لفظ اتخذوا من جملة (**اتخذوا أيمانهم جنة**) يفيد أن هذه الجنة لم تفرض عليهم ، أو لم تقدم اليهم من أحد ، وانمـــا هم الذين صنعوها بأنفسهم ، كقوله تعالى :

[كمثل العنكبوت اتخذت بيتا] (٤)

بمعنى صنعت بيتا بنسجها اياه ، كذلك المنافقون هم الذين صنعوا الدرع الغريبة العجيبة المثيرة للضحك والسخرية منهم ، حيث نسجوها من ايمان كاذبة يحلفونها ٠

٢ ـ لفظ (جنـــة)

من المعروف أن الجنة لا تلبس الا فى القتال ، وفى القتال المخيف بالذات ، بمعنى أن المقاتل لا يلبس الدرع الا اذا خاف من طعنات خصمه ، والمنافقون ليسوا فى قتال مخيف أو غير مخيف ، بل انهم انما لجأوا الى النفاق ليتحاشوا القتال ، فلماذا يستخدم القرآن لفظ الجنة الذى لا يستخدم الا فى الحرب ، مع أن المنافقين ليسوا فى حرب ، ولا يريدون أن يدخلوا حربا ؟ ومن تتمة التساؤل أنه قد يقال : ان ظاهر الموقف أنه لو قيـل ان المنافقين اتخذوا أيمانهم اخفاء لحقيقتهم ، أو تضليلا للمسلمين وخداعا لكان أنسب وأقرب الى التطابق بين الموقف والتعبير ، فاتخاذ الأيمان للتضليل أوضح من اتخاذها للحرب وأنسب ٠

والجواب عن السؤال أن استخدام القرآن لفظ الجنة انما هو من باب التغلغل فى أعماق المنافقين ومشاعرهم ، فغير صحيح أنهم ليسوا فى حرب، بل هم فى حرب خطيرة ضد المؤمنين ، غاية الأمر أنها حرب من طرف واحد، هو المنافقون فى حال عدم اكتشاف نفاقهم ، فانهم لا شك يعدون أنفسهم فى حـــرب مع المؤمنين ، رغم أن المؤمنين لا يبادلونهم هـــذا الشعور لأنهم لا يعرفون حينئذ أن هؤلاء منافقون ، ومن المعروف أن الحرب نوعان ،

---

(٤) ٤١ سورة العنكبوت ٠

حرب عسكرية ، وحرب نفسية أو خفية ، وحرب المنافقين هى الحـــرب النفسية أو الخفية ، ولذلك كان من دقة تعبير القرآن استخدام صورة الحرب فى التعبير بالدرع (الجنة) ومن غاية الدقة أن يشير الى انها حـــرب نفسية وليست عسكرية بأن جعل الدرع منسوجة من الحلف وليس من الحديد (**اتخذوا أيمانهم جنة**) ، وأما الاجابة عن تتمة التساؤل السابق ، فانه لو قيل انهم اتخذوا أيمانهم تضليلا وخداعا للمؤمنين ، أو اخفـاء لنفاقهم أو نحو ذلك ، فان شيئا من هذا لن يكون أسلوب سخرية ، فلا يدخل فى موضوعنا ، ثم الأهم من هذا أنه لو كان التعبير نحوا من هذه الأمثلة لفقد أهم ما يهدف اليه تعبير القرآن ، فان ظاهر تعبير القرآن بأن درع المنافقين مصنوعة من الحلف الكاذب ومع ذلك يظنونها تحميهم يتضمن أن هذه الحماية وهم زائف يتخيلونه تخيلا ، حيث يتوهمون أن هذه الأيمان التى يحلفونها تحميهم من الله ورسوله والمؤمنين ، والحقيقة أنه لا توجـد حولهم جنة ، ولا توجد لهم حماية أصلا ، وهم مكشوفون ومعرضون لما يصيبهم من الله ورسوله والمؤمنين ، ولو كان التعبير مثلا انهم اتخـذوا ايمانهم خداعا للمؤمنين أو اخفاء لنفاقهم لكان هذا الأسلوب حقيقة ، ولما تضمن الدقة المشار اليهـا ٠

٣ ـ لفظ (صدوا)

فان لفظ (صدوا) من جملة (**صدوا عن سبيل الله**) يحتمل معنيين ، أن تكون فعلا لازما من الصدود بمعنى التحول والميل ، أى أنهم تحولوا عن طريق الله فمالوا وانحرفوا عنها ، ويحتمل أن يكون فعلا متعديا بمعنى المنع أى أنهم منعوا غيرهم عن الاتجاه الى دين الله ، ولكن المعنيين قائمان بالقياس الى المنافقين ، فكونهم هم تحولوا ومالوا عن طريق الله هذا أمر واضح ، وكذلك كونهم يحاولون منع غيرهم عن الدين فهذا هدف واضح لهم ، ونظرا الى القول المأثور من أن القرآن يفسر بعضه بعضا فان مواضع أخـــرى توضح أن هدف المنافقين هو افساد الدين ومنع الناس من الاتجاه اليه ، كما فى الآية المشار اليها فيما سبق :

[وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعـون] (٥)

---

(٥) ٧٢ سورة آل عمران ٠

بمعنى لعلنا نستطيع من خلال نفاقنا هذا أن نجعلهم يرجعون عن ايمانهم ، وكذلك فى مثل قوله تعالى :

[ومن الناس من يعجبك قوله فى الحيـــاة الدنيا
ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام ،
واذا تولى سعى فى الأرض ليفســـد فيها ويهلك
الحرث والنســل ٠٠] (٦)

فلفظ (صدوا) يمثل عنصرا أصليا فى دقة التعبير ، حيث يوضح فيما يوضح أهم أسباب تصدى القرآن لهذه الأنواع من أعدائه ، وهـــو كونهم عقبة فى سبيل وصول الاسلام الى الناس ، أو وصول النـــاس اليه ، فالقرآن يعطى المؤمنين الأسلحة التى يستطيعون بها أن يزيلوا هذه العقبات من طريق الاسلام ٠

ثم كان ختام الآية بمثابة الحكم على موقف المنافقين سواء فى الهدف وهو الصد عن سبيل الله ، أو الوسيلة وهو النفاق ، وختــام الآية هـــو

[انهم ساء ما كانوا يعملون]

ولفظ (ساء) فيه معنى التعجب ، فهو بمعنى ما أســـوأ عملهم ، والتعجب فى حقيقته يتضمن فى مدلول الوصف بالفعل معنيين ، أحدهما التفضيل الذى يعنى بلوغ الغاية فى الوصف ، والثانى التعجب من بلوغ الوصف هذه الدرجة ، فاذا وصف شخص بالسوء بأسلوب التعجب نحـــو قولهم ما أسوأ هذا الشخص فان لفظ (أسوأ) بوزن أفعل وهى صـــيغة التفضيل لفظا ومعنى أى أن هذا الشخص أسوأ من غيره على الاطـلاق ، بمعنى أنه تجاوز كل درجات السوء عند غيره ، والمعنى الآخر هو التعجب الذى يترتب على اضافة (ما) الى لفظ (أسوأ) والتعجب معنــاه فى هذا المثال وغيره أن هذه الدرجة التى بلغها هذا الشخص من السوء تثير التعجب فى النفوس ، وعلماء اللغـــة يعرفون أن لفظ (ساء) فى الآية السابقة يتضمن معنى التعجب أى أنه يتضمن المعنيين المشار اليهما ، ثم ان الجمع بين الفعل الماضى (كانوا) الذى يعنى الثبوت والفعل المضـــارع (يعملون) الذى يعنى التجدد يعد توضيحا للسوء وللتعجب الملوح فى هذا السوء ، فالفعلان يعنيان أن هذا السوء فى المنافقين طبيعة ثابتة ، وأن مزاولتهم اياه متجددة دائمة التجدد ، كما تحكى عن تاجر مثلا فتقـــول : كان يغش ، فان هذا يعنى أنه لم يغش مرة أو مرات ، وانما كانت طبيعته الغش ، وأنه لذلك كان يزاوله بصفة دائمة ، وهذا تأكيد لما يراه بعض

---

(٦) ٢٠٤ سورة البقرة ٠

الباحثين من أن النفاق ليس سلوكا طارئا يقبل التغيير والتحول عنـــه بسهولة ، وانما هو شذوذ ثابت فى طبيعة بعض الناس وتكوينهم وأن القرآن يشير ضمنا الى هذا فى نحو قوله تعالى :

[فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه] (٧)

أى أن نفاقهم ثابت لا ينتظر لهم تحول عنه (٨)

ولهذه الخطورة للنفاق ، ولأثره فى الصد عن الاسلام كانت حمـلة القرآن عليه ، ومن هذه الحملة أسلوب السخرية ٠

عيـون المنافقين :

والقرآن يلفت النظر الى ملحظ بالغ الأهمية فى الكشف عن خبـــايا الشخصية وما يدور داخلها من مشاعر وانفعالات ، وهذا الملحظ هو العين، فانها النافذة المفتوحة التى تطل على أعماق صاحبها ، وكل الجســم يكاد يكون مغلقا ما عدا العين فانها تشف عما وراءها من شخصية صاحبها فى انفعالاته كلها ، من خوف أو قلق أو فرح أو حزن أو غير ذلك ، وقد يستطيع الانسان التحكم فى كل أعضائه فلا تظهر فيها انفعالاته الا العين ، فانها لا يستطيع أن يتحكم فيها طويلا ، بل لابد أن تبدو فيها انفعالاته واضحة لمن يتأملها بدقة لحظ ٠

والمنافق مهما يبلغ من المهارة فى اخفاء حقيقته فانه لا يستطيع أن يستطيع أن يسيطر على عينيه فى اخفاء انفعالاته ، وقد يستطيع منافق بالغ المهارة اخفاء حقيقته كالجاسوس المحترف مثلا ، فقد يستطيع الســيطرة على كل أعضاء جسمه فلا تظهر عليها انفعـــالاته فى المواقف الصعبة والخطيرة ، ولكننا لو لحظنا حركة عينيه بدقة فلابد أن نجد انفعـــالاته واضحة فيهما ٠

ولهذه الأهمية للعين فى الكشف عما فى نفس صاحبها من انفعالات فان القرآن يبدى اهتماما واضحا بالاشارة الى هذا الملحظ لتنبيه المؤمنين الى مراقبة نظرات وحركات عيون من لا يثقون فيهم ، أو الدخلاء بينهم ٠ فانهم اذا أحسنوا هذه المراقبة سيكتشفون كل منافق بينهم ٠

---

(٧) ٧٧ سورة التوبة ٠

(٨) انظر كتاب أسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

وهذا المجال بطبيعته لا يحتمل سخرية الصياغة ، لأن القرآن حينما يريد أن يرشدهم الى علامة يكشفون بها خبىء صاحبها فان مقتضى ذلك نقل العلامة بصورتها دون تصرف فى تصويرها أو التعبير عنها ، لأن التصرف فيها بالمبالغة أو التهوين أو الاضافة يضلل من يلحظ هذه العلامة ويرقبها ، وكلما كان وصف العلامة واقعيا حقيقيا مجردا من أساليب المجاز كان أقرب الى كشفها وكشف حقيقة صاحبها ٠

فلا ننتظر اذن فى حديث القرآن عن عيون المنافقين سخرية فى الصياغة والتعبير كما فى مواضع أخرى ، ولكن السخرية فى حال المنافقين أنفسهم ، بمعنى أن حالهم نفسه حينما يصفهم القرآن يكون مثيرا للسخرية منهم ، لأنهم لو كانوا فى حال عادية ما كان القرآن ليذكرها ، وانما يكونون حينئذ فى حال غير عادية يكون منظرهم فيها مضحكا أو مثيرا للسخرية منهم ، فينقل القرآن حالهم كما هو ٠

ففى صورة من حال المنافقين ينقل القرآن وضعين متناقضين بالغى الغرابة فى تناقضهما ، حيث يقول تعالى فى سياق الحديث عن المنافقين :

[أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير ٠٠٠] (٩)

والصورة ذات منظرين ، أحدهما فى حال الخوف ، والآخر فى حال الطمع بعد زوال الخوف ، والخوف هنا هو الخوف من القتال وما يترتب عليه لأن الآية فى سياق الحديث عن القتال فى سبيل الله ، والخطاب موجه الى الرسول والمؤمنين ، ففى المنظر الأول وهو منظر الخوف كأن الله سبحانه يقول لرسوله ولكل متأمل من المؤمنين انظر الى أعين هؤلاء المنافقين تجد الخوف ظاهرا فيها ، فهى تدور من الرعب والفزع كعين الذى يعالج سكرات الموت ، فهى تجحظ مرة ، ويتقلب محجرها بين جفنيه مرة أخرى ، وفى كل حال فهى لا تستقر ، وانما تدور وتتقلب من آثار انفعال الرعب الذى يصطرع فى داخله ، وكأن عيونهم حينئذ فى دورانها وجحوظها وشخوصها تستغيث بشخص النبى صلى الله عليه وسلم بوصفه حينئذ القائد الذى يستطيع أن ينقذهم أو يحميهم أو يعفيهم من هذا الموقف الذى سبب لهم هذا

---

(٩) ١٩ سورة الأحزاب ٠

الرعب الذى يعتمل فى نفوسهم ، ولا شك ان منظر اعينهم ونظراتها واستغاثتها حينئذ مثير للسخرية والتندر ، ولكن منظرهم فى الخوف يشتمل على ما هو اكثر من ذلك ، فاذا تأملنا تعبير القرآن عنه وهو :

[اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رايتهم ينظرون
اليك تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت]

نجد فيه العناصر التالية :

١ ـ [اشحة عليكم]

بمعنى انهم يتصنعون المودة لكم والحرص عليكم ، فان الشح هو الحرص على الشيء ، وتعبير اشحة عليكم اى كأنهم يحرصون عليكم أن يمسكم ضر أو أن تصيبكم الحرب بخسارة ، والمنافقون لا يشعرون بداهة بهذا الشعور نحو المؤمنين ، وانما يتكلفون اظهار هذا الشعور خديعة ومبالغة فى كسب ثقة المؤمنين ، فهذا المظهر يتكلفونه فى اثناء الخوف ٠

٢ ـ [ينظرون اليك]

بمعنى أنك تلحظ ان عيونهم متشبثة بك ، وكأنها تستغيث بك ان تنقذهم ، ومن دقة الألفاظ فى الآية لفظ (رايتهم) فى جملة (رايتهم ينظرون اليك) بمعنى ان هذا الوضع منهم يحتاج الى تأمل ودقة رصد ، وبدون هذا قد لا يشعر الموجود معهم بأن ذلك صدر منهم ٠

٣ ـ [تدور اعينهم]

وهذا الدوران والتقلب فى نظراتهم وعيونهم هو من آثار الرعب والفزع الذى يختلج فى داخل نفوسهم فيظهر فى عيونهم ٠

ولكن الطريف العجيب انهم ما ان ينحسر عنهم الخوف ويتحولوا الى الطمانينة حتى ينقلب حالهم الى ما يشبه النقيض من حالهم الأول ، وحيث كان الخوف فى موقف القتال فان الطمانينة التى تعقب القتال انما تكون فى حال نصر ، وحينئذ تكون لدى المنتصرين غنائم فازوا بها من عدوهم ، وهنا تظهر الصورة المناقضة للصورة الأولى من المنافقين ، ونلحظ فى تعبير القرآن عنها ثلاثة عناصر ايضا وهى :

[فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد اشحة
على الخير]

١ ـ الفاء فى جملة (فاذا ذهب الخوف) فانها تفيد انقلابهم المفاجىء والفورى من الذلة والرعب الى بذاءة اللسان والتطاول فور ذهاب الخوف، وقد كان أيضا هذا الانقلاب المفاجىء والفورى من الحالة العادية الى الرعب ودوران الأعين فور احساسهم بالخوف ، ومعنى ذلك أنهم ليست لهم طبيعة ثابتة أو كيان نفسى محدد ، ولكن التقلب والتلون هو طبيعتهم الثابتة ، فكما أنهم يتقلبون ويتلونون فى صلاتهم بالناس بأكثر من وجه ، فكذلك نفسياتهم وانفعالاتهم ليس لها خلق ثابت ، وانما هى متقلبة تدور مع مصلحتهم ومنفعتهم الدنيوية ٠

٢ ـ [سلقوكم بالسنة حداد]

بمعنى أنهم حينئذ يطلقون فيكم السنتهم ، وكأنهم بحدة السنتهم يريدون أن يسلخوكم أو يشوهوكم او يمثلوا بكم ، وهذه المعانى من مدلولات لفظ السلق الذى يدور فى اللغة حول تغيير الشىء وتشويهه ، والروايات التاريخية تؤكد ذلك حيث ان المنافقين كانوا فى كل موقف فيه غنيمة يطلقون فيه ألسنتهم شعرا أو نثرا بلوم الرسول صلى الله عليه وسلم واتهامه بعدم العدل حينما لا يتحقق لهم ما يتمنون من ايثارهم على غيرهم ٠

٣ ـ [أشحة على الخير]

الشح هو الحرص والمراد بالخير فى هذا السياق المال كقوله تعالى عن الانسان :

[وانه لحب الخير لشديد] (١٠)

وهذا التعبير تكرر فى المنظرين ، حيث كانوا فى منظر الخوف (اشحة عليكم) وفى منظر الأمن (أشحة على الخير) ولكنه كان منهم فى حال الخوف تكلفا ونفاقا حيث يظهرون الحرص على المؤمنين أما فى حال الأمن فقد كان هو الحقيقة التى تشف عما فى أعماق نفوسهم ، وهو الحرص على مصلحتهم ومنفعتهم الشخصية وحدها ٠

واذا كا نمنظرهم فى حال الخوف يثير السخرية فى تعلق عيونهم بشخص النبى صلى الله عليه وسلم وهى تدور مما يصطرع فى نفوسهم من الخوف وفى الوقت نفسه يتصنعون الاشفاق على المؤمنين والضن بهم على

---

(١٠) ٨ سورة العاديات ، ويفسره قوله تعالى (وتحبون المال حبا جما) ٢٠ سورة الفجر ٠

المخاطر فان انتقالهم المفاجىء من حالة الرعب وما نتج عنها الى حـدة اللسان وبذاءة القول والتطاول أشد اثارة للعجب والغرابة ٠

• • • • • • • • •

ومن صور أعين المنافقين كما يرسـمها القرآن موضحا نفسياتهم وانفعالاتهم من خلالها قوله تعالى :

[فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظـر المغشى عليـه من الموت ٠٠٠] (١١)

فالقرآن هنا أيضا يصور المنافقين فى موقف معين ، هو موقف الخوف من اشتراكهم فى القتال ، وملابسات الصورة وعناصرها يتمثـل أبرزها فيمـا يلى :

١ ـ ملابسات الموقف تتمثل فى قوله تعالى :

[فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ٠٠]

بمعنى أنه حينما تنزل سورة من القرآن وفيها أمر بالقتال فى سبيل الله ، وهذا الأمر محكم صريح لا يحتمل التأويل ، وبالتالى لا يتيح للمنافقين فرصة للتأويل أو التهرب ، لأنهم يدعون أنهم مسلمون ، وهذا الأمر صريح فى تكليف المسلمين القادرين أن يقاتلوا فى سبيل الله ، فسيجدون أنفسـهم حينئذ فى مأزق يعرضهم للموت ، وهو اشتراكهم فى القتال الذى ليست لهم فيه مصلحة شخصية ، والمصلحة الشخصية هى كل ما تدور عليه حياتهم ، ولكن الموقف حينئذ ليس فقدان منفعة شخصية فحسب ، وانما هو تعـرض مباشر للموت بدون هدف فى تصورهم ، فتمتلىء نفوسهم بالخوف الرهيب الذى يسيطر على كل ذرة فى كيانهم الحسى والمعنـوى كما تبدو آثاره فيما يلى من تعبير القرآن عن هذه الصورة ٠

٢ ـ يشير تعبير القرآن الى اكتشاف انفعالات المنافقين واستشفاف نفسياتهم من خلالها ليس متاحا لكل انسان ، وانما هو مرتبط بالتأمل ودقة الملاحظة ، فالذى يراقب حالهم وانفعالاتهم حينئذ يستطيع بدقة ملاحظته أن يدرك بوضوح ما يدور فى دخيلة نفوسهم من خلال مشاهدته آثار انفعالاتهم

---

(١١) ٢٠ سورة محمد ٠

البادية فى عيونهم ونظراتهم ، وهذا كله مستفاد من لفظ (رأيت) بمعنى أن من يراقب حالهم حينئذ مستخدما بصره وبصيرته فى لحظ ما يبدو عليهم من آثار الانفعال سيدرك فى وضـــوح ما يعتمل فى نفوسهم من الرعب والفزع • وليست هذه الدقة فى الملاحظة متاحة لكل راء ، لأنها تحتـــاج فوق المشاهدة الى ذكاء ونفاذ بصيرة وصحة استنتاج ، ولذلك كان الخطاب فرديا متمثلا فى مخاطبة شخص الرسول صلى الله عليه وســـلم بوصفه النموذج الأعلى لكل صفات التميز ، ومن ثم لم يكن التعبير رأيتم أو نحوه مما يدل على الجمع ، وانما كان بلفظ (رأيت الذين فى قلوبهم مرض ••) ومن البداهة أن هذا لا يعنى أن النبى وحده هو الذى يكتشف حالهم ، وانما يعنى أن هذا هو المنهج لاكتشاف المنافقين من خلال ما يبدو عليهم ، وهو دقة الملاحظة ونفاذ البصيرة واستقامة الاستنتاج ، ويجتمع هذا فى لفظ (رأيت) الذى يعنى حتى فى دلالته اللغوية الرؤية البصرية الحسية ، ورؤية البصيرة العقلية والوجدانية ، واجتماعهما لازم لاكتشاف المنافقين •

٣ ـ لفظ (مرض) من تعبير (فى قلوبهم مرض) لا تقصد به الدلالة الحسية للمرض ، وانما يعنى أن فى المنافقين شذوذا على الخلقة السوية لبنى آدم ، ومن الخلقة السوية فيهم النزعة الدينية التى يعبر عنها علمـاء النفس والاجتماع بغريزة التدين ، بمعنى الاحســـاس الفطرى لدى الانسان بوجود قوة عليا فى الكون هو ألوهية الله سبحانه مهما تصورها فى صنم أو غيره والتى يعبر عنها فى الدين بالفطرة ، كقوله تعالى :

[فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها ••] (١٢)

بمعنى أنها الغريزة أو الطبيعة التى خلق الله الناس عليها ، كما فى الحديث الشريف :

[كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه]

بمعنى أن كل مولود يولد ولديه الاحساس الدينى الروحى المتمثـل فى الشعور بهذه القوة العظمى ، وهى قوة واحدة تعبيرها الصـحيح (لا اله الا الله) ولكن المجتمع هو الذى ينزلق بالفرد فى متاهات العقائد المتعددة أو المتنوعة ، والأبوان هما المثلان للمجتمع فى تعبير الحـديث الشريف •

---

(١٢) ٣٠ سورة الروم •

واذن فالحس الدينى الصحيح مركوز فى طبيعة البشر ، وهى الطبيعة السوية لهم ، ولكن كما يوجد الشذوذ فى كل شىء ، وفى كل قاعدة ، فكذلك يوجد فى هذه الطبيعة البشرية ، والمنافقون يمثلون هذا الشذوذ عـلى الطبيعة السوية ، والقرآن يعبر عن شذوذهم بما هو أدق وهو المرض ، لأن المرض ليست له حدود أو صور معينة ، بل هو شديد التفاوت والتنوع ، وكذلك النفاق ، منه ما هو فى السلوك ، ومنه ما هو فى العقيدة ، فاما نفاق السلوك فيمكن علاجه أو التخلص منه ، كما فى الحديث الشريف :

[ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، اذا حدث كذب ، واذا وعد اخلف ، واذا عاهد غـدر]

فهذا النوع يمثل المرض الطارىء على الطبيعة البشرية السـوية واما نفاق العقيدة فهو يمثل فقدان الطبيعة السوية من أساسها ، بمعنى أننا نتصور بعض الناس يولدون وهم فاقدو الغريزة الدينية ، كما يولد بعض الناس وهم فاقدو السمع أو البصر مثلا ، ومن هذا القبيل قوله تعالى :

[... فاعقبهم نفـاقا فى قلـوبهم الى يوم يلقونه ...] (١٣)

بمعنى أن هذا النوع من النفاق ثابت لا يرجى التخلص منـه حتى المـوت (١٤) .

٣ ـ وأما تعبير (ينظرون اليك) من قوله تعالى :

[رايت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك]

فرغم انه جزء من المشهد أو الصورة المرسومة للمنافقين حينئذ ، الا أنه يمثل السبب الأصلى لظهور النفاق ، فان المنافق انما ينافق حين يصطدم بقوة يخشاها ولا يستطيع فى وجـودها اظهار ما فى نفسـه ، والمنافقون حينئذ يخشون قوة المسلمين ، وشخص الرسول صلى الله عليه وسلم عنوان هذ القوة ، فابصـارهم شاخصة اليه بوصفه القـوة التى يخشونها والتى لا يستطيعون معها اظهار حقيقة ما فى نفوسهم .

---

(١٣) ٧٧ سورة التوبة .

(١٤) انظر فى هذا الموضوع كتاب أسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤ ـ وأما تعبير (نظر المغشى عليه من الموت) من قوله تعالى :

[فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت ···]

فهو يصور المشهد الذى يكون عليه حال المنافقين حينئذ ، وهـــو صلب الصورة التى يعنيها هذا الحديث ، والمغشى عليه هو الذى انتـابه الاغماء ، وحالة الاغماء هى جوهر التشبيه الذى تعتمد عليه الصورة ، فان المغمى عليه يكون فاقد الحركة ، وفقدان الحركة هو الحالة التى تسيطر على المنافقين حينما يجدون أنفسهم فى هذا الموقف من الخوف الذى يبلغ أقصاه بالتعرض للموت فى القتال المطلوب منهـم ، وهـــو مطلوب بأمر لا مجال للمراجعة فيه وهو القرآن ، فالمشهد اذن هو أن الخوف يسيطر عليهم حتى كأنهم فى متناول السيف فعلا ، فاذا كل كيانهم متجمد ، وقـد تبدو صياغة هذا التصوير وكأنها مبالغة ، ولكنها حقيقة فى واقع الحيـاة فيما يتعلق بالخوف ، فانه من المعروف مثلا عن الفريسة حينما يهاجمها حيوان مفترس أنها تحاول الافلات بكل جهدها ، وقد تبذل جهدا قـويا طويل الأمد فى محاولة الهروب ، والوحش يطاردها ، ولكنها حينما تشعر أنها أصبحت فى قبضته تســتكين وكأنها تستسلم له دون أدنى حـركة للمقاومة ، والواقع أنه ليس استسلاما ، ولكن الخوف حينئذ يسيطر عليها فاذا هى مشلولة الحركة ، وكذلك الانسان حينما يفاجأ بخطر داهم ، ويجد أنه أصبح فى قبضة هذا الخطر ، وليس له مفر منه ، يجد نفسه مشــلول الحركة عاجزا عن الاتيان بأى مقاومة أو محاولة ، ولا يكون هذا أيضـا استسلاما اختياريا وانما هو عجز عن الحركة نتيجة سيطرة الخوف الذى يصل الى سلب كل قدرة على الحركة ، ولقد رأيت ذات مرة فأرا فى سقف حجرة ، وفى الأرض قط يحملق فيه ، والفأر ثابت فى مكانه من السقف لا تبدو منه أية حركة وظللت أشاهد هذه الصورة الثابتة ، وما هى الا لحظات حتى سقط الفأر أمام القط ، لينقض عليه ·

ومن هذا القبيل موقف المنافقين حينما يشعر الواحد منهم أنه فى قبضة قوة لا مفر منها وهى ممثلة الآن فى شخص الرســـول ، والمنافق يتعرض لخطر مفاجىء هو نزول القرآن بما يتضمن طلب القتال من المسلمين، وقد وضع المنـــافق نفسه فى عـــدادهم ، ولا مفـــر له من أن يقـــاتل معهم ، وهو يتصور نفسه حينئذ وهو فى موقف القتال فعلا وهو فى مواجهة

القوة التى لا طاقة له بمقاومتها أو التهرب منها وهى قوة المسلمين ممثلة فى شخص الرسول ، فالناظر الى المنافق حينئذ والمتأمل له سيجد أن الخوف قد سيطر عليه فشل كل حركة فيه حتى كأنه مغشى عليه ، ومن دقة تعبير القرآن(**نظر المغشى عليه من الموت**) فان المغمى عليه فى الأحوال العادية تكون عيناه مسبلتين ، ولكن الميت تكون عيناه عادة مفتوحتين ، فالمنافق حينئذ كالمغمى عليه ، ولكن عينيه مفتوحتان ينظر بهما نظرة تائهة لا حركة فيها كمنظر عينى الميت ، عين مفتوحة ولكن لا حركة فيها ولا حياة ·

ومما تدل عليه نظرة العين من أحوال المنافقين ، حال الخبث والمكر والمراوغة ، حيث يستخدمون نظراتهم أحيانا لغة للتفاهم حينما لا يستطيعون التفاهم فيما بينهم بألسنتهم ·

والقرآن يعرض من هذا القبيل هذه الصورة :

[واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا] (١٥)

والصورة فى ملابساتها حين نتأملها نجد أنها توحى بأعمق كثيرا مما يدل عليه ظاهر ألفاظها القليلة ، فان محور الملابسات هو خوف المنافقين من نزول الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن كل احتمالات ما ينزل به الوحى وخصوصا القرآن لا يتوقع منه المنافقون الا طعنات لهم ، وبعض هذه الطعنات قد يكون قاضيا عليهم ، فلذلك ما ان يحس المنافقون أن وحيا نزل أو بدأ نزوله حتى يبادروا بمحاولة الهروب من مجلس المسلمين ، وخصوصا مجلس الرسول ، ومن احتمالات ما ينزل به الوحى بالقياس الى المنافقين :

١ ـ أن يكشف القرآن الذى ينزل به الوحى خبايا نفوسهم ومكنون ما يدبرونه بينهم فى الخفاء ، وهم لابد قد جربوا قبل ذلك أن القرآن يرشد المسلمين الى كشف المنافقين بينهم ، سواء بالاشارة الى صفات المنافقين وما يبدو عليهم من انفعالات مميزة ، أو الى مسلك غير عادى منهم كما قال قائل المسلمين حين بدأ نزول هذه التوجيهات فى القرآن لم يخف علينا منافق بعدها ·

٢ ـ أن يتضمن ما ينزل به الوحى أمرا بتضحية سواء بالمال أو بالنفس ، وذلك حين يؤمر المسلمون بالجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وهم معدودون من المسلمين ، فعليهم اذن أن يسهموا فى هذه التضحية، فهم

---

(١٥) ١٢٧ سورة التوبة ·

يريدون أن يهربوا قبل أن يسمعوا طلب هذه التضحية ، أو قبل أن تطلب منهـــم ٠

٣ ــ على أيسر الفروض بالقياس الى المنافقين أن ما ينزل من القرآن حتى وان خلا مما يتعلق بالمنافقين فانه يزيد نفوس المسلمين ثباتا ويقينا فى الايمان ، ومزيدا من التطلع والأمل فى النصر ، وليس شىء أبغض من هذا كله الى نفوس المنافقين ، فهم اما منكرون للدين ساخرون منه ومن المصدقين به ، واما كارهون اياه نافرون منه أشد النفور ، فكل ما يأتى من قبل الدين ، وكل ما ينتج عنه يؤذى نفوسهم ، وتضـــيق به صدورهم ، وخصوصا القرآن ، فما أن يشعروا بنزول شىء منه حتى يسارعوا الى محاولة التخلص من المصدر ومن المكان الذى يتوقعونه منه ٠

ولكن خـــوفهم من أن يكتشف المسلمون دخيلة نفوســـهم يجعلهم يحرصون كل الحرص على أن يكون تحركهمخفيا ، بحيث لا يشعر أحد من المسلمين بريبة فيهم ، فهم يستخدمون حينئذ نظراتهم فيما بينهم لغة للحوار والتفاهم ، وصلب الرسالة التى تتناقلها نظراتهم هو ما يتضمنه تعبير القرآن من أن كلا منهم كأنه يقول للآخر بنظراته الخاصة (هل يراكم من أحد) فاذا اطمأنوا الى أن أحدا لن يشعر بريبة فى مسلكهم (انصرفوا) وهذا مجمل مضمون الصورة :

[واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ٠٠٠]

وتعبير القـــرآن يفصـــل بوضـــوح ملابســـات الصـــورة وعناصرها كمـــا يلى :

١ ــ تعبير (اذا ما أنزلت سورة) يحدد مصدر الخوف والحذر عند المنافقين ، وهو نزول الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن ، ففى القرآن كثير متفرق عن المنافقين وأحوالهم ونفسياتهم ومؤامراتهم ، والمنافقون لا شك قد سمعوا ذلك ، ولكنهم يحاولون اخفاء نفاقهم ليظـــلوا مستترين بستار الاسلام الظاهرى ، ولكن يظل الخوف من أن يكشـــفهم القرآن ماثلا فى نفوسهم ، فحين يسمعون أن قرآنا جديدا نزل على الرسول، أو يشعرون بأن الوحى بدأ ينزل عليه ، وقد كان ينزل عليه الوحى أحيانا وهو جالس بين المسلمين ، حينئذ ينتابهم الخوف من نزول القرآن ومن انكشاف نفاقهم ٠

٢ ــ وتعبير(نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد) يتكون من جزءين ، جزء يتضمن الرسالة التى يتناقلونها حينئذ ، وهى (هل يراكم

من احد) بمعنى انهم يريدون ان يتأكدوا أن احدا من المسلمين لم يلحظ توجسهم وتحفزهم لمغادرة المكان حتى لا يكتشف نفاقهم ، والجزء الآخر يتضمن الوسيلة التى يتناقلون بها الرسالة ، وهى وسيلة الاشارة بأعينهم ونظراتهم (**نظر بعضهم الى بعض**) ومن الواضح فى السياق أنه ليس نظرا عاديا ، وانما هى نظرات خاصة ، لأنها تتضمن رسالة خاصة وتفاهما معينا بينهم ٠

٣ ــ واما تعبير (**ثم انصرفوا**) فهو يمثل نتيجة الموقف ، وختام المشهد ، فبعد ان امتلأت نفوسهم توجسا وحذرا وخوفا ، وبعد أن تفاهموا فيما بينهم بنظراتهم ، واطمأنوا الى عدم كشف أمرهم يأخذون فى الانصراف فى صورة التسلل ، ومعنى ذلك انه لن يكون انصرافا جماعيا ، وانما هو انصراف فردى حرصا على عدم اثارة الريبة فى انصرافهم ، والذى يدل على هذا فى التعبير لفظ (ثم) الذى يفيد التراخى ، بخلاف ما لو كان التعبير بالفاء او الواو مثل فانصرفوا أو وانصرفوا ٠

وهكذا نجد القرآن يرشد الى أن العين نافذة الانسان المفتوحة ، التى تكشف عن خبيء نفسه ، وعن نوع انفعاله ، كما بدت من خلالها خبايا المنافقين وانفعالاتهم ، والواقع أن نظرات العين ودلالاتها مبحث واسع مستفيض فى القرآن الكريم ، يصلح ان يكون بحثا مستقلا متكاملا ، وما عرض فيما سبق ليس الا من باب التمثيل لنوعية معينة من الناس هم المنافقون ، ومن امثلة هذا المبحث فى غير مجال المنافقين :

دلالة نظرة العين على الغباء ، كما يشاهد فى نظرات الأبله ، حين يخيل الى المشاهد أن هذا الشخص ــ وهو الأبله ــ يحدق فى شيء ، أو يتأمل أو يفكر ، ولكنه فى الحقيقة ينظر نظرة تائهة لا تعنى شيئا الا مجرد كون عينيه مفتوحتين ، ومن ذلك فى القرآن :

[وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون] (١٦)

بمعنى وهم لا يدركون بعقولهم شيئا ، فالمراد بالبصر هنا البصيرة العقلية وليس البصر الحسى ٠

ومنها أيضا دلالة نظرة العين على الخيانة والغدر ، ومنه فى القرآن :

[يعلم خائنة الأعين] (١٧)

---

(١٦) ١٩٨ سورة الأعراف ٠
(١٧) ١٩ سورة غافر ٠

ومنها دلالة نظرة العين على التأمل والتفكير ، ومنه فى القرآن :

[فنظر نظرة فى النجـوم ...] (١٨)

ومنها دلالة نظرة العين على الذلة والانكسار ، ومنه فى القرآن فى تصوير قدوم أعداء الله الى جهنم فى الآخرة :

[وتراهم يعرضـــون عليها خاشـــعين من الذل

ينظرون من طرف خفى] (١٩)

ومنها دلالة نظرة العين على الطمانينة والرضا النفسى ، ومنه فى القرآن عن ارجاع الله سبحانه موسى الرضيع الى امه بعد القائه فى اليم :

[فرددناه الى امه كى تقر عينها ولا تحزن] (٢٠)

ومنه دلالة نظرة العين على الحياء ، وأوضح ما يبدو هذا فى نظرة المراة ذات الحياء ، ومنه فى القرآن وصف نساء الجنة :

[قاصرات الطرف] (٢١)

بمعنى أنهن يقصرن نظراتهن على شئونهن ، فلا يمدونها الى أحد أو شيء ، والشنفرى الأزدى (٢٢) يعبر عن نظرة الحياء فى أثناء السـير بقــوله :

كأن لها فى الأرض نسيا تقصه :

والنسى بكسر النون الشيء المنسى ، وتقصه بمعنى تتبع أثره ، يعنى أنها فى أثناء سيرها تخفض بصرها الى الأرض كأنها تبحث عن شيء سقط منها وتظل هكذا طوال سيرها كأنها تتبع أثر هذا الشيء .

---

(١٨) ٨٨ سورة الصافات .

(١٩) ٤٥ سورة الشورى .

(٢٠) ١٣ سورة القصص .

(٢١) ٤٨ سورة الصافات .

(٢٢) الشنفرى شاعر جاهلى من أشهر الصعاليك ومن أجود شعراء العرب شعرا .

سخرية القرآن والشرك

ولقد كانت جبهة الشرك بعتوها وعنادها ولددها فى الخصومة فى حاجة الى حشد كل الأسلحة لمقاومتها وصد هجومها العاتى على الاسلام، هذا الهجوم الذى كلف النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين من الجهد والعناء والدماء ما ليس فى حاجة الى بيان ٠

ومع أن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين أفرغوا فى هذه المقاومة كل ما يملكون من جهد ومال واستعداد لبذل الدماء الا أن كل هذه الجهود لم تكن لتصل الى منابع الشرك كما وصلت اليها سخرية القرآن ، فان جهود المسلمين كانت تمثل المواجهة العلنية والعسكرية للشرك ، أما سخرية القرآن فكانت تمثل الحرب النفسية الموجهة الى الركائز والقواعد التى تعتمد عليها جبهة الشرك فى موقفها وصراعها مع الاسلام، ومن المعروف أن الحرب النفسية أخطر وأهم من حرب المواجهة ، لأن قوة كل طرف فى حرب المواجهة انما تعتمد على نفسيته ومعنوياته ، فبمقدار يقينه بصدق موقفه ، أو ثقته فى نفسه ، أو أمله فى النصر على خصمه تكون قوته ٠

وسخرية القرآن اتجهت الى نفسيات المشركين ومعنوياتهم لتدميرها، ثم اشعارهم بأنهم يقفون على هاوية ، ويعتمدون على وهم ، ويقبلون على خسران مبين فى الدنيا ، وعذاب أليم مهين فى الآخرة ، فلا أمل لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وكما فى القرآن الكريم :

[خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين] (١)

وحينما يصل هذا المعنى الى نفسية أى طرف فى الخصومة ، حتى قبل أن يصل الى درجة الاقتناع به فان نفسيته لابد أن يحدث فيها من

---

(١) ١١ سورة الحج ٠

التهاوى والتخاذل ما يرتد الى موقفه فى الخصومة ، وقد أوصلت سخرية القرآن هذا المعنى الى نفسية المشركين ، بل وعمقته فيها تعميقا ، حين وجهت أسلحتها الى كل القواعد التى يعتمد عليها موقف الشرك كما سنرى ندمرتها تدميرا ، فأصبح المشركون فى خصومتهم مع الاسلام كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ولا شك أن القرآن بأسلحته النفسية المتعددة ، ومن أبرزها سلاح السخرية كان أهم عامل فى سرعة انتصار الاسلام على الشرك ، وما كانت كل حصون الشرك العاتية لتتهـــاوى أمام المســـلمين فى بضـــع ســنوات لولا أن القرآن كان يسبقهم اليها فيحطمها من الداخل فلا يبقى الا الهيكل الخارجى الذى يتمثل فى حشود المشركين خاوية العزائم ، لأنهـا لا تجد شيئا من الحق تعتمد عليه ، ولا تحس بمبدأ أو عقيدة صادقة تدافع عنها ، وأملها فى النصر فى مهب عواصف عاتية يدفع اليهم بها هـــذا القـــرآن .

وأهم هذه القواعد التى يعتمد عليها الشرك ، والتى اتجهت اليها سخرية القرآن فزلزلتها .

الآلهـــة :

والآلهة هى المعبودات التى تعبد من دون الله أيا كان نوعها ، والقرآن يشير الى اعتماد المشركين نفسيا على الآلهة بوصفها قاعدة ترتكز عليهـا قوتهم المعنوية فى مثل قوله تعـــالى :

[واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا] (٢)

ولكنه يوضح لهم أنهم واهمون فى هذا ، بل هذه الآلهة نفسها وان كانت جمادا فان الله سينطقها يوم القيامة فتكون عدوا لمن يعبدونها ، ولذلك كان الرد فى القرآن على المعنى السابق :

[كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا] (٣)

وفى توجيه نفسى عميق الدلالة يحاول القرآن نقل المشركين فى جبهة الصراع من جانب الشرك الى جانب المؤمنين ، حيث يؤكد لهم أن العـــزة التى ينشدونها ليست فى جانب الآلهة ، وانما هى فى جانب الايمان بالله الواحد ، كقوله تعالى :

[ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين] (٤)

وأول ما يتجه اليه الذهن فى هذا المجال هو مناقشة مدى صدق دعوى الوهية هذه الآلهة ، هل هم آلهة حقا ؟

---

(٢) ٨١ سورة مريم .
(٣) ٨٢ سورة مريم .
(٤) ٨ سورة المنافقون .

والقرآن يرد على هذه الدعوى بأساليب كثيرة متنوعة · منها أسلوب السخرية ، الذى يتضمن الرد العقلى على هذه الدعوى ، ولكن فى صـياغة تتسم بالسخرية من طبيعة هذه الآلهة ، ومن مدى قدرتها ·

ومن ذلك قوله تعـالى :

[يايها الناس ضرب مثل فاسـتمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شـيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب] (٥)

فالآية فى موجزها ترسم صورتين مفترضتين شديدتى السـخرية من الآلهة ومن عجزها ، فأما الصورة الأولى فتتضمن كأن الآلهة جميعـا اجتمعوا ليحاولوا عمل شىء يدل على انهم آلهة وهو الخلق ، فعمدوا الى أهون المخلوقات المعروفة فى حياة الناس وأحقرها وهى الذبابة ، ورغـم تعاونهم جميعا وتآزرهم على خلقها فلم يستطيعوا ·

وأما الصورة الثـانية فكأن الآلهة جميعا كانوا مجتمعين ، وكان أمامهم شىء يأكلونه مثلا فجاء الذباب أو ذبابة فاختطفت هذا الشىء ، فحاول الآلهة مجتمعين أن يأمروها بارجاع هذا الشىء كما ينبغى للآلهة أن تفعل ، فلم يستطيعوا ، وحاولوا مجتمعين أن يطاردوها كما يفعل الانسان العادى فى محاولة استعادة ما يختطف منه ، فلم يستطيعوا ، فالذبابة ضعيفة ، ولكن آلهتهم أضعف منها حيث غلبتهم الذبابة على أمرهم سواء فى خلقتها وفى مسلكها ، ولذلك كان التعقيب المحكم للقرآن حينئذ (**ضعف الطالب والمطلوب**) والطالب هم الآلهة ، والمطلوب الذباب ·

والسخرية واضحة فى الصورتين ، فان محض اقتران الآلهة بالذباب والموازنة بينهما سواء فى القوة أو فى أى شىء هو سخرية بالغة بالآلهة ، ثم عجز الآلهة ، وليس الها واحدا عن خلق أهون شىء وأحقره فى أعين الناس وهو الذبابة ، هو سخرية أخرى بالآلهة ، ثم منظر الآلهة مع منزلتهم عند عابديهم وهم مجتمعون ليطاردوا ذبابا ويسابقوه ليحاولوا استنقاذ شىء قد سلبه منهم هو أيضا صورة بالغة السخرية بالآلهة ، وبعقول من يعبدون هؤلاء الآلهة ·

---

(٥) ٧٣ سورة الحج ·

ولكن صـــــياغة القرآن توحى فوق ذلك بالكثير من الدقة والعمق والتوجيه ومن ذلك :

١ ـ التمهيد للصورة بتعبير :

[يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ٠٠]

والمراد بالناس المشركون ، حيث يخاطبهم سبحانه بعد ذلك بقــوله : **[أن الذين تدعون من دون الله ٠٠٠]**

ومدلول تعبير (**فاستمعوا له**) يمثل هدفا جوهريا فى الاسلام وهو استخدام العقول ، فالمراد بالاستماع التأمل والتدبر ، وأى استماع بدون فهم ووعى لا قيمة له ، واستخدام العقل أساس فى الايمان الصحيح ، لأن الاسلام واضح المعالم ، يسير المأخذ ، لا يلتوى على أى فكر ، ولا يحتاج الى جهد عقلى لتبين حقيقته ، فمنطق الاسلام يكاد ينحصر فى هذا التسلسل اليسير القريب المأخذ ، وهو أن الكون لا يعقل أن يوجد بدون موجد ، فكل موجود لابد أن يكون له موجد ، والقرآن يوضح لهم هذه الحقيقة فى هــذا السؤال الذى يوجهه اليهم عن أنفسهم :

[أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون] ؟ (٦)

بمعنى هل وجدوا بدون خالق ؟ أم هم خلقوا أنفسهم ؟ والشق الأخير وهو (**أم هم الخالقون**) يتضمن نوعا من السخرية ، فلا يعقل أن يخــــلق الشىء نفسه ٠

والمرحلة الثانية فى التسلسل العقلى الاسلامى هو : اذا سلمنا بأنه لابد للكون من خالق وهو بالضرورة الاله الخالق ، فهل يصلح فى العقول أن يكون هناك أكثر من اله خالق فى الكون ؟ ولكن اتساق نظام الــكون على نسق واحد غير مختلف ولا مضطرب يقضى بأن الخالق لهذا النظــام الواحد لابد أن يكون الها واحدا ، والقرآن يوضح هذه الحجة العقلية فى قوله تعــالى :

[لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا] (٧)

يعنى السموات والأرض ٠

واذن فالنتيجة العقلية القريبة المأخذ فى العقول هى **(لا اله الا الله)**

ولأهمية استخدام العقول فى الاسلام نجد القرآن يحض دائما حضا

---

(٦) ٣٥ سورة الطور ٠

(٧) ٢٢ سورة الأنبياء ٠

شديدا على استخدام العقول بأساليب وصيغ مختلفة متعددة ، منها التمهيد لهذه الصورة الساخرة من الآلهة ، فان تعبير **(ضرب مثل فاستمعوا له)** يعنى طلب استخدام العقول لفهم هذه الحقيقة ، وادراك مدى الضلال العقلى الذى يسبح فيه المشركون حتى يشركوا مع الله أى معبود غيره ٠

٢ ـ تعبير **(تدعون من دون الله)** المراد به تعبدون من دون الله ، لأن سياق الحديث واضح فى الدلالة على الآلهة التى يعبدونها ، ولكن القرآن يتحاشى التعبير بلفظ العبادة لهذه الآلهة ، رغم السخرية منها ، وكأن لفظ العبادة لغير الله لا يصح أن يذكر ولو فى سياق البطلان أو السخرية ، فهى دعوة يدعونها وليست عبادة حقيقية ٠

٣ ـ لفظ (اجتمعوا) له دلالة اجتماعية فوق دلالته الدينية ، فـان القبائل العربية لم تكن تعبد الها أو صنما واحدا ، وانما كان لكل قبيـلة اله معين ، وكذلك فى غير قبائل العرب آلهة متعددة ، فقد تدعى قبيلة أن معبودها أقوى أثرا من معبود غيرها ، أو أن العجز الذى يوصف به الآلهة لا يسرى على معبودها ، فان تعبير القرآن أن هذا العجز ليس موصوفا به معبود أو معبودون معينون ، بل ان كل الآلهة التى يعبدها البشر من دون الله على تعددها واختلاف أنواعها لو اجتمعت على أن تخلق أهون شىء كالذباب فلن تستطيع ، بل لن تستطيع مغالبة هذا المخلوق الهين الضعيف الذى خلقه الله وهو الذباب ، ولفظ الذباب لا يقصد به الجمع ، وانما يقصد به الجنس ، أى لن يخلقوا شيئا من جنس الذباب ولو ذبابة ٠

٤ ـ ولفظ (يسلبهم) من جملة **(وان يسلبهم الذباب شيئا)** ليس مرادا به ظاهره ، فان السلب فى حقيقته هو أخذ الشىء عنوة ، يقال سلبه متاعه اذا انتزعه منه قهرا وغلبة ، والذباب لا ينتزع شيئا بقوة واغتصاب وانما يختطف اختطافا ، وكان يمكن أن يكون تعبير القرآن نحو الاختطاف ، ولكن السياق يهدف الى اثبات عجز الآلهة التى يعبدونها من دون الله ، فكان الأنسب من الألفاظ ما يؤدى معنى أن الذباب أقوى من هذه الآلهة حتى انه يستلب منها ما يستلب عنوة وقهرا ، ويؤيد هذا عجز الآلهة عن استنقاذ ما يستلبه الذباب منهم **(وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه)** ٠

٥ ـ وتأتى فى الآية التالية مباشرة نتيجة هذا ، فى العبرة البـالغة التأثير فى القلوب والعقول ، وهى :

[ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز] (٨)

---

(٨) ٧٤ سورة الحج ٠

ففى هذا رد على الصورتين السابقتين ، صورة ادعاء المشركين أن هناك آلهة غير الله ، فهم حينئذ لا يقدرون مقام الله سبحانه حق قـدره ، وصورة وجود أية قوة ذات قيمة حقيقية بعيدا عن الله ، فان الله هو القوى العـزيز ٠

ولئن كانت السخرية السابقة منصبة على المعبودات المرئية مما يعبده البشر من الآلهة فان القرآن يوجه أيضا سخريته نحو المخلوقات غيـر المرئية مما يعبده البشر ، وهم ابليس وجنوده ، فان من الناس من يضعون أنفسهم تحت سلطان الشياطين ، يأتمرون بأمرهم ، ويخضعون لهم خضوعا مطلقا كخضوع العابد للاله الذى يعبده ، وهذه النوعية من الضلال لم يخل منها عصر ولا مكان فى طـول التاريخ ، وان اختلفت صـور العبادة الخضوع ، ولا زالت هذه النزعة موجودة فى كل أنحاء الأرض ، حتى فى الشعوب التى تزعم أنها لا تنقاد الا للعلم والعقل ، ولا تزال وسائل الاعلام تنشر أخبارا من هذا القبيل لغرابتها ومن آخرها ما هو منشور اليوم عن جمعية تسمى نفسها جمعية الشياطين وهى فى دول الغـرب ، ويتضـمن تحقيق صحفى معتمد على مصادر علمية ورسمية أن أعضاء هذه الجمعية فى أمريكا وكندا لا يقلون عن أربعمائة الف شخص رجالا ونساء ، وأنه وان كانت حياتهم وقوانينهم تتسم بالسرية الا أن طابعهم العام هو الخضوع الكامل لكل ما يستوحونه من الشياطين (٩) ٠

واذن فلم يكتف البشر بأن يعبـدوا من دون الله ما يرون ، فعبدوا ما لا يرون ، وهم يعلمون حينئذ أنهم يعبدون عدوهم الاله ابليس ، والقرآن يسوق هذا المعنى فى تصوير ساخر من العابدين والمعبودين ، فى قـوله تعـالى :

[واذ قلنا للملائكة اسـجدوا لآدم فسـجدوا الا ابليس كان من الجـن ففسـق عن أمر ربه افتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لـكم عدو بئس للظالمين بدلا ، ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ، ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعـوهم فلم يسـتجيبوا لهم وجعلنـا بينهم موبقا] (١٠)

---

(٩) انظر صحيفة الأهرام المصرية يوم السبت ٢٣ يونية سنة ١٩٩٠ الصفحة الثالثة بعنوان (الشيطان أخذ ابنتى) وهى شكوى أم كندية أخذ أعضاء هذه الجمعية ابنتها خريجة الجامعة وضموها اليهم ٠

(١٠) ٥٠ ـ ٥٢ سورة الكهف ٠

وجوهر الصـــورة يتضمن النعى على الذين يتركون عبـــادة الله ليستبدلوا بها عبادة الشيطان المتمثل فى ابليس وذريته متجاهلين أمرين تقوم الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع عليهما أو على أحـدهما ، وهمـا النزعة الدينية ، والنزعة العصبية ، ففى النزعة الدينية الصحيحة كان ينبغى أن يعبدوا الله وحده ، وأى اتجاه دينى غير هذا فهو باطل ، وفى النزعة العصبية كان يتوقع كما فى عرفهم أن يتعصبوا لجنسهم وهو الآدمية ورمزه أبوهم الأعلى آدم ، فلا يعبدوا عدوا لجنسهم ولأبيهم ، فهـــم بعبادتهم الشياطين خرجوا على كل الأعراف الاجتماعية دينيا وعنصريا ، وقد كان ينبغى أن يفهموا أن العبادة لا تكون الا للاله الخالق ، وهو الخالق الأصلى الذى خلق كل شىء فى السموات والأرض ، والشياطين وعلى رأســـهم ابليس لم يخلقوا السموات والأرض لأنها موجودة قبلهم ، فهم لم يخلقوا ولم يساعدوا فى الخلق ، بل لم يشهدوا هذا الخلق أصلا ، فالله سبحانه حين أراد أن يخلق كان وحده ، ولم يكن معه أحـد أو شىء غيره ٠

ولكن سخرية التصوير تتركز فى أكثر من موضع ، منها المشـاهدة فى (ما أشهدتهم) بمعنى أن الله سبحانه حين أراد أن يخلق الســـموات والأرض لم يحضر ابليس وذريته ليشاهدوا هذا الخلق فضلا عن أن يسهموا أو يعاونوا فيه ، وهـــذه المشـــاهدة رغم أنها منفية الا أن نفيها يحتاج بالضرورة الى تصورها فى المخيلة ، واذن فلابد أن ترتسم لها فى الذهن صورة قبل أن تعرض على العقل لنفيها ، ومجرد ارتسام هذه الصـــورة فى ذهن المؤمن بالله يثير فى نفسه استنكارا وغرابة بالغين ، ويكون صدى هذا هو السخرية من هؤلاء المشركين الذين لا يدركون مدى التهكم بهم وبعقولهم حين يشركون الشياطين مع الله ٠

ومن مواضع السخرية صورة (خلق أنفسهم فصورة كونهم يخلقون أنفسهم رغم أنها أيضا منفية الا أنها لابد أن ترتسم فى الذهن حتى يستطيع العقل نفيها ، وارتسام صورة انسان يخلق نفسه أيضا بالغة الغرابة ، بل هى مستحيلة فى العقول ، اذ كيف يصدر الايجاد من غير الموجود ؟ فهـم قبل أن يخلقوا لم يكونوا موجودين ، فكيف يخلقون أنفسهم مع أنهم غيـر موجودين أصلا ؟ وحتى فى صورة المشاهدة يبقى السؤال نفسه قائمـا بكل غرابته واستحالته فى العقول ، وهو كيف يشاهدون خلق أنفسهم قبل أن يخلقوا هم ، أى قبل أن يكون لهم وجود أصلا ؟ وليس هناك ما يدعـو الى تأويل خلق أنفسهم بأن المراد به خلق بعضهم بعضا ، فان هذا التأويل يذهب أهم ما يتضـمنه المعنى وهـو ابراز الغرابة والاستنكار الموجه الى موقف المشركين ، وفضلا عن ذلك فان التأويل نفسه لا يستقيم فى أصــل المعنى وهو مشاهدة أول المخلوقين منهم ، بمعنى أننا اذا افترضنا جدلا أن

بعضهم شاهد خلق البعض الآخر ، فمن الذى شاهد المخلوق الأول منهم ؟ ولكن الذى يستقيم فى العقول أن القرآن يتهكم بعقولهم وموقفهم فى الشرك، وكأنه يقول كان يمكن أن تكون للمشركين وجهة فى الشرك بالشياطين ، لو أن الشياطين كانوا خالقين ، أو معاونين فى الخلق ، أو حتى مشاهدين اياه ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن ، فشركهم اذن باطل ٠

ومن صور السخرية هنا أيضا نفى المعاونة لله فى جملة (**وما كنت متخذ المضلين عضدا**) بمعنى ما كنت لأتخذ المفسدين عونا لى فى الخلق ، وأيضا لابد أن يسبق نفى هذه الصورة ارتسامها فى الذهن ، فلابد أن ترتسم فى الذهن صورة أن الله سبحانه أتى بالمضلين المفسدين ليعاونوه ، حتى يمكن نفى هذه الصورة ، فلا يمكن عقلا نفى شىء قبل تصوره فى الذهن ، واذن فالصورة المنفية لها صورة فى الذهن ، وهذه الصورة تتضمن سخرية فى جانبين ، أحدهما مبدأ استعانة الله بأى أحد أو أى شىء ، فان أى مؤمن لا يستسيغ تصور استعانة الله بغيره ولو افتراضا أو تخيلا ، فحين يصور القرآن هذه الصورة رغم نفيها فانما تحمل على السخرية من المشركين الذين يسرفون فى شركهم حتى كأنهم يدعون وجود هذه الصورة البالغة الغرابة والنكر ، وهى أن الله يحتاج الى الاستعانة بغيره ٠

والجانب الآخر من السخرية فى هذه الصورة أوضح فى السخرية وأعمق ، وهو يتركز فى لفظ (المضلين) فى سياق الاستعانة التى نفاها القرآن ، فاذا كان تصور استعانة الله سبحانه بغيره من حيث المبدأ بالغ الغرابة والنكر ، فان استعانته بالمفسدين المضلين أشد غرابة ونكرا ، لأن الاستعانة بالمفسدين منكرة حين تصدر من أى أحد غير الله ، فكيف بها حين نتخيلها ولو خيالا صادرة من الله ، ونفيها لا يذهب عنها الغرابة ، وانما يحولها من الانكار الى السخرية ، بمعنى أن هذه الاستعانة حين تصدر من شخص حقيقة فانها تستحق الانكار عليها ، ولكن حين ننفيها عنه مع علمنا بأنها لا تليق به يتحول المعنى الى لون من السخرية بالمصدر الذى كان دافعا الى تصوير هذه الصورة المنفية ، وهذا المصدر فى هذه الصورة من القرآن هو عقلية هؤلاء المشركين ٠

ولكن صياغة الفاظ هذه الصورة أعمق بكثير فى دلالتها مما يوحيه ظاهر معانيها ، ومن ذلك :

١ ــ صياغة :

[واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه]

تتضمن ابراز معنيين كان يجدر بالمشركين ادراكهمـــا ، **أولهما** أن ابليس عدو قديم لآدم وذريته ، ولم يكن يحسن بمجتمع الشرك أن يعبده أو أن يتخذه هو وذريته أولياء لهم ، فالعصبية التى تقوم عليها حياة مجتمعهم وحياة كل المجتمعات تأبى الولاء للعدو ، وخصوصا اذا كان عدوا للآباء الذين يكاد المجتمع العربى يقدسهم لمجرد كونهم آباء وأجدادا ، وليس المجتمع العربى وحده هو الذى يقوم على العصبية ، فان العصبية تكاد تكون نزعة فى كل مجتمعات البشرية مهما تكن نوعيتها أو ثقافتها ، فهى فى المجتمعات البدوية تأخذ صورة العصبية القبلية ، وفى المجتمعات الدينية أو الفكرية تأخذ صورة العصبية المذهبية ، وفى المجتمعات المدنية تأخذ صورة العصبيات الحزبية ، أو العصبيات الرياضية أو غير ذلك ، فكل فريق يتعصب لفريقه ، وكل حزب يتعصب لحـــــزبه ، ولكن المشركين حينئذ يخرجون على هذه العصبية فيتولون عدوا لهم ولآبائهم ، وليست هذه الاشارة فى القرآن تأييدا للعصبية أو اقرارا لها ، وانما هى ابراز لشذوذ المشركين حتى عن المنطق المألوف الذى درجوا عليه ٠

وثانى المعنيين اللذين كان يجدر بالمشركين ادراكهما أنهم حين يعبدون الشياطين أو يتخذونهم أولياء لهم بدلا عن الله فانهم بذلك يكونون باحثين عن الدين ومتجهين اليه ، وقد كان هذا يقتضى منهم أن يستخدموا عقولهم فى الرجوع الى المصدر الدينى الأصيل والصحيح وهو الاتجاه الى الله الخالق لا الى المخلوق أيا كان ، وقد كان ينبغى ولو من باب الخلق والوفاء أن يوازنوا بين من كرم اباهم آدم حتى أمر الملائكة بالسجود له وهو الله ، ومن استهان به وتكبر عليه وهو ابليس ، ولكنهم يعكسون كل الموازين ، فينبذون جانب الله ، ويتخذون عدوهم ابليس وذريته أولياء لهم من دون الله [**بئس للظالمين بدلا**]

٢ ــ تعبير (أولياء) فى قوله تعالى :

[أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى]

أعم من العبادة ، بمعنى أن السياق يدل على أن موقف المخاطبين كان شركا بالله وكفرا ، بدليل (**أولياء من دونى**) أى أنهم تركوا الله واتخذوا الشياطين بدلا منه ، وهذا لا يكون الا كفرا وشركا ، وكان المنتظر حينئذ أن يكون التعبير نحو عبدتم الشياطين من دون الله ، أو جعلتموهم آلهة ، ولكن لفظ أولياء فى العرف العربى اصطلاح اجتماعى وليس دينيا ، بمعنى انهم يستخدمون لفظ الولى للسيد وللنصير بصرف النظر عن الموقف الدينى، ولا تعارض بين أن يكون الشخص مؤمنا بالله ويتخذ له وليا قويا من الناس يتناصر به ، أو يحتمى به من الظلم ، وهو عرف شائع عند العرب ، فالقرآن

استخدم لفظ الولاء دون العبادة لتعميم التنفير من اللجوء الى الشياطين ، سواء بعبادتهم ، أو الخضوع لهم ، أو أية صورة من صور الولاء ، لأن الأيسر قد يجر الى ما هو أسوأ ٠

٣ ـ تعبير (بدلا) من قوله تعالى :

[بئس للظالمين بدلا]

يتضمن زيادة النعى على مسلك هؤلاء المشركين وتسفيه موقفهم ، من حيث ان من يبحث عن ولى يتناصر به ويحتمى بقوته فالمفروض أن يختار الأقوى وليس من الحكمة أن يترك الأقوى ليختار مكانه الأضعف ، كما فعل هؤلاء المشركون حين تركوا الاحتماء بقوة الله ، ولجأوا الى ضعف الشياطين يتخذون منه ولاية لهم ، فبئس هذا التفكير و (بئس للظالمين بدلا)

٤ ـ لفظ (شركائى) من قوله تعالى :

[٠٠ نادوا شركائى الذين زعمتم]

فرغم أن لفظ الزعم ينفى صحة الشركة مع الله ، لأنه لا شركاء لله على الحقيقة ، الا أن ذكر الشركاء حين يصدر عن الله سبحانه رغم نفى الشركة لابد أن يثير فى نفس المؤمن لونا من السـخرية بالمشركين ، بمعنى أنه لو قال شخص ان لله شركاء فرغم أن هذا ادعاء باطل عند المؤمنين ، الا أنه واقع عند المشركين بالله ، وما دام واقعا فان العقل السليم لا يجـد غرابة فى تصوره ، وانما تكون الغرابة فى ادعاء صحته ٠

أما حين يتحدث الله نفسه سبحانه عن شركاء له رغم نفى صحة هذا ، فهنا تأخذ الصورة مسار السخرية من المشركين ، خصوصا حينما يحدث تثبيت للصورة المزعومة بلفظ (نادوا) من قوله تعالى :

[نادوا شركائى ٠٠٠]

فان نداءهم يتضمن أنهم موجودون فعلا ، ويؤكد هذا الوجود لفظ (فدعوهم) كل هذا هو محل الطرافة والسـخرية ، ولكن النتيجـة هى الحقيقة ، والحقيقة أنه لا شركاء لله ، ولذلك كانت نتيجة ندائهم ودعوتهم (فلم يستجيبوا لهم) فى قوله تعالى :

[فدعوهم فلم يستجيبوا لهم]

٥ ـ منطوق تعبير :

[وما كنت متخذ المضلين عضدا]

يتضمن نفى الاستعانة بالمضلين المفسدين ، ولكن يبقى مفهوم التعبير فى ظاهره ، حيث يتضمن أنه يمكن الاستعانة بغير المضلين ، كالمرشدين المصلحين ، ومن البداهة عند أى مؤمن أن هذا المفهوم غير مقصود ، فان الله سبحانه ليس فى حاجة الى الاستعانة بأحد أو بشىء اطلاقا ، لا من المضلين ولا من الهادين ولا من غيرهم ، وانما سيق الأسلوب كله مساق الطرافة والسخرية من عقول المشركين الذين كان ينبغى أن يدركوا أنه ما دام الله هو خالق السموات والأرض وما فيهما ، فاذن كل من عداه فى السموات والأرض فهو مخلوق لله، فكيف يستعين الخالق بالمخلوق فى الخلق نفسه ؟ لأن النفى منصب على الاستعانة فى خلق السموات والأرض وخلقهم هم :

[ما اشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق انفسهم]

والسياق يشير الى أن المقصود باشهادهم الخلق هو الاستعانة بهم ، بدليل أن نتيجة المعنى كانت نفى الاستعانة **(وما كنت متخذ المضلين عضدا)**

فالمعنى من الناحية الدينية واضح فى ضوء الايمان ، وهو أن الله تعالى ليس فى حاجة الى أى عون من أى أحد أو أى شىء ، ولكن صياغة التعبير جاءت بهذه الطرافة من باب التهكم والسخرية بعقول المشركين ، لعل هذه العقول تفيق وتدرك ولو شيئا من حقائق الكون ، وبدهيات الخلق ، مما يتناسب مع جلال الله الواحد الذى لا شريك له فى الخلق والملكوت .

وفى صورة أخرى يعمد القرآن الى الجانب النفسى لدى المشركين ، وهو التماس الأمن ، فان أساس النزعة الدينية ، أو ما يسمى بالغريزة الدينية عند البشر سواء المؤمن منهم والمشرك هو الاحساس الطبعى بوجود قوة كبرى مؤثرة بالنفع وبالضرر ، بحيث يرجى منها الخير ، ويخشى منها الضرر ، ومهمة الأنبياء جميعا ليس أن يوجدوا نزعة الدين فى النفوس ، وانما أن يوجهوها الوجهة الصحيحة ، وهى أن هذه القوة تتمثل فى وحدانية الله ، ولكن كثيرا من الناس لا يستجيبون لتوجيه الأنبياء ، فيوجهون غريزتهم الدينية توجيها خاطئا ، حيث يتمثلون هذه القوة التى يحسونها فى الكون فى صنم أو حيوان أو غير ذلك ، سواء اعتقدوا أنه الاله أو الوسيلة الى الاله ، ولكن يبقى الاحساس بأن هذا المعبود هو مصدر النفع والضرر ، ويتلخص احساسهم حينئذ فى اتخاذ هذا المعبود ملاذا

وحماية لهم ، وهذا من أهم ما يحتاج اليه الانسان فى حياته ، فان حاجته الى الأمن حاجة أساسية يقرنها القرآن بالحاجة الى الطعام فى قوله تعالى فى سياق المن على قريش :

[اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف] (١١)

ولجوء المشرك الى عبادة ما يعبد انما هو التماس للأمن النفسى فى حماية هذا المعبود الذى يعبده ·

ولكن القرآن فى مثل هذه الصورة يبدد هذا الوهم الذى يتخيلونه امنا ، حيث يقول تعالى :

[مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثـــل
العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيـــوت لبيت
العنكبوت لو كانوا يعلمون] (١٢)

ومضمون الصورة أن الذين يحتمون بغير الله أشبه بالعنكبوت حين تنسج لنفسها بيتا تظن أنه سيحميها ، بينما هو فى الحقيقة لا يحميها من عدو ، بل ولا يسترها ، فستظل وهى فى بيتها مكشوفة لكل ناظر ، ومعرضة لكل هجـوم ·

وخلاصة المعنى الذى تهدف اليه الصورة هى تأكيد أن احتماء أعداء الله بأية قوة غير الله لن ينفعهم ولن يحميهم كما يتخيلون ·

ولكن صوغ المعنى فى هذه الصورة الساخرة يجعل لها وقعا فى النفوس لا يدانيه وقع أى معنى مجرد ، فلننظر الى التأثير النفسى الـذى يحدثه تصور طائفة من الناس يواجهون أعداءهم فى صراع ، وقد اتخـذوا مجتمعين ، أو اتخذ كل منهم حول نفسه نسيج عنكبوت جعله بيتا أو حصنا يحتمى به من أعدائه ، فكيف يكون منظره وهو داخل هذا النسيج ؟ وكيف تكون نفسيته حين يكتشف أن ما يحتمى به ليس الا بيت عنكبوت؟ وكيف يكون ضحك الناظرين اليه وسخريتهم منه لو أن رساما رسمه فى رسم تعبيرى (كاريكاتير) وهو يحتمى من أعدائه بنسيج عنكبوت ؟ ثم لو تصورنا أن رساما استطاع بمهارة أن يرسم أعداء الله وقد تحصنوا ببيوت العنكبوت ليحتموا بها من مهاجمة المسلمين ، فأية روعة فنية يثيرها هذا التصوير التعبيرى ·

---

(١١) سورة قريش ·
(١٢) ٤١ سورة العنكبوت ·

ومما يلفت النظر فى الصياغة اللفظية للصورة لفظ (أولياء) وذلك من ناحيتين :

١ ــ ناحية الدلالة اللغوية ، فان الأولياء جمع ولى ، والولى فى لغة العرب وكذلك المولى كلاهما لفظ واسع الدلالة ، حيث يطلق على الرب والمالك والسيد والمنعم والمعتق الذى صدر منه العتق وهو السيد ، والمعتق الذى صدر له العتق وهو العبد ، ويطلق على الناصر والمحب والتابع والجار وابن العم والحليف ، وعلى كل من المتعاقدين فى عقد ، والصهر والعبد ، وكل من له ولاية على النفس · وهذا التوسع فى الدلالة من جوانب اعجاز القرآن ، فانه يستخدم ألفاظا فى مواضع معينة لأهميتها ، وهــذه الألفاظ تبدو فى ظاهرها ذات دلالة عادية ، ولكن تأملها يوحى بفيض واسع من الايحاءات الجانبية تصــبح كالهالة المحيطة باللفظ ، ومنها (أولياء) هنا ·

٢ ــ والناحية الثانية أن السياق هو حديث عن المشركين ، والمشركون يتخذون من دون الله آلهة يعبدونها وليس أولياء يتناصرون بهم فحسب ، ولكن القرآن يترك لفظ آلهة الذى كان ينتظر أن يكون عليه التعبير مثــل اتخذوا من دون الله آلهة ، ويعمد الى لفظ الأولياء ليصبح كأنه تنبيه وتحذير من الاعتماد على غير الله ، والاحتماء بأية قوة غير جانب الله ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالعقيدة كالشرك ، أو فيما يتعلق بالسلوك كضعف الايمان الذى يدفع صاحبه الى الاعتماد على أى أحد أو أى شىء غير الله ، فيعتقد أنه مصدر لرزقه مثلا ، أو أن الحيلولة بينه وبينه ستلحق به ضرا أو نحو ذلك ، فلفظ (أولياء) يحذر ضمنا من كل هذا ، ولو كان التعبير بلفظ (آلهة) ما شمل غير الشرك بعبادة آلهة غير الله ، وهو شرك العقيدة ·

فاستخدام لفظ (أولياء) بدل آلهة أو نحوه يشمل العقيدة الدينية ، ويشمل أيضا الصراع والتنافس الدنيوى فى كل ما يتعلق بهذا المجــال ، فمثلا عامة الناس الذين يخشون الدخول فى الدين خوفا من الســـادة والزعماء يشملهم هذا التعبير لأنهم اتخذوا هؤلاء السادة (أولياء) من دون الله ، وأعداء الله من الجماعات والقبائل الذين يحشدون جمــوعهم ليناصروا على الاسلام والمسلمين يشملهم هذا التعبير ، لأنهم يتخذون من هذه القوى (أولياء) من دون الله ، وهكذا كل من يتخذ لنفسه ملاذا يعادى به الله ، أو يبتعد به عن الله ، أو يظن أنه يحتمى به من الله وجنوده فهــو داخل فى التعبير ·

ومن ايحاءات لفظ (أولياء) أن صيغة الجمع فيه توحى بدلالة جانبية ، فان أصل المعنى أن اتخاذ أى ولى أو نصير دون الله أى فى صورة

مغاضبة لله لا ينفع صاحبه ولا يغني عنه شيء ، ولكن صيغة الجمع توحى بانه مهما تعدد الأولياء من دون الله أو تنوعوا فلن ينفعوا فى شيء ، وأنه لو حاول شخص أو حاولت جماعة أن تحشد كل الأولياء والنصراء من دون الله فلن ينفعها ذلك فى شيء ، وهذه البسطة فى الدلالة لا تتحقق فيما لو كان التعبير نحو من يتخذ من دون الله وليا كمثل العنكبوت ٠٠ الخ ٠

ومن دقة تعبير القرآن أنه لا ينعى على ضعف بيت العنكبوت لذاته ، فهو فى ذاته وفى نسيجه وتكوينه غير معيب ، ولكن التركيز منصب على أمر نسبى ، هو المفاضلة بين بيت العنكبوت وغيره من البيوت من حيث القوة ، ولذلك جاء التعبير بصيغة التفضيل فى الوهن (**وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت**) فبيت العنكبوت فى ذاته غير معيب ، ولكن ضعفه بالقياس الى كل البيوت الأخرى ظاهر واضح ٠

وقد يتحدث البحث العلمى عن أن نسيج العنكبوت بوصفه نسيجا ليس ضعيفا ، بل هو شديد المتانة والقـــوة بالقياس الى حجم الخيوط وسمكها البالغ الضآلة والدقة ، وقد يوازن بعضهم بينه وبين مثيله فى الحجم من الحديد ، أو غير ذلك فى هذا المحيط ، ولكن هذا على فرض صحته ٠٠ لا يصطدم بالقرآن ولا يتعارض معه ، لأن القرآن لا يتحدث عن نسيج العنكبوت بوصفه نسيجا وخيوطا ، وانما يتحدث عنه بوصفه بيتا ، فحديث القرآن كله منصب على بيت العنكبوت وليس نسيجه (٠٠ **كمثـــل العنكبوت اتخذت بيتا**) ولم يكن التعبير نحو نسجت بيتا أو اتخذت نسيجا أو خيوطا ، وكذلك كان التعبير (**وان أوهن البيوت لبيت العنكبـــوت**) ، ولم يكن التعبير مثلا وان أوهن الخيوط خيوط العنكبوت ٠

ومن ايحاءات تصوير القرآن أن هذه الصورة مع أنها منصبة على الهـــدف وهو نفى القـــوة والحماية فى تعبير (**وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت**) الا أنها تشير الى جانب آخر له أهمية نفسية كبيرة ازاء أعداء الله ، وهو كونهم مكشوفين غير مستترين ، وأن كل ما يصنعونه من تدبير وكيد مهما ظنوه خافيا أو مستورا فان الله كاشفه ومظهره بحيث يراه كل ذى بصر كما يرى الرائى كل ما فى بيت العنكبوت ، فان شعورهم بأن هناك قوة تراقبهم وتكشف خباياهم فضلا عن أنها تؤكد لهم أن كل ما يصنعونه لن ينفعهم ، هذا سيضعف من قوتهم المعنوية حتى وان لم يكونوا مؤمنين بمصدر هذه القوة وهو الله سبحانه ٠ فيكفى أن يثير هذا شكا فى نفوسهم ، فان الشك أول مراحل الانتقال من موقف الى موقف ، فالذى يعتنق عقيدة الشرك أولى مراحل انتقاله الى الايمان أن يشك فى صحة عقيدته الوثنية ، وكذلك المؤمن حينما يستقر على الشك فى ايمانه استقرارا فان هذا أول مراحل الالحـــاد ٠

وفوق هذا فان من ابرز أهداف مثل هذه الصورة أنها تمثل سلاحا فعالا فى مجال ما يعرف بالحرب النفسية أو المعنوية ، حيث تمنح نفوس المؤمنين قوة وثباتا لشعورهم بأنهم فى حمى أقوى قوة ، وهى قوة الله سبحانه ، وفى الوقت نفسه هى سلاح لتحطيم نفسيات أعداء الله لاشعارهم بأن أية قوة أو حمـــاية غير جـــانب الله انما هى وهم وسراب ، كما تظن العنكبوت أنها صنعت بيتا يحميها ويسترها ، بينما هو لا يحميها من عدو ، ولا يسترها من مستطلع ٠

. . . .

ومن قبيل الأسلحة النفسية التى يصـــوبها تصوير القرآن نحو المشركين هذه الصورة للمشرك :

[٠٠٠ ومن يشرك بالله فكانما خر من السـماء فتخطفه الطيـــر او تهـــوى به الريح فى مكان سحيق] (١٣)

فهذه صورة غريبة لشخص معين ، وغرابتها أن هذا الشــخص فى حال تبعث على الحيرة ، فلا هو فى السماء ، ولا هو فى الأرض ، ولا هو بين السماء والأرض في حال مألوفة ، ولا يعرف مصيره أو مقره ، لأن صورته انه سقط من السماء ، ولكنه لم يصل الى الأرض ليستقر فيها حيا أو ميتا ، وهنا تتفرع الصورة الى منظرين ، أحدهما يمثل المشرك حين يسقط من السماء فيجد أسرابا من جوارح الطير ، نسورها وصقورها ، تتلقفه فتنقض عليه وهو ما زال هاويا من السماء فتمزقه أشلاء ، ثم تتخطف الطير هذه الأشلاء فتلتهمها ، فيتحول الى غذاء فى أجوافها ، ولا يبقى منه شيء يصل الى الأرض ، والمنظر الثانى يمثل المشرك أيضــا هاويا من السماء ، فيجد عواصف عاتية من الريح تتلقفه ، فتتناوشــه قاذفة اياه كل مقذف ، وتظل الريح من عتوها تتقاذفه فلا يستقر فى مكان حتى يصــادفه مهـــوى ســحيق فينحدر فيه حيث لا ريح ولا حيــاة ولا أحد يستطيع الوصول اليــه ٠

والصورة فى مجموعها ، وفى كلا منظريها تبرز أكثر من وضع لهذا المشرك ، ومن أوضح هذه الأوضاع عدم الاستقرار فى مدة الهبـــوط ، وسوء العاقبة فى النهاية ٠ فأما عدم الاستقرار فى حين الهبوط فيكفى فى

(١٣) ٣١ سورة الحج ٠

الدلالة عليه عدم وجود مقر له لا فى السماء ولا فى الأرض ولا فيما بينهما، لا حيا ولا ميتا ، وأما سوء العاقبة فيكفى فيها سوءا أن يتحول الى طعـام فى جوف الطير ، أو أن تتقاذفه العواصف حتى تهوى به الى مكان سحيق، وبطبيعة الحال سيكون حينئذ أشلاء متناثرة ، وما أسوأ العاقبة فى كلا الحـالين ٠

وحين نتأمل التشبيه الذى انبنت عليه الصورة فى المنظرين تبـدو دقة تصوير القرآن وعمق دلالته ، فان السماء رمز لجانب الله سبحانه ، كما فى القرآن :

[وفى السماء رزقكم وما توعدون] (١٤)

بمعنى عند الله رزقكم وما توعدون ، والله سبحانه لا يحل فى زمان ولا مكان ولا هيئة ، ولكن السماء جعلت رمزا لجانبه ، فالذى يسقط من السماء هو الذى ينفصل عن جانب الله بالكفر أو الشرك ، والذى ينفصل عن الله لا يعلو أبدا ، وانما يهبط بنفسه ومنزلته وعقليته ، فيصبح وضـعه كتعبير القرآن :

[ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء]

وكذلك نهاية هذا المشرك بالله ستكون فى الآخرة بالغة السوء ، وانه وان كان عذاب الآخرة لا يقاس به شىء من عذاب الدنيا أو آلامها فان أقرب صورة نسبية لعذاب الآخرة هى ما عبرت عنه هذه الصورة من نهـاية هذا المشرك ، فاذا كانت نهاية المشرك فى الآخرة أسوأ نهاية ، فان نهاية هذا الذى خر من السماء أسوأ فى المنظرين كليهما ، وليست هناك بشاعة فوق أن يجد شخص نفسه وسط أسراب من جوارح الطير تنهش من جسده ولا يملك دفاعا عن نفسه ، وانما يملك أن يعانى من بشاعة الموت البطىء تحت وطأة هذا التقطيع من جسده حتى تفيض روحه ، أو أن يجد شخص نفسه والرياح تعصف به ، والأرض تتقاذفه وهو يعانى بشاعة اصطدامه بكل ما يقذف اليه ، ثم تحوله الى أشلاء قبل أن يستقر فى المهوى السحيق، ووجه الشبه بين نهاية هذا الذى خر من السماء ، ونهاية المشرك فى الآخرة أن كلا منهما يتعرض لأسوأ أو أبشع ما يتخيله العقل من نهاية ٠

وقد كان يمكن أن يصاغ المعنى فى كل ذلك بالأسلوب المجرد الذى لا تصوير فيه ، وقد صيغ فعلا فى القرآن فى أساليب متعددة ، ولكنـــه هنا نجده مصورا فى هذه الصورة الساخرة من المشركين ، والتى تصور كلا منهم كأنه ريشة معلقة فى الهواء ، ليس له وزن أو كيان أو استقرار ،

---

(١٤) ٢٢ سورة الذاريات ٠

كما قد يخيل اليه هو ، وكما قد يخيل الى الناظرين اليه والى مكانته بين الناس فى الدنيا ان كان من ذوى الجاه والسيادة ، فالحقيقة أنه ضائع هائم ، لا مقر له فى مكان أو وضع ، وفى هذا المعنى جانب نفسى يمثل نفسية المشرك لو استخدم عقله ، فان أيسر تفكير سيجعله يعانى من الحيرة والقلق والضياع الروحى ، لأن الشرك لا يستقيم فى أى عقل سليم ، ومادام لا يستطيع أن يتوصل فى وضعه الدينى الى حال يقتنع بها عقله ، فسيشعر بالحيرة ثم الضياع ، ولو استخدم عقلا سليما قويما فلابد أن يشعر بانه فى حيرته وقلقه وضياعه أقرب ما يكون الى تصوير القرآن ، ولو وصل الى قلبه شعاع من ايمان لأيقن كما ايقن كل الذين أضاء الله بصائرهم فانتقلوا من الشرك الى الايمان أن هذه الصورة التى يرسمها القرآن انما تمثل الراقع النفسى والواقع المصيرى للمشرك :

[ومن يشرك بالله فكانما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق]

وبعد هذا يمكن لكل متأمل أن يدرك مدى التأثير النفسى الذى يحدثه القرآن فى موقف جبهة الشرك ، هذا التأثير الذى يصل الى كل فرد فى هذه الجبهة فيملأ نفسه اضطرابا وحيرة وقلقا ، ويكفى أن يدفعه شىء من هذه العوامل الى استخدام عقله ليفكر فى مدى صحة موقفه فى الشرك ، ومدى صدق الايمان الذى يدعى اليه ·

وحيث كان الايمان والشرك جبهتين متصارعتين ، فما أضعف جبهة الشرك حين يكون أفرادها فى هذا الوضع المنهار ، وما أقوى جبهة الايمان بثبات أفرادها على اليقين ·

سخرية القرآن وكيد أعداء الله :

كان أعداء الله ورسوله فى مكة جبهة واحدة ، هى جبهة الشرك المعروفة ، ولكن حين انتقل مركز الاسلام الى المدينة تعددت جبهات العداوة للاسلام ، حيث انضمت الى جبهة الشرك جبهتان أخريان ، هما جبهة اليهود ، وجبهة النفاق ، والروايات تشير الى أن أعتى صور العداوة التى كان المسلمون يحسبون حسابها فى جبهة الشرك تتمثل فى قبيلتين من كبريات قبائل العرب ، هما بنو أسد ، وبنو غطفان ، ولكن الحقيقة التى تستشف من خلال كل الروايات أن اليهود كانوا هم مركز العداء للاسلام والمسلمين ، سواء بصفة ظاهرة ، أو من وراء ستار ، حيث كانوا يمثلون مدرسة النفاق فى المجتمع العربى ، فانه وان كان الاستعداد للنفاق يمثل نزعة وشذوذا فى التكوين البشرى يمكن أن يوجد فى كل عصر وكل بيئة

الا أن مزاولته تحتاج الى تدريب وخبرة وعمق تدبير ، واليهود كانوا ولا زالوا هم أساتذة هذا المجال فى أى مكان يحلون فيه ، والروايات التى تحدثنا عن النفاق فى المدينة لا تخلو دائما من الاشارة الى ارتباط هؤلاء المنافقين باليهود ، وكذلك الروايات عن أسد وغطفان وما كان بينهم وبين اليهود من تواصل وترابط ·

وليس هذا الحديث مقصودا لذاته ، وانما يعنينا منه بوصفه من الملابسات المحيطة بتصوير القرآن أن الاسلام كان محاطا بعداوات متنوعة ، بالغة العمق والضراوة وكل حرب خفية أو علنية لابد لها من قادة يديرونها، وكان قادة هذا الصراع ضد الاسلام يصبون بطبيعة الحال كل غيظهم وحقدهم على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفه قائد جبهة الاسلام وحده ، وأنه لو انهزم فستنهار كل جبهته ، فكل أمانيهم مرتكزة على هذا الأمل ، أمل أن يروه مهزوما مدحورا ، ولكنهم يفاجأون بأنه منتصر ، فيزداد غيظهم وحقدهم اشتعالا ·

فيأتى القرآن فيصور هذا الموقف النفسى منهم فى هذه الصورة البالغة السخرية :

[من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ] أ (١٥)

اللغة : السبب : الحبل ، والكيد : التدبير ، والسماء : كل ما عـلا فوق الأرض ·

ومضمون الصورة أنه من كان ينتظر أن يرى رسول الله مهزوما مخذولا فغاظه أن يجده منتصرا ، فاذا أراد أن يذهب ما فى نفســه من الغيظ ، فهناك طريقة تذهب غيظه وتشفى نفسه مما يضطرم فيها من حقد وغل وغيظ من رسول الله ونصره ، وهذه الطريقة تحتاج الى عزيمة قوية ينبغى أن تكون فى هذا المغيظ ، وحسن اعداد ودقة تقدير فى تنفيذها ، وهى أن يأتى بحبل متين ، ثم يصعد الى أعلا ، فيربطه فى السقف باحكام ، ثم يصنع من هذا الحبل مشنقة ، ويستوثق من احـــكام هذه المشنقة وصلاحيتها لقطع النفس والخنق القاتل ، وبعد ذلك يضع رأسه وعنقـــه فى هذه المشنقة ، ثم يتدلى بها حتى ينقطع نفسه ويختنق ويموت فعلا ، ثم عليه بعد ذلك أن يتأمل ويرى هل تحقق ما يريد من اذهاب غيظـه ؟ وهل أجدت هذه الطريقة فى تحقيق هذا الأمل الذى يتمناه ؟

---

(١٥) ١٥ سورة الحج ·

ومن الواضح أن هذا انما هو سخرية واستهزاء ، وذلك من وجوه منهـــا :

١ ــ ان القرآن لا يريد أن يذهب عنهم الغيظ حتى يرشدهم الى طريقة تبعده عنهم ، بل يريد أن يزيدهم غيظا · فارشادهم الى هذه الطريقة ليس على سبيل الحقيقة ، وانما هو من باب السخرية ·

٢ ــ ليس من المألوف أن المغيظ مهما كان غيظه حينما يحاول اذهاب الغيظ عن نفسه يفكر فى الموت ليذهب عنه الغيظ ، وقد يفكر بعض الناس فى الموت أو يتمنونه ، ولكن ذلك لا يكون بسبب الغيظ ، وانما لكراهية الحياة نفسها ، والمغيظ هنا لم يكره الحياة ، وانما يكره وجود الغيظ فى نفســـه ·

٣ ــ ومن وجوه السخرية أن الذى يرسم خطـــة أو يدبر مكيدة انما يفعـــل ذلك ليـرى نتيجتـه ، والـذى يقتـل نفســـه لا يبـقى ليـــرى نتيجة أى شىء فى الدنيا ، فارشادهم الى طريقة لاذهاب الغيظ ، تكون هذه الطريقة هى موتهم ، فليس هذا من باب الحقيقة حتى لو افترضنا شـخصا يريد تنفيذها ، لأنه سيموت ، ولا يبقى ليرى هل ذهب الغيظ عنـــه أم لم يذهب ؟ وانما هو من باب قوله تعـالى :

[قل موتوا بغيظكم] (١٦)

٤ ــ ومن وجوه السخرية تسمية هـــذه الخطة بالكيد ، ونسبة الى المغيظ نفسه (هل يذهبن كيده ما يغيظ) وكأن المغيظ نفسه هو صاحب هذه الخطة التى سيقتل بها نفسه ، من حيث انه هو الذى سينفذها عالما بأنهـا ستقتله ، والفاعل للكيد انما يفعله ليستفيد منه ويحقق من ورائه هدفا له ، ولا يفعل كما يفعل هذا المغيظ ليقتل نفسه ·

والقرآن فى أسلوبه الذى يصوغ به مثل هذه الصورة يسير على نهج معروف ومتداول بين عامة الناس وخاصتهم ، فان وضوح المعانى وشيوع تداولها يجعل لها أحيانا فى النفوس وقعا وتأثيرا لا تبلغه المعانى والصور الجديدة التى تحتاج الى كد وجهد فى الفكر لتذوقها وتفهمها ·

ومن قبيل الشائع فى الأساليب بين الناس حينما يصدر من شخص ذى قوة عمل أو شىء ، وهذا الشىء لا يعجب بعض الناس ، فيقول هـــذا الشخص (من لا يعجبه هذا فليشرب من البحر) أو (فليضرب رأسه فى الحائط) أو نحو ذلك من اختلاف فى الألفاظ مع اتفاق المعنى ، فالشرب

(١٦) ١١٩ سورة آل عمران ·

من البحر ، أو ضرب الرأس فى الحائط لا يحقق لمن يفعلونه هدفا ، ولايذهب عنهم غيظا أو سخطا ، بل يزيدهم ألما ، لأن شرب الماء المالح شديد الايذاء للنفس ، وكذلك ضرب الرأس في الحائط شديد الايلام ٠

وهذه الصورة فى القرآن من هذا القبيل ، فان هدفها أن يفهم أعداء الرسول ودينه أنهم مهما فعلوا فلن يغيروا من ارادة الله وسنته ، بل ان ما يفعلونه سيزيدهم أيذاء وضرا ٠

واستخدام القرآن الأسلوب الشائع بين الناس ليس غريبا ولا خافيا ، بل لحظه علماء التفسير وعلوم القرآن كالروماني (١٧) والامام الرازى(١٨) وكذلك فى بحوث أخرى (١٩) فهم يلحظون أن القـــرآن يهدف دائما الى الوصول الى القلوب بكل الوسائل المؤثرة والمباشرة ، ومنها هذا الأسلوب الذى يمثل أقصر الطرق الى القلوب والعقول ، لأنه لوضــوحه وتداوله لا يحتاج من العقول الى جهد أو كدح ٠

على أن هذا المعنى الذى تضمنته الصورة تكرر فى القرآن فى سياق الحديث عن نصر الله رسله وحمايتهم من كيد الكائدين ، بل يرد الله كيـد الكائدين ضدهم الى نحورهم ، ومن ذلك الحديث عن الرهط الذين دبروا مكيدة ضد رسولهم صالح عليه السلام ، حيث تقاسموا بالله ليقتلنه وأهله فى غلس الليل ، ثم ينسلون فلا يشعر بهم أحد حتى لا يطالبهم قرابة صالح بثأره ، ولكن الله لم يمكنهم من رسوله ، وانما دمرهم ودمر قومهم أيضا ، ففى القرآن الكريم عن هذه القصة :

[وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاســموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقــولن لوليه ما شـــهدنا مهلك أهله وانا لصـــادقون ، ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشــعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيــوتهم خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون] (٢٠)

---

(١٧) انظر النكت فى اعجاز القرآن للرمانى (مجموعة ثلاث رسائل فى اعجاز القرآ) ص ٧٩ ٠

(١٨) انظـر تفسـير الامام الرازى كتفسـير قوله تعـالى (ختم الله على قلوبهم) ٧ سورة البقرة ٠

(١٩) انظر اسلوب السخرية فى القرآن للمؤلف ٣٩٩ ٠

(٢٠) ٤٩ ـ ٥٣ سورة النمل ٠

والسخرية فى هذه القصة تتركز فى قوله تعالى :

[كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين]

فقد كان مكرهم لتدمير صالح وأهله ، ولكن سخرية القرآن تجعل الأسلوب يوحى كأن مكرهم كان بقصد تدمير أنفسهم وقومهم ، لأن القرآن يسوق الحديث عن مكرين ، مكر هؤلاء الرهط ، ومكر الله سبحانه :

[ومكروا مكرا ومكرنا مكرا]

فكان ظاهر السياق يقتضى أن يكون التعبير أن عاقبة مكرهم كانت تشلهم فى تحقيق ما يريدون ونجاة صالح وأهله ، وأن عاقبة مكر الله سبحانه تحقيق ما أراد الله من نجاة صالح وهلاك الكائدين له ، ولكن أسلوب التهكم والسخرية يقلب النتيجة فيجعلها كأن الرهط كان هدفهم من مكرهم أن يهلكوا أنفسهم ، فتحقق لهم ما يريدون ، بل زيادة فى نجاح مكرهم أهلكوا معهم قومهم (دمرناهم وقومهم) ، ولو كان التعبير نحو كان جزاء مكرهم أنا دمرناهم ، فان لفظ الجزاء يجعل الأسلوب أسلوب حقيقة مجردة لا طرافة فيه ولا سخرية كما فى لفظ (عاقبة مكرهم) .

ووجه التلاقى بين أسلوب هذه القصة ، وأسلوب الصورة التى نحن معها وهى صورة الذى يشنق نفسه ليذهب عنها الغيظ ، أن الذين اغتاظوا من صالح أرادوا اذهاب غيظهم بقتله فكانت نتيجة ما أرادوه أسوأ من غيظهم حيث كانت هلاكهم ، وكذلك المغتاظون من محمد اذا أرادوا اذهاب غيظهم فان النتيجة ستكون أسوأ عندهم من الغيظ وهى الهلاك .

ومن هذا القبيل أيضا ما جاء فى قصة فرعون وموسى ، حيث ان فرعون التقط موسى الرضيع ليكون مدعاة سرور له ولزوجه حيث يتخذانه ولدا ، ولكن تعبير القرآن عن ذلك كان :

[فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا] (٢١)

وكأن فرعون حينما التقطه كان مقصده من الالتقاط أن يتخذ هذا الطفل عدوا ومصدرا للحزن ، وفرعون بداهة لم يقصد هذا ، وانما قصد عكس هذا أن يكون هذا الطفل مصدر سعادة ، وليست هناك ضرورة لما يلجأ اليه علماء البلاغة وعلماء التفسير من التأويل ، بل ان تأويل الأسلوب لاخراجه عن مدلول صياغته الظاهرة يذهب أهم ما يحمله التعبير من طرافة السخرية والتهكم بفرعون وقصده .

---

(٢١) ٨ سورة القصص .

وتبقى سنة الله متواصلة فى حماية رسله من كيد الكائدين ، وفى رد كيد الكائدين الى نحورهم ، كما رد الله الكيد الذى كان أعداء رسـول الله صالح يدبرونه له الى نحورهم هم، وكما رد الله كيد فرعون لرسول الله موسى الى نحر فرعون ، وكذلك كيد المغيظين من انتصار رسول الله محمـد والمتمنين له الهلاك لن يذهب ما فى نفوسهم الا بأن يحيق بهم كيـدهم وغيظهم ·

وقد تكرر فى القرآن كثيرا الحديث عن كيد أعداء الله ومكرهم ، ولكن كيدهم دائما يواجهه من الله ما يسميه القرآن كيدا ومكرا ولكنه أشد من مكرهم وأعتى ، كقوله تعالى :

[وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا] (٢٢)

وكقوله تعـالى :

[وأملى لهم ان كيدى متين] (٢٣)

وقوله تعـالى :

[أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون] (٢٤)

وقوله تعـالى :

[فان كان لكم كيد فكيدون] (٢٥)

ومما يلفت النظر هذا التأكيد الذى يؤكده القرآن ، والذى يؤيده واقع الحياة عن أن كل تدبير سيىء لا يضر الا صاحبه ، وكثير من الأمثال والحكم العامية تعبر عن هذا ، ومن ذلك فى القرآن :

[وما يمكرون الا بانفسهم] (٢٦)

وقوله تعـالى :

[ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله] (٢٧)

---

(٢٢) ٤٢ سورة الرعد ·
(٢٣) ٤٥ سورة القلم ·
(٢٤) ٤٢ سورة الطور ·
(٢٥) ٣٩ سورة المرسلات ·
(٢٦) ١٢٣ سورة الأنعام ·
(٢٧) ٤٣ سورة فاطر ·

ولكن صياغة هذه الصورة عن الذين يغيظهم نصر رسول الله لا يقف ايحاؤها عند هذه الحدود ، بل انها تطوف حول نفسية أعداء الله وتتغلغل فى أعماقها ، كما يقول تعالى :

[ولقد خلقنا الانســــان ونعلم ما توسوس به نفســه] (٢٨)

فكان لكثير من ألفاظها ايحاءات خاصة فوق دلالتها اللغوية العامة ، ومن هذه الألفاظ :

١ ـ لفظ (يظن) من جمــلة (من كان يظن أن لن ينصره الله) فان السياق على أن المراد به الاعتقاد والأمل القوى وليس مجرد الظن ، فان الظن وحده لايصل بصاحبه الى هذه الدرجة من الغيظ حين يفاجأ بعكسه، وانما يصل الى هذه الدرجة ما يعرف فى علم النفس بالاحباط الذى يتمثل فى أن يكون لدى الانسان أمل قوى فى شىء فيفاجأ باعتراض عقبة أو انتكاسة فى هذا الأمل ، فلا حدود حينئذ لما يحدثه الاحباط فى كيان صاحبه نفسيا أو جسديا ٠

وقد يقال حينئذ : فلماذا عدل اذن فى القرآن عن لفظ الاعتقاد أو نحوه الى لفظ الظن ؟ (من كان يظن ٠٠) والجواب أن هذا الموقف مرتبط بالعقيدة وهى الايمان ، فالمؤمن لا ينبغى أن يكون لديه شك فى وعد الله بنصر رسله بالصورة التى يريد الله أن يكون عليها النصر ، ماديا أو معنويا ، فهـو يعتقد على وجه اليقين فى صدق وعد الله ، فاذا نزل هذا اليقين الى درجـة الظن كان خللا فى الايمان ، والنعى فى الصورة التى نحن معها منصب على المشركين ، ولكن لفظ (يظن) يجعل كل من لا يعتقد فى صدق وعد الله اعتقادا فينزل الى درجة الظن فهو داخل فى هذا النعى ولو كان يدعى الايمـــان بالله ، أو يعد نفسه من المسلمين ٠

٢ ـ لفظ (الآخرة) فى جملة (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة) يشير الى أن المغيظين من نصر رسول الله ممن تعنيهم هذه الصورة ليسوا من المشركين ، وانما من أهل الكتاب ، لأن المشركين لـم يكونوا يعترفون بالآخرة أو بالبعث بعد الموت كما تحدث القرآن عن ذلك كثيرا ، وانما الذين يعتقدون فى الآخرة هم أهل الكتاب : اليهود والنصارى، وهذه الآية مما نزل فى المدينة ، ولم يكن للنصارى فى المدينة أو ما حولها

---

(٢٨) ١٦ سورة ق ٠

كيان أو وجود ، فاذن لا يدخلون فيمن عنتهم هذه الصورة ، وانما الـذين كان لهم كيان ووجود هم اليهود ، بل كانوا يمثلون فيما يعرف فى اصطلاح الحروب (غرفة العمليات) التى تدار منها الحروب المتنوعة ضد الاسلام والمسلمين ٠

٣ ـ لفظ (السماء) من جملة (**فليمدد بسبب الى السماء**) فلاشك أن المراد بالسماء هنا مطلق العلو ، كما يعرف بعض علماء اللغة السماء بأنها كل ما علاك ، ولابد أن يكون العلو حينئذ سقفا فى أى صورة حتى يمكن أن يربط فيه السبب وهو الحبل ، لأنه لا يتصور أن يربط الحبـــل فى فضاء ، واذن فالمراد فليمدد بسبب الى علو أو سقف ، ولكن تعبيـر القرآن يتجاوز مثل هذا الى لفظ السماء ليكون فيه أيضا أكثر من ايحاء ، ومن ذلك أنهم مهما فعلوا ، ومهما كان لديهم من امكانات ولو طاولوا بها السماء فلن يردوا نصر الله لرسوله ، ومن محيط هذا أن فرعون ببلوغه ما بلغ من امكانات جعلته يقول لوزيره :

[يا هامان ابن لى صرحا لعلى ابلغ الأسـباب ، اسباب السموات فاطلع الى اله موسى] (٢٩)

مع كل هذا لم يستطع فرعون أن يحول دون نصر الله لرسوله موسى، هذا فضلا عما يوحيه لفظ السماء من التوجيه الى التفكير فى عظمة ملكوت الله ، فكيف يعجز صاحب هذا الملكوت سبحانه عن نصر رسله وحمايتهم ؟ وكيف يستطيع أحد أن يغالبه أو يدبر كيدا ومكرا ضده ؟

ولفظ (ما) فى جملة (**ما يغيظ**) مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر تقديره الغيظ ، ويكون المعنى هل يذهبن كيـــده الغيظ الذى يجـده فى نفســه ؟

وحيث كانت السخرية فى الصورة السابقة منصبة على الحاقدين على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فهى ليست السخرية الوحيدة فى القرآن ، بل هى نموذج لسلاح نفسى يبرزه القرآن للدفاع عن رسول الله، فمن الواضح أن الرسول هو المبلغ عن الله ، وهو القائد للمسلمين ، فمــن المنتظر أن يصب عليه أعداء الاسلام كل حقدهم وعداوتهم ، وأن يوجهوا اليه كل ما يملكون من اسلحة العداء ، وقد رأينا فيما سبق ما وجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من سخرية الأعداء واستخفافهم ٠

---

(٢٩) ٣٦ سورة غافر ٠

وقد تولى القرآن الرد على سخريتهم من رسول الله وحقدهم عليه ، كما رأينا فى الصورة السابقة ، وفى صورة أخرى تكررت فى القرآن نجد هذا التصوير ٠

[يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ٠٠] (٣٠)

وتكرار هذه الصورة فى قوله تعـالى :

[يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ٠٠] (٣١)

ومما يوحى بأن المراد بنور الله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه عقب كل من الآيتين السابقة تتكرر آية بنصها وهى :

[يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون]

وفى آية سورة الصف أيضا :

[يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كـره الكافرون ، هو الذى أرســـل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركـون]

فتكرار التعقيب بذكر رسول الله بعد كل منهما يكاد يؤكد أن المقصــود بنور الله الذى يريدون اطفاءه هو رسول الله ، وخصوصا وأن ذكر رسول فى الآيتين يأتى فى صيغة تتضمن المعنى المسوق فى الآيتين ، فالمعنى أنهم يريدون اطفاء نور الله ، والصيغة المتضمنة ذكر رسول الله فى الآيتين تعنى أن الله أرسل رسوله بما يدعو اليه من نور الايمان ، لا لينطفىء هذا النور، وانما ليكون هو الحق البين الظاهر فى كل العقول ، ولا غرابة فى أن يكون المقصود بنور الله هو رسول الله ، بل ان القرآن يصفه صراحة بهذا فى قوله تعـالى :

[يأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا] (٣٢)

---

(٣٠) ٣٢ سورة التوبة ٠

(٣١) ٨ سورة الصف ٠

(٣٢) ٤٦ سورة الأحزاب ٠

وجوهر السخرية فى الصورة يتركز فى لفظ أفواههم حيث يستخدمونها لاطفاء نور الله ، والصورة مبنية على تشبيه الهداية الدينية بالهداية الحسية فالهداية الحسية أساسها أن الأصل فى معيشة الانسان أنه فى ظـلام ، ولولا وجود الشمس لم يكن هناك نهار ، ولأصبحت الحياة ظلاما وليلا دائما ، كما أن الضوء اليسير الذى نجده فى الليل ، والذى يمكن أن يعين على تبين الطرق ، وعلى تحديد المرئيات الكبيرة الحجم انما سببه الضوء المنبعث من الكواكب الى الأرض ، ولولا هذه الكواكب لأصبحت الحياة فى الليل سكونا كاملا ، حيث لا يستطيع أحد أن يتحرك ، لأنه لا يرى شيئا من حوله ، والقرآن ينبه كثيرا الى تأمل هذه الحقائق الواضحة ، ومن آثار الشمس فى حكمة خلقها أن نور النهار يختفى عند اختفائها ، لأن نور النهار هو نور الشمس ، كما أن من آثار الكواكب فى حكمة خلقها أنه حينما يحول حائل دون وصول ضوئها الى الأرض كالسحاب يتحول الفضاء الى ظلام دامس لا يستطيع أحد أن يرى فيه شيئا على الاطلاق ، والناس يستعينون على حياتهم فى الليل بما يصنعونه من مختلف السرج والمصابيح ، ولكنها مصابيح البشر لأنهم صانعوها ، أما مصباح الله الذى لم يباشر أحد شيئا فى صنعه فهو الشمس ، فنور الله الحسى اذن هو الشمس التى تهـــدى الناس الهداية الحسية فى حياتهم المعيشية ، وفى القرآن :

[وجعل الشمس سراجا] (٣٣)

أما الهداية الدينية فهى مشبهة بالهداية الحسية ، من حيث ان الكفر بكل ألوانه انما هو ظلام روحى وعقلى ، فالذين يعيشون فى الكفر انمـا يعيشون فى هذا الظلام النفسى ، والدين هو النور الذى يضىء لهم حيـاتهم العقدية والخلقية كما تضىء لهم الشمس حياتهم الحسية والمعيشية ، وقد أرسل الله اليهم رسولا يحمل هذا السراج الذى يضىء لهم حياتهم المعنوية والنفسية فى كل جوانبها ٠

وهنا تأتى السخرية فى تصوير القرآن موقفهم من السراج الـذى يحمله رسول الله ، فقد كان المفروض أن يسعدوا بأن أهدى الله اليهم نورا يضىء لهم حياتهم المعنوية كما أهدى اليهم نورا يضىء حياتهم الحسية ، ولكنهم يرفضون هذا النور رفضا ، ولم يكتفوا بدرجة الرفض ، وانما كأنهم يرون هذا النور ليس ضوءا ونورا ، وانما هو نار يخشون أن تحرقهم ، وأن ينتشر حريقها فيدمرهم ويدمر كل شىء معهم ، فأسرعوا يحاولون اطفـاء هذا المصدر كمن يحاول أن يطفىء نارا توشك أن تحيط به ٠

---

(٣٣) ١٦ سورة نوح ٠

ولكن جوهر السخرية ليس فى محاولة الاطفاء ذاتها ، وانما فى طريقة الاطفاء ، حيث انهم حاولوا اطفاء نور الله بالطريقة التى يطفئون بها مصابيحهم ، ومن المعروف أن مصابيحهم كانت تتمثل فى شعل ضئيلة تضاء بالزيت ، فكل سراج هو خيط يوضع رأسيا فى وعاء به زيت ، بحيث يكون أسفل الخيط متصلا بالزيت ، ويشعل أعلاه ، ويظل الزيت ساريا فى الخيط الى أعلى ليكون وقودا لشعلة المصباح ، وهكذا يستضيئون بنـور المصباح ما بقى الزيت ، فاذا أرادوا اطفاء السراج نفخ أحدهم فى شعلة المصباح فتنطفىء ، فجوهر السخرية أنهم أرادوا أن يطفئوا سراج الله كما يطفئون سرجهم بأفواههم ، وقد كان ينبغى أن يدركوا الفارق فى السرج الحسية بين سراج الله وهو الشمس ، وسرجهم وهى مصابيح الزيت ، ولكنهم سووا بين الاثنين ، فراحوا يحاولون اطفاء سراج الله كما يطفئون سرجهم ، بالنفخ بأفواههم ٠

ورسول الله بما يحمله من دين الله هو سراج الله ، وقد كان ينبغى أن يدركوا أنه ما دام من الله فلن يغالب ، ولن يســتطيع أحد اطفاء نوره كما لا يستطيع أحد اطفاء نور الشمس ، ولكنهم بلغ بهم خطل الرأى وسوء العقل أن يظنوا أنه كمصابيحهم أو كأحوالهم هم ، فأخذوا يحاولون النفخ فيه ، وكأنهم وجدوا أن نفخ شخص واحد لا يجدى ، فتجمعوا من حـوله وهم ينفخون بأفواههم فيه ليطفئوه ٠

ولنتأمل هذه السخرية البالغة بهم حين تتصورهم مجتمعين حــول نور الله وهو الشمس ، ولكنه هذه المرة صادر عن رسول الله وليس عن الشمس الحسية ، فكأن رسول الله بما يحمــل من دين الله شمس ، وهم متجمعون حولها جميعا ، وكلهم ينفخ بكل ما أوتى من قــوة لعـل هـذه الشمس تنطفىء ، ولكنها لا تنطفىء ، لأن المخلوقات جميعا لو اجتمعت وظلت تنفخ فى شمس السماء فلن تطفئها ، فكذلك النور الذى يحمله رسول الله ، هو نور الله ، ولن يستطيع أحد أطفاءه ٠

وليست السخرية فى محاولة الاطفاء لذاتها ، فلو كان التعبير أنهـم يريدون أن يطفئوا نور الله بدون ذكر الأفواه لكان تعبيرا بيانيا بديعا ، ولكنه لا يتضمن سخرية ، لأن الذهن قد يتجه الى تصور وسائل كثيرة أخرى يريدون بها أن يقبروا هذا الدين ويمنعوا وصول هدايته الى الناس ، ولكن الطريف هو تصورهم وهم مجتمعون حول رسول الله ينفخون فى النور المنبعث منه ليطفئوه ٠

وكل محاولاتهم فاشلة ، وكل نفخهم جهد ضائع ، لأن تعقيب الله سبحانه على كل جهدهم هو :

[ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون]

وأيضا فى سورة الصف :

[والله متم نوره ولو كره الكافرون]

واذا تأملنا دقة تعبير القرآن نجد فيما تتضمنه صياغة هذه الصورة ما يأتى :

١ ـ التعبير يتضمن كأنهم يعترفون ضمنا بأن ما يجاهدون ضده هو نور حقيقة ، ولكنهم يريدون اطفاءه . فان نفخهم بأفواههم يعنى أنهم يحسون أن ما ينفخون فيه هو نور حقيقة ، ولو كانوا يعتقدون أنه ليس نورا لم يكن يعقل أن يحاولوا اطفاءه ، لأنه لا وجود له حينئذ حتى يطفئوه .

٢ ـ من الدقة البالغة أن الآية المتضمنة للسخرية مختومة بلفظ (الكافررون) بينما الآية التالية والمتضمنة وعد الله باظهار دينه مختومة بلفظ (المشركون) فى قوله تعالى :

[يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويابى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون]

وتكررت هذه الملحوظة نفسها فى سورة الصف أيضا ، فيما يعنى أن الذين يحاولون اطفاء نور الله هم من الكافرين ، وأن وعد الله لابد أن يتحقق فى ظهور دين الله بمعنى نصره على المشركين ، فقد يقال اذن فلم كانت هذه التفرقة فى التعبيرين ؟

والجواب أن من أبرز جوانب الاعجاز فى القرآن هو دقته التى لا تكاد تحيط بتفاصيلها العقول ، وخصوصا فى الاشارات والايحاءات التى توحيها دلالات الألفاظ ، مع عدم التناقض أو الاختلاف مهما تباعدت اماكنها فى القرآن ، كما يقول تعالى :

[أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا] (٣٤)

---

(٣٤) سورة النساء .

وفيما يعنينا هنا فان لفظ الشرك يطلـــق على من يشرك مع الله فى عبادته أى معبود غيره ، وأما الكفر فهو أعم من الشرك ، حيث يطلق على كل من لا يحمل عقيدة دينية صحيحة ، سواء أكان باشراك معبود مع الله أم بانكار دين الله أو شىء من أسسه ، ولكنه عادة يطلق على أهل الكتـــاب اليهود والنصارى ٠

والسياق هنا يشير بوضوح الى أن الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم هم من أهل الكتاب ، سواء فى الآيات السابقة للصورة الساخرة من سورة التوبة ، أو من سورة الصف ، ففى سورة التوبة قبل الصـــورة الســـاخرة :

[وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصـــارى المسيح ابن الله ٠٠٠] (٣٥)

وكذلك فى الآية التالية لها والسابقة للصورة الساخرة مباشرة :

[اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم] (٣٦)

فالحديث صريح عن اليهود والنصارى ، ثم عنهم أنفسهم تأتى آية السخرية **(يريدون أن يطفئـــوا نور الله ٠٠٠)** وكذلك فى سورة الصف كان الحديث فى السياق عن أهل الكتاب ، ولكنه عن اليهود بصفة خاصة ، وفى قوله تعـــالى :

[واذ قـــال عيسى ابن مـــريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول ياتى من بعدى اسمه أحمـــد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ، ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدى القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون] (٣٧)

فالحديث فى الآيات السابقة واضح عن اليهود وتكذيبهم بما يأتى به الرسل ، وخصوصا بشارة المسيح بمجىء محمد بعده ، وفى هذا السياق

---

(٣٥) ٣٠ سورة التوبة ٠

(٣٦) ٣١ سورة التوبة ٠

(٣٧) ٤ ــ ٩ سورة الصف ٠

يأتى تعبير (**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ..**) وكأنهم كانوا يعلمون من المسيح بأنه سيأتى بعده نبى اسمه أحمد ، فلما جاء حاولوا أن يطفئوا نوره بأفواههم .

وإذن فالسياق يدل على أن المراد بالذين يحاولون اطفاء نور الله بأفواههم اليهود والنصارى ، وبصفة خاصة اليهود ، ولكن الله يتحداهم بقـــوله :

[**والله متم نوره ولو كره الكافرون**]

فحرب أهل الكتاب وخصوصا اليهود للاسلام كانت حربا موجهة الى الدين نفسه بالتشكيك فيه ، والسخرية منه ، وانكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كان رد الله سبحانه عليهم (**والله متـم نوره ولو كـره الكافرون**) أما حرب المشركين فهى حرب مواجهة بالعنف والقوة العسكرية، ولذلك كان رد الله سبحانه عليهم :

[**هو الذى أرسل رسوله بالهـــدى ودين الحق**
ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون]

والظهور هو العلو والانتصار ، سواء اكان انتصارا عسكريا أم معنـــويا .

٣ ــ مجىء الحديث عن رسول الله فى تعبير (**هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق**) بعد الحديث عن محاولة اطفاء نور الله يتضمن كمـا سبق أن المراد بالنور رسول الله بما يحمل من الهداية والدين ، ومن دقـة التشبيه أنه يتضمن تشبيه رسول الله بالمصباح ، والهدى ودين الحــق الذى يحمله هو النور الذى يخرج من المصباح ، وهم لا يهمهم المصـــباح لذاته ، وانما يهمهم النور الذى يخرج ويشع منه ، فهم يركزون كل جهدهم فى اطفاء النور الذى يشع منه ، ولو انطفأ النور من المصباح لم تعـــد للمصباح حينئذ فائدة ، وتطبيق هذا عمليا أن اليهـــود كما تفيض بذلك الروايات كانوا لا يدخرون جهدا فى تشويه الاســـلام والتشكيك فى كل ما يقوله الرسول ، وتكذيب أنه مرسل من الله ونحو ذلك ، ليصرفوا الناس عن اتباعه ، فاذا انفض عنه الناس والاتباع لم يكن له تأثير ، ويصبح كأن نوره الدينى قد انطفأ .

ومن خلال تجمع كل هذه الملحوظات وغيرها يمكن القـــول ان هذه السخرية موجهة نحـــو اليهود بالذات ، فهم من أهل الكتاب (الكافرين) وليسوا من العرب (المشركين) كما أنهم بحكم أنهم أهل دين وكتاب يعرفون الدين والتشريع ، فهم يحسون فى نفوسهم أن ماجاء به محمد صلى الله

عليه وسلم دين ، ولكنهم لا يريدون هذا الدين لعوامل نفسية لديهم ، وهذا من مضمون أنه فى محاولتهم اطفاء نور الله كأنهم لا ينكرون أنه نور حقيقة ولكنهم يريدون اطفاءه ولن ينطفىء ما دام المصباح موجودا وهو محمد ، وما دام الزيت وهو الوحى متصلا به ، وهذا مصدر نقمتهم وحقدهم على رسول الله ·

وحيث كان اليهود أشد الناس عداوة للأديان السماوية والمبلغين اياهم وهم رسل الله ، وبخاصة الاسلام ورسوله ، كما جاء فى القرآن عنهم:

[لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود
والذين أشركوا ···] (٣٨)

ومع أن المراد بالمؤمنين أتباع محمد وهم المسلمون ، الا أن اطلاقه يوحى بعدائهم لكل المؤمنين من كل الأديان وفى كل العصور ، والواقع التاريخى لليهود يؤكد هذه الحقيقة ، لذلك فان القرآن جعل لهم نصيبا من سخريته ، كما فى الصورتين السابقتين ·

وفى صورة أخرى يسخر القرآن من حصونهم التى تحصنوا بها ويصفها بأنها صياص فى قوله تعالى :

[ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا
وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ،
وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من
صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون
وتأسرون فريقا] (٣٩)

والآية الأولى نزلت فى شأن الأحزاب الذين تجمعوا من قبائل وأنحاء عديدة ، وكان لليهود دور كبير فى تجميعهم وتأليبهم ضد المسلمين ، ولكن الله ردهم فاشلين خائبين كما هو معروف فى قصة الأحزاب ، حيث كانت هذه الجموع هى الأحزاب ، وبعد فشل الأحزاب وتفرقها بدأ الخوف يسيطر على اليهود من بنى قريظة الذين كان ضلوعهم واضحا فى تجميع هذه الأحزاب وتأليبها ضد المسلمين ، وتوقعوا أن يتجه المسلمون اليهم لعقابهم واتقاء شرهم ، فتحصنوا فى حصونهم ، وأغلقوا هذه الحصون عليهم ·

ولكن الله أرغمهم بقوة المسلمين على النزول من هذه الحصون

---

(٣٨) ٨٣ سورة المائدة ·
(٣٩) ٢٥ ، ٢٦ سورة الأحزاب ·

ليكونوا فى قبضة المسلمين • أما سخرية القرآن منهم فى هذا الموقف فتتركز فى لفظ واحد هو (صياصيهم) فتشبه السخرية حصونهم بالصياصى •

والصياصى فى لغة العرب جمع صيصة ، والصيصة عندهم تستعمل فى عدة دلالات ، منها قرن الثور ، وقرن الوعل ، يقال لكل منهما صيصة ، ومنها الشوك الناتىء حول أرجل الديكة كأنه القرون الصغار ، يقال لكل منها صيصة ، ومنها شوك النساجين الذى يمشطون به النسيج ، ومنها الجذور والأصول ، يقال جذ الله صيصته ، أى قطع أصله •

وقد كان التعبير العادى المتوقع فى القرآن وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من حصونهم ، ولكن لفظ الحصون ترك ليحل مكانه لفظ صياصيهم ، والعربى الخبير بكل دلالات ألفاظ لغته سواء فى قبيلته أو فى القبائل القريبة حين يسمع فى القرآن أن الله أنزل اليهود من صياصيهم تتوارد على ذهنه ولو فى عجلة كل الدلالات التى يعرفها عن الصيصية ، واذا هو حينئذ لا يجد ذهنه محصورا فى حصون حربية منيعة ذات شكل وصفات معينة ، وانما يجد فى ذهنه عن القوة التى تحصن بها اليهود أرجل ديكة ونتوءات فيها ، وقرونا لحيوانات ، وشوكا لنساجين ونحو ذلك مما يتبدد معه أى أثر للحصون وقوتها ومنعتها ، وهو هدف القرآن من هــذه السخرية ، حيث ان القرآن يريد أن يبين لأعداء الله أنهم مهما تحصنوا من قوة الله وجنوده فهم مكشوفون ، وأن كل ما يظنونه قوة تحميهم فانما هو وهم لا ينفعهم فى شىء ، ولا يغنى عنهم شيئا •

وكل دلالات الصيصية يكاد يجمعها شىء واحد هو أنها ظاهرها قوية ولكنها فى حقيقتها ضعيفة ، فأقواها وهو القرون تبدو قوية مخيفة ، ولكنها عند مهاجمة حيوان مفترس اياها لا تنفع ولا تغنى عن صاحبها شيئا ، وكذلك ما حول أرجل الديكة من نتوء يبدو قويا ، ولكنه لا ينفع صاحبه عند حاجته الى القوة ، وهكذا حصون أعداء الله اليهود كانت فى ظاهرها قوة يحتمون بها ولكنها أمام قوة الله وجنوده كأنها سراب •

ولكن الصورة الساخرة تتمثل فى تصور أعداء الله وقد اتخذوا لأنفسهم صياصى يحتمون بها من المسلمين كالقـــرون مثلا ، وقبعوا فى أماكنهم وقد هيأوا أنفسهم لملاقاة المسلمين بهذه القرون ، يصدونهم بها ، واذا أسود الاسلام يهاجمونهم ، وأعداء الله أعلم بحال أى حيوان مهما كانت قرونه أو صياصيه حين يهاجمه أسد ، فان قرنيه حينئذ لا يغنيان عنه فتيلا ، وكذلك حال حصونهم التى تحصنوا بها من المسلمين ، بل ان الرعب الذى يصاب به أى حيوان حينما يجد نفسه فى مواجهة أسد ، حتى ان الرعب يشل حركته فيعجز عن أية مقاومة ، هو ما أصاب أعداء الله حين هاجمهم المسلمون ، كما وصف القرآن :

[... وقذف فى قلـــوبهم الرعب فريقا تقتلون
وتأسرون فريقا]

أى أن الرعب شل حركتهم عن أية مقاومة فاستسلموا لكم تفعلون بهم ما فعلتم من قتل الرجال وأسر النساء والأطفال ، وهى صـــورة استسلام الفريسة حينما تجد نفسها فى قبضة الوحش ، ولا فائدة لقرنيها حينئذ ، كما لا فائدة لحصون أعداء الله حينئذ .

فى النفور من الدعوة الى الله

ومن تكرار القول أن مهمة الرسل جميعا تنحصر فى الدعوة الى الله بالحسنى ، فليس من مهمتهم اكراه أحد على الدين ، بل وليس من شأنهم أن يلبى الناس دعوتهم أو لا يلبون ، لأن الهداية من عمل الله وتوفيقه وحده . وكل هذا له نصوص صريحة عديدة فى القـــرآن ، وليس ما يدعو الى الاستطراد فى ذكرها ، كما أن أصل الدين الذى يدعو اليه كل الرســل وهو عبادة الله الواحد واضح فى العقول ، بل وموجود فى غريزة البشر، فيما يعبر عنه فى البحث العلمى بغريزة التدين ، وفى التعبير الدينى بالفطرة ، حيث يولد الانسان ولديه احساس فى طبيعته بالقوة الالهية فى الـكون .

واذن فدعوة الرسل الناس الى الله ليست غريبة فى العقول ، وليست فيها لذاتها تضحية أو خسارة حتى ينفر منها الناس .

ولكن الناس ينفرون من دعوتهم الى الله نفورا شديدا ، ومهما تكن العوامل الدنيوية ، أو الملابسات الاجتماعية ، أو المصالح الشخصية ، فان ذلك لم يكن ليبيح للناس ان ينفروا من دعوتهم الى الصراط القويم ، وممن يريد أن يردهم الى فطرتهم السليمة ، ولكنهم ما ان يسمعوا دعوتهم الى الله حتى يلغوا عقولهم الغاء ، واذا هم نافرون جامحون فى نفورهم .

والقرآن يصور فى أساليب عديدة متنوعة نفورهم واعراضهم وعدم استجابتهم للدعوة اليه فى كل العصور ، ومنها عصر محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذى يعنينا هنا هو ما صيغ بأسلوب السخرية .

فمن الصور الساخرة لنفورهم هذه الصورة :

[فمالهـــم عن التذكرة معـــرضين ، كأنهم حمـــر
مستنفرة ، فرت من قسورة] (٤٠)

والتذكرة بمعنى التذكير والمراد الهداية الى الله ، والحمر جمـــع حمار ، ومستنفرة بمعنى نافرة ، وقرىء بفتح الفاء فتكون بمعنى منفرة ، أى أن أحدا نفرها ، والمراد بها الحمر الوحشية ، والقسورة الأسد أو

---

(٤٠) ٤٩ ـ ٥١ سورة المدثر .

الصائد ، وتعبير (مالهم) فى أول الآيات استفهام بمعنى لماذا يعـرضون وهم بهذا الشكل ؟

والسخرية البالغة فى هذه الصورة واضحة ، فان أصل المعنى لماذا ينفرون من الدعوة الى الله هذا النفور الشديد ؟ ولكن الأسلوب لو جـاء على مثل هذا النحو فلن تكون فيه سخرية أو طرافة تصوير ٠

أما الطرافة التى تستحوذ على مشاعر كل متذوق لأسلوب القرآن ، فهى أن القرآن يصورهم فى صورة قطيع من الحمر الوحشية بالذات ، لأن الحمر الأهلية أليفة لا تنفر من الناس ، أما الحمر الوحشية فمعـــروفة للعرب فى بيئتهم الصحراوية بسرعة العدو والنفار الشديد من الناس ، لأنها بغريزة الحيوانات الوحشية وخبـرتها تحس أن الانســـان يسعى لصيدها ، وهى من الحيوانات المأكولة اللحم عند العرب ٠

فالصورة الفنية فى القرآن كأن هناك قطيعا من حمر الوحش يرعى أو يشرب ، ففوجىء بظهور مصدر خطر عليه كأسد أو صائد ، فاذا هـو مذعور ينطلق بأقصى ما يملك من سرعة ، والذعر الشديد لا يتيح له فرصة التجمع حينئذ ، وانما ينطلق كل حمار فى وجه ، لا يلوى على شىء ، ويظل بهذا الشكل حتى يختفى عن الأنظار ٠

وتتركز السخرية فى أن القرآن يشبه أعداء الله فى نفورهم من الدعوة الى الله بهذا القطيع ، فما أن سمعوا الداعى الى الله حتى فروا هاربين ، كل منهم منطلق الى وجه من وجوه الأرض بأقصى ما يملك من قوة وسرعة ، وكأنهم قطيع من حمر الوحش ، وكأن الداعى الى الله أسد فاجأ هذا القطيع فاذا هو مذعور منطلق بأقصى سرعته ٠

والحقيقة الحسية أنهم لم يفروا فرارا من الدعوة الى الله، لا مسرعين ولا غير مسرعين ، وانما رفضوا هذه الدعوة ثم قاوموها ، ولكن القرآن يريد أن يسخر من رفضهم ونفورهم من الدعوة الى الدين فيصورهم بهـذه الصورة التى تثير الضحك من حالهم ، والتهكم بموقفهم ، لعل هذه السخرية تدعوهم الى التفكير واستخدام العقول ، وتدعو الذين لم ينفروا بعد من هذه الدعوة الى تحاشى أن يضعوا أنفسهم فى هذا الوضـــع الذى يثير السخرية منهم ٠

وقد يبدو تصوير القرآن لنفورهم شديد المبالغة ، موغلا فى المجاز ، ولكننا لو تأملنا الناحية النفسية نجد تصوير القرآن يكاد يكون أسلوب حقيقة وليس مجازا ، ذلك أن نفورهم فى داخل نفوسهم من الداعى الى

الله نفور شديد ، يشبه نفور الحمر الوحشية من الأسد ، ويعدهم عنه يشبه محاولة بعد الحمر عن مصدر الخطر ، فالسخرية اذن ليست من النفور أو من محاولة البعد ، لأن هذا فى داخل نفوسهم حقيقة ، ولكنها فى اظهار ما فى داخل نفوسهم ، والباسه ثوب الحس والحركة الظاهرة للعين الباصرة ، ثم كونه فى هذه الصورة المزرية بأصحابها ، لأن هـذا الذعر والهروب بتلك السرعة ، وعـدم التأنى لادراك حقيقة ما ينفرون ويهربون منه ، كل هذا ليس حالا عادية ، ولا تليق بالعقلاء ، وانما هى حال البهائم التى تستخدم حواسها وغرائزها دون عقول ، كما تفعل الحمر الوحشية ، وكل الذين ينفرون من دعوة الدين فى أى مجتمع وأى عصر قديما أو حالا أو مستقبلا ينطبق عليهم هذا التصوير ٠

ومن دقة دلالات الألفاظ فى الصورة ما يأتى :

١ ـ لفظ (التذكرة) وان كان مقصودا به الهداية الى الله ، الا أن صياغته الحرفية توحى بأنه تذكير بشىء منسى أو مغفل عنه ، لأن التذكير انما يكون لشىء معروف ولكن صاحبه نسيه أو غفل عنه فنحن نذكره تذكيرا ، ولكننا لا نوجـد له علمـا لم يكن موجـودا بهـذا الشىء ، و (التذكرة) فى الصورة توحى بهذا ، وهى حقيقة ، لأن الذى يدعوهم الى الايمـان وهو الرسول انما يذكرهم بالفطرة التى فطروا عليها ، والغريزة الدينيـة المركوزة فى طباعهم ، فهو لا ينشىء شيئا جديدا ، وانما يذكرهم بشىء فى طبيعتهم نسوه وغفلوا عنه ، فكيف يبلغ بهم النفور والفرار منه الى هذه الدرجـة ؟

٢ ـ تعبير (مالهم) ؟ فى بدء الصورة استفهام بمعنى لماذا هم معرضون عن تذكيرهم بالله ؟ والاستفهام بطبيعته سؤال يحتاج الى اجابة، وكل اجابة تحتاج الى تفكير ، وهذا واضح ، فان أى سؤال لابد من حاجته الى اجابة ، وكل اجابة ولو كان السؤال بدهيا لابد لها من تفكير مهما صغر التفكير ، وهذا ما يهدف اليه القرآن ، حيث يلحظ كل متأمل فى القرآن أنه يعتمد كثيرا على صوغ معانيه وخصوصا فيما يتعلق بالعقيدة فى صورة أسئلة ، لا ليطلب منهم اجابة له ، وانما ليدعوهم الى اسـتخدام عقولهم فى الاجابة عن هذه الأسئلة ولو فيما بينهم وبين أنفسهم ، وهـــذا المنهج نفسه وهو الاعتماد على الأسئلة وخصوصا فى المعانى الهامة نجده فى أسلوب الحديث النبوى ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أقرب الناس فهما لمنهج القرآن والتأسى به ، فضـــلا عن أنه أمام البلغـاء وأعرفهم بأنسب الأساليب للوصول الى الهدف ٠

فالسؤال وهو (ما لهم ...) ؟ مع لفظ (التذكرة) ينتج هذا العجب المثير للحيرة فى الأجابة ، فان هذه الصياغة تجعل المعنى يصبح كأنه يسال : لماذا ينفرون من الداعى هذا النفور ؟ مع انه لا يطلب منهم شيئا ، ولا يدعوهم الى عمل شىء ، وانما يذكرهم مجرد تذكير بشىء موجود فيهم ، ولكنهم نسوه وغفلوا عنه ؟

٣ ـ لفظ (حمر) جمع حمار ، والمراد الحمر الوحشية كما يدل لفظ (مستنفرة) والجمع يعنى الكلام عن قطيع من الحمير ، وليس عن حمار واحد ، والصورة فى مجموعها تصور الفزع الذى ينتاب قطيعا من حمر الوحش حينما يفاجئه أسد ، فيفر مذعورا كل حمار ينطلق بأقصى سرعته الى أى وجه يصادفه ، والذى نريد أن نصل اليه من الدلالة الخاصة لاختيار لفظ الحمر دون غيره أنه يمكن أن يثار سؤال ، وهو أن الفزع من الأســد أو الصائد ليس مقصورا على الحمر الوحشية ، بل كل الحيــوانات غير المفترسة هى فريسة للحيوانات المفترسة ، وتفزع منها فزع الحمر ، فلماذا لم يشبه نفورهم بنفور قطيع أو سرب من الغزلان مثلا حين يفاجئها خطر ؟ فانها ستفعل ما تفعله الحمر ، والجواب أن اختيار الحمر لذاتها عنصر أصيل فى التشبيه ، فان الحمار يضرب به المثل فى الغباء ، ولهذا اختير لتشبيههم به دون غيره ، وذلك لأن نفورهم ممن يدعوهم الى خيرهم دون أن تصيبهم منه شر هو غاية الغباء والحماقة ، فلا يناسبهم فى التشبيه حينئذ الا ما يضرب به المثل فى الغباء وهو الحمار .

٤ ـ لفظ (مستنفرة) بمعنى أنها نافرة ، وهى حمر الوحش ، والنفور هو الفرق بينها وبين الحمر الأهلية التى لا تنفر من الناس ، ولكنه لو جاء التشبيه بالحمر الأهلية أو الحمر مطلقا فان التشبيه يدل على الغباء فقط ، بينما الهدف ليس اثبات الغباء وحده لهم ، وانما الغباء مع شدة النفور ، وهذا لا يتحقق الا فى الحمر الوحشية التى هى (مستنفرة) بكسر الفــاء اى من طبيعتها فى بيئتها النفور ، وقرىء بفتح الفاء أى أن هناك من نفرها وهو مصدر الخطر الأســـد أو الصائد ، والنتيجة فى كلتــا القراءتين واحـــدة .

والصورة الواقعية فى التشبيه لها دلالة، والصورة الواقعية هى تفرق الحمر حين تفر من مصدر الخطر ، فهى لا تهرب مجتمعة ، وانما ينطــلق كل فرد فى الوجه الذى يليه من الأرض ، وهذه الصورة يراد تشبيههم بها فى أثناء الفرار ، أى أنهم لا يكونون حينئذ مجتمعين على رأى أو حجة يستندون اليها فى فرارهم واعراضهم عن الدعوة الى الدين ، فهم يفرون لذات الفرار ، ويخافون من الدعوة الى الله لذاته ، وليس لأن لهم حجــة

تجمعهم أو يستندون اليها ، وكل منهم له هدفه الشـــــخصى ، وموانعه الاجتماعية ، وليس هناك عقيدة أو رأى منطقى يجمعهم كمـــا يجتمـــع المؤمنون مثلا على عقيدة ورأى وحجة واحدة ٠

والفرار من الدعوة الى الله سنة ملتزمة عند الناس فى كل العصور والبيئات ، وما من نبى دعا قومه الى الله الا ونفروا منه ، كما يؤكد القرآن ذلك فى أساليب عديدة متنوعة ، كلها ينبىء ويؤكد الاعراض عن دعـــوة الأنبياء ورفضها والسخرية منها ، وتسفيه الدعاة اليها ٠

وها هـــــو ذا نوح عليه الســـــلام الذى لبث يدعو قومه ألف سنة الا خمسين عاما فى أجيال متعاقبة يؤكد تلك الحقيقة ، والقرآن يعرض شكوى نوح الى الله من نفور قومه من دعوته ، فيصوغ هذه الصورة :

[قال رب انى دعـــوت قومى ليلا ونهارا ، فـــلم يزدهم دعائى الا فرارا] (٤١)

فالمعنى العام أن دعوته المستمرة اياهم الى الله لم تزدهم الا رفضا اياها ، ولكنهم لم يفروا على الحقيقة فرارا حسيا ، لأن الفرار هو الهروب فى سرعة وعجلة ، ونوح لم يكن مصدر خوف لهم حتى يهـــربوا منه ، والدعوة بلسانه لا تخيف أحدا حتى يهرب ويجرى منها ٠

ولكن القرآن يريد أن يصورهم فى صورة ساخرة ، وكأنهم ما ان سمعوا نوحا يدعوهم الى الله حتى ولوا هاربين ، وأخذوا يجرون بأقصى سرعة ، ونوح وراءهم يكرر دعاءه ، وكلما سمعوا دعاءه ازدادوا سرعة فى الجرى والهروب ، ويظلون هكذا نوح يدعوهم بلسانه الى الله ، ولكن مجرد دعوته بلسانه تملؤهم فزعا وهلعا ، فيزدادون سرعة فى الفـــرار ، وهكذا تستمر هذه الصورة وكأنها ثابتة ، نوح يزداد اصرارا على دعوته وعلى تكرارها ، وهم يزدادون حرصا على الادبار وسرعة الفرار ٠

ومما يلفت النظر من دقة ألفاظ الصورة :

١ ــ تعبير (دعوت قومى) حذف فيه متعلق الفعل ، والأصل دعوت قومى الى الايمان بالله ، ولكن المتعلق حذف فلم يصرح بأنه دعاهم الى ماذا؟ ومع أن المحذوف واضح فى السياق ، فكل دعوة نوح هى الى الله الا أن الحذف يدعم السخرية منهم ، حيث يصبح المعنى فى ظاهره كأنهم يفرون هذا الفرار الشديد بدون سبب للفرار ، لأن نوحا حينئذ كأنه لم يدعهم الى

---

(٤١) ٦ سورة نوح ٠

شيء ، لا الى ايمان ، ولا الى عمل ، ولا الى أى شيء ، اللهم الا أنه يناديهم ليأتوا اليه ، وحينما يأتون اليه قد يخبرهم لماذا هو يناديهم ، لأن التعبير لم يذكر صراحة الى أى شيء يدعوهم نوح ، فيصبح الدعاء فى معنى النداء، فكأنهم يفرون من مجرد النداء دون أن يعرفوا سببا يفرون منه ، وهذه سخرية واضحة أن تتصور شخصا ينادى شخصا آخر فاذا المدعو ينطلق فارا بأقصى سرعته دون أن يكون هناك سبب لفراره ·

فقد كان المنتظر من قـــوم نوح ألا يفروا ، وانما يذهبون الى نوح ليشرح لهم ما يدعوهم اليه ، ومن حقهم أن يحاوروه ، وأن يستوضحوا منه ما ليس واضحا فى أذهانهم ، ونحو ذلك من سلوك العقل والحكمة ، ولكنهم يسلكون مسلكا لا عقل ولا حكمة فيه ، وهذا ما تهدف اليه سخرية القرآن منهم فى هذا التعبير ·

٢ ــ الاستثناء فى تعبير (فلم يزدهم دعائى الا فرارا) يعيـــد الى الذهن طبيعة الاستثناء ، وهى أن يكون فيه مستثنى منه ، ومستثنى ، وهنا حذف المستثنى منه ، وقد نوجز تقدير المستثنى منه المحذوف فنقول ان الأصل فلم يزدهم شيئا الا فرارا ، ولكن لفظ (شيئا) المقدر يحتاج فى الذهن الى توضيح من خلال السياق ، بمعنى أن يكون المعنى نحـــو فلم يزدهم دعائى فهما أو تأملا أو رجوعا أو أى شيء الا شيئا واحدا هــو الفرار ، وهنا تزداد السخرية منهم وضوحا ، فكأنهم لا يحسنون شـيئا من العقل أو التأمل أو الصلاحية لأى شيء الا للفرار ، ولو كان التعبير نحو فلم يزدهم دعائى الا رفضا أو عنادا أو كفرا لما كانت فيه سخرية ، لأن معنى هذا أنهم وقفوا وفكروا رغم أنه تفكيـــر خاطىء ، أو واجهوا الداعى بالرفض ، أو نحو ذلك مما يجعل لهم كيانا ووجها من وجوه المسالك الآدمية رغم أنها خاطئة ، أما صورتهم فى تعبير القرآن فليس فيها أى وجه من وجوه الآدميين فى سلوكهم ، وانما هو مسلك الحيوانات العجماء حين يفاجئها خوف وذعر لاتقوى على مواجهته فلا تفعل شيئا ســـوى الفـــرار ·

ومن الواضح أن الحديث وان كان عن قوم نوح الا أنه ينطبق على كل من يصمون آذانهم عن دعوة الدين فى أى مجتمع وأى زمن ·

وفى صورة أخرى من صور نفورهم واعراضهم عن الدعوة الى الله ، نجد عن قوم نوح هذه الصورة على لسان نوح عليه السلام :

[وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا ··] (٤٢)

(٤٢) ٧ سورة نوح ·

والتصوير الساخر فى(**جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم**) وهما فى الواقع صورتان وليس صورة واحدة ·

فأما الصورة الأولى فهى (**جعلوا أصابعهم فى آذانهم**) والسخرية فيها من وجهين :

١ ــ أحدهما وضع الأصابع فى الآذان لذاته عند سماع أية دعوة ، فليس من المألوف ، ولا من سلوك العقلاء ، ولا حتى السفهاء أنه حينما يسمع الانسان شخصا يناديه أو يدعوه الى أى شىء أن يضع أصابعه فى أذنيه ، فقوم نوح بداهة لم يضعوا أصابعهم فى آذانهم حقيقة حينما سمعوا دعاء نوح ، وانما هو أسلوب مجاز ، كما تصف شجاعا فى أسلوب بيانى بأنه أسد ، فهو ليس أسدا حقيقة ، وانما تريد أن ترسم له فى ذهن السامع صورة أسد ، وقوم نوح لم يضعوا أصابعهم فى آذانهم حقيقة ، وانما هى سخرية من شدة رفضهم سماع دعوة نوح أو تأمل مضمونها ·

٢ ــ لفظ (الاصابع) فى ظاهره يوحى بصورة شديدة السخرية منهم، لأن الذى يريد أن يصم أذنيه عن السماع ، لا يضع أصبعه كلها فى أذنه ، وانما يضع أنملته ، أو على وجه الدقة طرف أنملته ، ولكنه لو قيل انهم وضعوا أناملهم فى آذانهم لم يكن فيه من السخرية ما فى تعبير (أصابعهم) أما تعبير القرآن بأصابعهم فيتضمن أنهم لم يكتفوا بوضع أطراف أناملهم ، ولا بوضع أناملهم كلها فى آذانهم ، وانما أدخلوا أصابعهم كلها فى آذانهم حتى لا يتسرب شىء من دعوة نوح الى أسماعهم ، وتصوير أن أصابعهم كلها داخل آذانهم تصوير بالغ الغرابة والسخرية ·

هذا مع أنه واضح أن المعنى المراد فى الصورة هو رفضهم الشديد للاستماع الى نوح ، ولكن السخرية هى فى صياغة أسلوب هذا الرفض ·

وأما الصورة الثانية فهى (**واستغشوا ثيابهم**) حيث انها صورة مستقلة فنيا عن الصورة السابقة ، بمعنى أن صياغتها تجعل لها لذاتها كيانا تصويريا شديد السخرية من قوم نوح ·

فان الصورة تتضمن كأنهم لم يكتفوا بوضع أصابعهم فى آذانهم ليحولوا بينها وبين السماع ، وانما أرادوا أيضا أن يعطلوا حاسة البصر زيادة على تعطيلهم حاسة السمع ، فهم يرفضون سماع الدعوة ، ويرفضون أيضا رؤية مصدر الدعوة وهو نوح عليه السلام ، حتى لا يعلق بذهنهم أو يصل الى نفوسهم شىء اطلاقا يذكرهم بهذه الدعوة ، فهم يريدون فى هذه الصورة أن يغطوا عيونهم ، وقد كان يمكن أن يغطوها بأيديهم ، ولكن أيديهم

مشغولة بصم آذانهم ، حيث وضعوا أصابعهم فيها ، فلا يستطيعون أن يجمعوا بين صم الآذان وتغطية الأبصار بأيديهم فى وقت واحد ، فلجأوا الى أقرب وسيلة لديهم وهى ثيابهم التى يلبسونها فألقوها على وجوههم لتمنع أبصارهم من الرؤية ، وتصبح كأنها غشاوة على عيونهم تحول بينها وبين الرؤية بتعبير (استغشوا) فهى من باب قوله تعالى :

[ختـــم الله على قلوبهم وعلى ســـمعهم وعلى أبصارهم غشاوة] (٤٣)

ومن دقة التشبيه فى الصورة الاشارة الى الغشاوة على العيون دون العمى ، لأن الغشاوة على العين درجة أقل من العمى ، فان العمى هو فقدان حاسة البصر أصلا ، أما الغشاوة فهى كأن البصر موجـود فى أصله ، ولكن هناك حائل بين العين والشىء المرئى وهو الغشاوة ، بحيث لو زال هذا الحائل من أمام البصر فانه سيرى المرئيات أمامه ، وهذا هو واقع الكافرين فعلا ، فان عقولهم موجودة فيهم ، ويمكن أن يدركوا بها الدين الحق اذا اســتخدموها ، ولكنهم وضــعوا تقاليدهم وأهواءهم ومنافعهم المباشرة أمام أعينهم فمنعوا عقولهم من الادراك والتفكير السليم فى الدين ، ولو أنهم أزالوا هذه العوائق الاجتماعية والشخصية من أمام أعينهم لأصبح الحق واضحا أمامهم ٠

ومن دقة التشبيه أيضا أن الاستغشاء بالثياب أى وضع الثياب على الوجوه أمام الأعين لا يمنع الرؤية فى العادة منعا كاملا كالعمى ، وانما يظل الشخص حينئذ يرى ولو بصيصا من النور أو شيئا كالأشباح خلف الثوب ، وتطبيق هذا على الكافرين أنهم مهما حاولوا أن يضعوا أمام عيونهم من أنواع الغشاوة فلا يستطيعون أن يحولوا بين شعاع من الدين وبين الوصول الى نفوسهم ، فسيظل الدين رغم كل ما يفعلونه يلاحقهم فى داخل نفوسهم ولو فى صورة شك أو ظن أو احساس غامض ، ومن هنا تكون مسئوليتهم أنهم فى كل الأحوال يحسون بالدين ، وقد كان عليهم أن يستخدموا عقولهم فى البحث ، وفى محاولة تبين الحق ، ولو بالحـوار المنصف الهادف الى الوصول الى الحق ، ولكنهم يحاولون قتل هــذا الاحساس بالدين ٠

ومما توحيه دقة ألفاظ هذه الصورة :

١ ـ تعبير (لتغفر لهم) من جملة **(وانى كلما دعوتهم لتغفــر لهم جعلوا أصابعهم ٠٠٠)** يحدد السبب الذى يدعوهم من أجله ، وهو مغفرة

---

(٤٣) ٧ سورة البقرة ٠

الله لهم ، أى أنه انما يدعوهم الى خير عظيم لهم ومع ذلك يفعلون كل ما يفعلون حتى لا يسمعوا دعاءه ·

وذلك أنه لا مفر أمام المدعو الى أى دعوة من احدى ثلاث ، اما أن يستجيب ، واما أن يرفض ، واما أن يمنح نفســـه فرصة لادارة الرأى والتفكير قبل أن يبت فى موقفه ، هذا حتى ولو كانت الدعوة الى شر ، أما أن يرفض سماع الدعوة أصلا ، فليس هذا من سلوك العقلاء ، ولا من السلوك المألوف ، ولكن موقف هؤلاء كان بالغ الغرابة من الجهتين ، من جهة أن الدعوة ليست الى شر ، ولا الى بذل وتضحية ، ولا الى أى شىء تأباه العقول أو تخافه النفوس ، بل على العكس من ذلك ، هى دعوة الى خير عظيم لهم هو أن ينالوا مغفرة الله ، ومع ذلك يرفضون سماع هـــذه الدعوة ، والجهة الثانية أن رفضهم السماع تجاوز كل صورة ممكنة حتى أو غل فى المستحيل ، وهو ادخال كل الأصبع فى الأذن ·

٢ ـ لفظ (أصروا) من جمله (**جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا ···**) مع أن المراد به اصرارهم على موقفهم فى الكفر الا أن اقترانه بجعل الأصابع فى الآذان ، واستغشاء الثياب يوحى باصرارهم على ظاهر هذه الصورة ، وكأنهم حينما غطوا وجوههم بثيابهم ، وحاولوا ادخال كل أصابعهم فى آذانهم كان هناك من يحاول أن يثنيهم عن هذا العمـــل ، وأن يقنعهم بسوء ما يفعلون فلم يقتنعوا ، وانما (أصروا) على استغشاء الثياب ، وجعل الأصابع فى الآذان ، حتى لا يروا مصدر هذه الدعـــوة ولا يتسرب منها الى آذانهم شىء ·

وبعد هذا كله يمكن أن يقال ان هذا التصوير لابراز هذا الوضـــع غير المألوف فى حالهم مع غرابته فى مظهره الا أننا اذا تأملناه بالنظـــر الى داخل نفوسهم نجده واقعا حقيقيا ، غاية الأمر أنه مبنى على التشبيه ، بمعنى أن شدة نفورهم من الدعوة الى الدين ، ورغبتهم الجامحة فى منـــع أى شىء يصل الى عقولهم منها تشبه حال من يتخذ هذا المسلك الحسى فى الصورة التى رسمها القرآن من استغشـــاء الثياب وجعـــل الأصابع فى الآذان ·

ومن الواضح أن الحديث عن قوم نوح أو غيرهم من السابقين ليس محض حديث تاريخى ، وانما هو عبرة ظاهرة للمخاطبين بالقرآن ·

سخرية القرآن والسادة

وقد كان السادة والرؤساء من كبرى العقبات التى واجهت الاسلام فى سبيل انتشاره ووصوله الى الناس ، فلم تكن من قبيل العفوية تلك الكلمة المأثورة (الناس على دين ملوكهم) ، فمن طبيعة الحياة فى كل المجتمعات وسائر العصور أن نجد ذوى الجاه والنفوذ هم القدوة التى يتأسى بهـا الناس فى كل ما يدخل فى نطاق الحياة العامة ، سواء فى السلوك أو فى العقيدة ، وهم لا يحتاجون فى نفوذهم هذا الى سلطة أو استخدام قوة ، بل ان التابعين او المغلوبين على أمرهم يجدون نزعة نفسية طبيعية فى الانسياق وراءهم والتأسى بهم طواعية واختيارا ، وابن خلدون يوضح هذه النزعة البشرية فى قوله (المغلوب مولع ابدا بتقليد الغالب) فالتقليد ليس عن خوف أو سطوة من الغالب ، وانما هـــو (ولع) من المغلوب بتقليد الغالب ، وكأن الغالب أصبح فى نظر المغلوب فى موضع القوة والمكانة التى يتمناها المغلوب ، وهو لا يستطيع بلوغ هذه المكانة ، فهو يتشبه به فيما يملكه من سلوك أو فكر ، وهذا يفسر سبب ما تحدثه الشعوب الفاتحة فى مستعمراتها من آثار لانتشار التقليد للمنتصر فى اللغة والملبس والعادات وغير ذلك بين الشعب المغلوب .

ومن هنا كان اهتمام القرآن بقضية السادة ، حيث وجه القرآن اليهم حملة قوية ظاهرة ، ومن الواضح أن القرآن لا يعنى بالأفراد لذاتهم ، وانما لموقفهم من الدين ، وموقفهم من الدين أيضا ليست له أهمية خاصة لذاته ، فمن المبادىء الواضحة فى القرآن :

[فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر] (١)

---

(١) ٢٩ سورة الكهف .

وانما أهمية موقفهم أنهم عقبة بين الدين وعامة الناس ، فعامة الناس هم هدف كل الأديان ، وهم بغية كل الأنبياء ، ولكن السادة فى كل العصور هم العقبة الكئود التى تحول دون وصول الدين الى العامة ، وتحول بين العامة والدين ، فى صد كل من يرونه متجها اليه من الناس ٠

ولا يلزم فى موقف السادة وحيلولتهم بين الناس والدين أن يتخذوا موقف العداء الظاهر أو موقف العنف فى صد الناس عن الدين كما فعل سادة قريش فى موقفهم من الاسلام ، بل يكفى أن يجد العامة سادتهم معرضين عن الدين فيعرضون هم أيضا من باب التقليد ، الا من يشذ منهم بصورة فردية ، وقد تكون حجة العامة حينئذ فيما بينهم وبين أنفسهم أن السادة أفقه منا وأعرف بالحكم على الأمور ، فلو كان هذا الدين خيرا لكانوا هم أسبق اليه ، والقرآن يسوق هذا المنطق نفسه على ألسنة السادة، حيث يعتقدون أنهم أعلى فكرا وأعرف بموازين الأمور من المؤمنين الفقراء الضعاف ، فلو كان الاسلام خيرا فى منطقهم ما سبقهم اليه هؤلاء الدهماء من الناس ، حيث يقول تعالى :

[وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه ٠٠] (٢)

واللام فى (للذين) بمعنى عن أى قالوا عن ايمان هؤلاء هذا الكلام ٠

وليست السيادة التى يعنيها هذا الحديث هى القيادة أو الرئاسة الاجتماعية بمعناها العرفى وحدها ، كرئاسة القبيلة أو الامارة أو الملك أو أية سلطة شرعية أو عرفية فحسب ، وانما المراد كل وسيلة تحقق لصاحبها وجاهة وتميزا فى المجتمع ، كالسلطة أو المال أو العصبية القوية أو النسب المتميز ، فكل ذلك ونحوه يجعل صاحبه فى وضع بارز مرموق فى المجتمع، وكل هذه العوامل كانت عقبات أمام الدين فى كل العصور حيث يستخدمها أصحابها فيجعلونها عوائق أمام انتشار الدين ، ولذلك صب القرآن سخرية شديدة على كل جانب منها ، ليحطم هذه العقبات حتى يتاح للدين أن يأخذ مجراه الى الناس دون عوائق ٠

وكون هذه العوامل التى تتكون منها السيادة فى المجتمع من المال والسلطة والجاه عوائق أمام الدين أمر لا يحتاج الى سلطة فى القول ، فان الدعاة الى الدين فى العادة لا يتجاوزون أن يكونوا من أوساط الناس ، وغالبا ما يكون من الفقراء ، بينما الذين يتصدون للوقوف فى وجه الدين

---

(٢) ١١ سورة الأحقاف ٠

انما يكونون عادة من علية القوم وسادتهم ، سواء بسلطانهم ، أو مالهم ، أو جاههم ، ويجد عامة الناس أنفسهم حينئذ أمام جبهتين غير متكافئتين اجتماعيا ، أحداهما قوية قوة راسخة ظاهرة وهى قوة السادة ، والأخرى ما زالت تحبو ولا تملك من القوة الا صوتا مدويا ، ولكنه لا يرتكز على قوة اجتماعية وهى قوة الدين ، فيميل العامة تلقائيا الى هذه القوة التى ألفوها وخضعوا لسلطانها وجاهها ، وهى قوة السادة ٠

وعلى سبيل المثال اذا ألقينا نظرة على تأثير المال وحده سنجد العجب فى قلبه موازين الأمور ، بل وموازين القيم والأخلاق ، فما أكثر ما تحدث الحكماء والشعراء عن ذلك ، وعن أن ما يعد عيبا من الفقير يعد فضيلة اذا صدر من الغنى ، وما يوصف بأنه نقيصة فى الفقير يعد ميزة فى الغنى وهكذا ، ففى الجاهلية كان مالك بن حريم الهمدانى يقول فيما قال عن ذلك :

أنبئت والأيام ذات تجارب ... وتبدى لك الأيام ما لست تعلم

بأن ثراء المال ينفع ربه ... ويثنى عليه الحمد وهو مذمم

وأن قليل المال للمرء مفسد ... يحز كما حز القطيع المحرم

يرى درجات المجد لا يستطيعها ... ويقعد وسط القوم لا يتكلم

فالمال يجلب لربه الحمد والثناء بينما هو يستحق الذم ، ولولا المال لأشبعه الناس ذما ، ويقول أيضا ان الفقر يزرى بصاحبه ازراء قاتلا ، فهو يتطلع الى أية درجة ترفع قدره فى المجتمع فلا يستطيع ، ولا يملك الا أن يقبع بين الناس صامتا لا يجرؤ على ابداء ما فى نفسه من كلام مهما تكن قيمة هذا الكلام ٠

وأما عروة بن الورد العبسى الجاهلى فيضيف فى حواره مع امرأته أن الفقر أسوأ ما يزرى بقيمة الشخص فى المجتمع مهما يكن فيه من خير وفضائل ، وأن استهانة الناس به واحتقارهم اياه لا تقف عند حد ، بل ان أفراد أسرته يفعلون به ذلك ، حيث (تزدريه حليلته وينهره الصغير) من أولاده فضلا عن الكبير منهم ، أما الغنى فان المال يجعل له جلالا وهيبة تفزع

من يحاول حجبه عما يريد ، ويختم هذا الجانب من حواره بمعنى بالـغ الطرفة رغم واقعيته كما يلى :

دعينى للغنى أســـعى فـــانى	**رايت الناس شرهم الفقيـــر**
وأهونهم واحقــرهم لديهــــم	**وان أمسى له كــرم وخير**
ويقصى فى النــدى وتزدريه	**حليلتــه وينهـــره الصــغير**
وتلقى ذا الغنى وله جــلال	**يكاد فــؤاد حاجبه يطيــر**
قليــل ذنبه والذنب جـــم	**ولكن الغنى رب غفــــــور**

فطرافة البيت الأخير واضحة فى تعبير (**قليل ذنبه والذنب جــم**) ثم فى هذا التعبير الذى يجعل المال نفسه ربا يغفر لصاحبه ذنوبه مهما كانت جمة (ولكن الغنى رب غفور) ٠

واذن فالمال وهو عامل واحد من عوامل السيادة فى المجتمع له هذا التأثير الخطير فى حياة المجتمعات وسلوكها ونظرتها الى الأمور ، بل والى القيم والمبادىء ، حيث ان الحكم على السلوك من حيث الخيرية وعدمها يتأثر بالفقر والغنى ، فالسلوك الذى يحكم عليه المجتمع بأنه شر عند الفقير، هذا السلوك نفسه اذا صدر من الغنى يحكم عليه المجتمع بأنه فضيلة ، فكيف اذا اجتمعت لهذا الغنى عوامل أخرى ترفعه الى درجة الســيادة والقيادة الاجتماعية ، كالسلطة والجاه والنسب والعصبية ؟ لا شك أن نفوذه وتأثيره فى المجتمع سيكون أقوى وأخطر ، وحين يقف من الدين موقفا معاديا فانه سيكون سدا منيعا يحول بين العامة والدين ٠

ومن هذا يتبين أن اهتمام القرآن بالأفراد من السادة والرؤساء ليس لذات الأشخاص ، ولا لأهمية كفرهم أو ايمانهم ، وانما لكونهم عقبة فى طريق الاسلام ٠

(١)

فهذه صورة أحد السادة الذين يعتمدون على أكثر من مصدر للقوة والسيادة فى المجتمــع :

[أن كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه آياتنا قال
أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم] (٣)

---

(٣) ١٤ ـ ١٦ سورة القلم ٠

اللغـــة :

أساطير : جمع أسطورة ، وهى ما كتب أو سجل وكأنه فى أسطر من أخبار الأولين وقصصهم ، ومن الخطأ الشائع فهم الأسطورة على أنهـا الخرافة أو الوهم فحسب فان من أبرز معانيها أنها من السطر والأسطر ، وأساطير الأولين بمعنى ما كتبه الأولون وسطروه من أخبارهم وقصصهم ، وهـذا لا يعنى الاشارة اطلاقا الى صدق هذه الأخبار ، أو كذبها ، وانما يعنى تسجيلها كتابة أو رواية والمشركون حين يصفون القرآن بأنه أساطير الأوليـن لا يعنى بالضرورة تكذيب ما ورد فيـــه من أخبـــار الأولين وقصصهم ، وانما يعنى تكذيب أن القـرآن كلام الله ، أما موضـــوع القرآن فلم يرد أنهم كذبوا من اخباره أو موضوعه شيئا ، وانما انصب تكذيبهم على نسبته الى الله ٠

سنسمه : من الوسم ، وهو الكى حيث يصبح علامة ، أى سنجعل له سمة ، وهى أثر الكى ، والعرب كانوا ذوى خبرة معروفة بأمراض الابل وادويتها ، ومن أشهر أدويتها الكى ، ومن أمثـــالهم (آخـــر الدواء الـكى) والحـــديدة التى تحمى على النـــار ليكـوى بهـا تســـمى الميســـم ، كما كـان للعـــرب هـــدف آخـــر من وســم الابل بالكى ، وهـــو تمييزها عن غيرها من ابل الآخـــرين ، فـكل قبيـلة لهـــا ســمة خاصة فى ابلها لتمييزها عن ابل القبائل الأخرى ، وقد يسم الأفراد فى القبيلة ابلهم بسمات خاصة لتمييز ابل كل شخص عن ابل الآخرين ، وفى الحديث الشريف أن النبى صلى الله عليه وسلم (كان يسم ابل الصدقة) أى يجعل لها علامة تميزها عن غيرها ٠

الخرطوم : هو فى لغــة العرب الأنف ، ولكن يغلب فى العرف اطلاقه على هذا العضو من الفيل ، فالخرطوم للفيل مكان الأنف من الحيوان ٠

الســـياق :

وسياق الحديث عن الصورة يوضح الأسباب التى دعت القرآن الى السخرية من هذا الذى ينصب عليه التصوير الساخر ، وأبرز هـــذه الأســباب :

١ ـ انه شخص سيىء الخلق ، ليس فى جانب واحد من خلقه ، وانما فى جوانب عديدة ، فمن صفاته أنه حلاف وهماز ومشاء بنميم وأثيم ٠

٢ ـ أنه مفسد فى الأرض ، ومفسد فيما بين الناس ، مروع لأمن الآمنين ومن ذلك أنه مشاء بالنميمة ليوقع بين المجتمع أفرادا وجمـاعات وأنه مناع للخير وأنه معتد ٠

٣ ـ أنه يستغل ما آتاه الله من عوامل القوة للوقوف فى سبيل الدين وتنفير الناس منه ، وقد آتاه عاملين كبيرين للقوة فى المجتمع ، فكان (ذا مال وبنين) ٠

ولهذا كله يصب عليه القرآن حملة متميزة فى طابعها ، حيث لم توجه فى القرآن حملة على شخص بمثل هذه الحملة ، فما أكثر الذين تحدث القرآن عنهم من أعداء الله فى كل العصور ، جماعات وأفرادا ، ولكن أحدا منهم لم يبلغ القرآن ما بلغه فى حديثه عنه ، وذلك فى قوله تعالى :

[ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم] (٤)

وقد يعنى كثير من المفسرين بتحديد الشخص المراد بهذه الأوصاف ، أهو الوليد بن المغيرة المخزومى أو غيره ، ولكن الحقيقة التى لا ريب فيها أن القرآن لا يعنى بالأشخاص لذاتهم ، وانما لموقفهم من الدين بوصفهم نماذج مؤثرة اما بالخير فيبرز هذه المواقف الخيرية المتميزة لتكون نموذجا يحتذى ، واما بالشر ، فيبرز أيضا هذه المواقف الشريرة للتحذير منها وكشف ما قد يخدع عنه بمظهره منها ٠

وهذا الزعيم ليس المهم أن يكون من هو بذاته ، وانما المهم أنه عقبة فى سبيل الاسلام ، وأنه نموذج لنوعية من قادة الشرك يصدون عن سبيل الله ، فيبرز القرآن خطورتهم ، محذرا من الانقياد لهم ، مظهرا ما لا يعلمه العامة من حقيقتهم ، فان العامة انما ينظرون الى مثله على أنه قوة مخيفة، وهالة طاغية ، تبعث الرهبة أحيانا ، وتثير قوتها الاعجاب أحيانا ، وهو فى كل الأحوال موضع التقدير عند العامة مهما حمل من مساوىء ، فان مساوئه عند العامة مغفورة كما يقول عروة بن الورد فيما سبق (ولكن الغنى رب غفور) بل قد ينظر الى مساوئه على أنها مزايا ، كما نرى اليوم فيما بيننا ٠

فليس المهم اذن أن يكون المراد هو الوليد بن المغيرة أو أى شخص معين بذاته ، ولكن المهم هو النموذج نفسه ، بل مما يشير الى عدم قصد شخص بذاته أمران :

---

(٤) ١٠ ـ ١٦ سورة القلم ٠

١ ـ تعبير (ولا تطع) فى بداية الحديث عنه ، فقد يكون هــذا الخطاب فى ظاهره موجها الى النبى صلى الله عليه وسلم ولكن مما لا شك فيه أنه خطاب عام لكل مؤمن أو راغب فى الاتجاه الى الايمان ، ومعنى هذا أن ذلك الشخص الذى هو موضوع الحديث يدعو الى محاربة الدين والصد عنه ، ومثل هذا الشخص ليس شخصا واحدا وانما هى نوعية كبيرة العدد مهما اختلفت وسائلها فى كل مجتمع وكل عصر توجد فيه دعوة دينية ٠

٢ ـ لفظ (كل) من جملة (ولا تطع كل حلاف ٠٠٠) فان لفظ (كل) صريح فى أنه ليس شخصا واحدا ، والتحذير بعدم الطاعة ليس من شخص بعينه ، وانما من كل من هو فى هذه النوعية من السادة ، ومقتضى لفظ (كل) أنه ليس شخصا واحدا ، والا لكان التعبير نحو ولا تطع الحلاف المهين ٠٠٠ الخ ٠

وكل ما يعنيه تعداد أوصاف هذا الشخص بهذه الكثرة أنه أشــد خطورة من غيره من القادة والسادة فى الصد عن سبيل الله ، والأشد خطورة من غيرهم كانوا ولا زالوا أيضا ليسوا شخصا واحدا ، وانما هم كثيرون ٠

ولكن النتيجة التى ينتهى اليها كل هذا التعداد لصفات مثل هــذا الزعيم كأن القرآن يقول للعامة من الناس وغيرهم : قد ترون شخصا بارزا تبهركم منزلته فى المجتمع ، وتعجبون بما يملك من عوامل القوة والظهور ، ولكنكم قد لا تعلمون ، ولو تأملتم لعلمتم أنه يحمل من المساوىء الخلقية فيضا كبيرا لا يليق بمن تجعلونه قدوة لكم ، فان من يكون فى موضع القيادة والسيادة ينبغى أن يكون قدوة حسنة ، ولكن هذا الشخص بالغ السوء فى جوانب عديدة فهو دخيل على القيادة والسيادة الصحيحة وهذا معنى (زنيم) التى وردت فى صفاته فى الآيات الكريمة ، فان الزنيم فى القــوم هو الدخيل عليهم ، فاذا كان سياق الحديث عن النسب فهو دخيل فى النسب ، واذا كان السياق فى أى شىء فهو دخيل فى هذا الشىء ، فقــد يكون الحديث عن مهنة كالنجارة ، فيدعى شخص أنه نجار ، بينما هــو لا يصلح للنجارة ، فيقول النجارون انه (دخيل) أو (زنيم) أو (دعى) فينا بمعنى أنه فى الحقيقة لا يصح أن يكون منا ، وكذلك لو ادعى شخص العلم وهو جاهل ، فقد يقول العلماء مثل ما قال النجارون وقد يحدث حينما يسند منصب فنى الى شخص لا يصلح له أن يقال ان هذا الشخص دخيل على هذا المنصب أو على أرباب هذا المنصب ويساويه أن يقال انه (زنيم) أو (دعي) فيه ٠

واذن فهذا الشخص الذى تشير اليه الآيات لا يلزم أن يكون وصفه فى القرآن بأنه (زنيم) أنه دعى النسب ، بل ان السياق يشير الى أنه دعى فى السيادة لأنه يستند الى أنه ذو مال وبنين فيجعل من ذلك ستارا وغطاء لمساوئه العديدة ، فهو فى الحقيقة دعى ودخيل على السيادة الحقـــة و (زنيم) فيهـــا ٠

وكل هذه الصفات التى ساقها القرآن عن هذا الزعيم موجودة فى كل القادة والسادة سواء اجتمعت فى شخص ، أو تفرقت فى أشخاص ، وروايات التاريخ تحدثنا عن الكثير من مساوىء رؤساء القبائل وسادتها ، مما لا حاجة الى الافاضة فيه ، وكذلك فى كل عصر ، وقد أصبح الافساد بين الناس قانونا من قوانين السيادة فى عصرنا بشعار (فرق تسد) ، وهو من صفات هذا الزعيم (مشاء بنميم) والقرآن يشير الى ذلك فى قوله تعالى :

[ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا اعزة أهلها اذلة وكذلك يفعلون] (٥) ٠

ولا مانع أن يكون المراد بمضمون الصورة الساخرة شخصا معينا ولكنه أيضا نموذج ومثال لغيره ٠

الصـــــورة :

وتتمثل الصورة الساخرة فى قوله تعالى :

[سنسمه على الخرطوم]

وحرف السين فى (سنسمه) للمستقبل القريب ، وللمستقبل البعيد (سوف) والجملة امتداد للخطاب فى (ولا تطع) بمعنى انتظر ، ففى وقت قريب سترى أنفه موسوما بسمة اذلال ، هى الكى على أنفه ، فصورة هذا الزعيم القوى الذى يعيث بين الناس بغيا وافسادا وعتوا وتجبرا أنه سيكوى على أنفه ليس لعلاج مرض ، وانما ليكون الكى علامة اذلال ظاهر لا يستطيع اخفاءها ، لأنها فى موضع لا يخفى ، وهو الأنف ، ومن يخفيها لابد أن يخفى شخصه فلا يعرفه أحد ، فيصبح كأنه غير موجود ، أما فى حال وجوده فان أنفه ستنطق بأن هناك من أذله بل حكم عليه بذل أبدى لا فكاك منه ، وهو جعل علامة على أبرز موضع فيه وهو الأنف ، وقد كان من تقاليد العرب حين يريدون اذلال شخص كالأسير مثلا أن يجزوا شعر رأسه ، فيعرف الناس حينئذ أن هناك قوة أقوى منه أذلته حتى قبل

---

(٥) ٣٤ سورة النمل ٠

جز ناصيته صاغرا ، ولكن هذه علامة وقتية ، فبعد حين سنمو شعره ويعود كما كان قبل جزه ، أما الكى على الأنف بالذات فهو اذلال دائم مدى حياة المكوى ، لا يستطيع ازالته ٠

وموضع الطرافة والسخرية فى الصورة أن نتصور هذا السيد الذى كان يبغى ويعتدى ويطغى بماله وبعصبيته المتمثلة فى قوة بنيه فلا يقف أمامه أحد ، ولا يستطيع أحد أن يرده عن بغيه وبطشه ، فنتصوره ذليلا مستكينا يستسلم لمن يكويه على أنفه ، ثم يمشى بين الناس حاملا هذا الذل وهذا التشويه ، فكل من يراه لا يرى فيه سيدا ولا قويا ولا باغيا ، وانما يستوقفه التأمل فى هذا المنظر الغريب لأنفه المشوه الذى يبعث منظره على الاشمئزاز ٠

هذا فضلا عن أن الكى على الأنف قد يكون مألوفا عندهم فى الحيوان كالابل ، أما الانسان فقد يكوى على أى شىء فى جسمه الا الأنف ، ومعنى هذا أن يصبح هذا السيد المكوى على أنفه وكأنه حيوان أعجم بين الناس، ورغم شذوذ هذا المنظر فان غرابته تكون أشد حينما يكون فى زعيم ظاهر السيادة فى المجتمع ، ولو أنه كان فى شخص عادى لكان أمره فى الشذوذ والغرابة أيسر ٠

وقد يقال حينئذ : فهل هذا الكى عقاب لهذا المشرك ؟ والجواب أن هذا ليس مقصودا به العقاب البدنى اطلاقا ، وانما المقصود به الاذلال والاهانة لأن جرمه فى العقيدة وفى السلوك لا يكافئه أى عقاب بدنى الا بشاعة العقاب داخل جهنم ، أما الكى لذاته فليس عقابا ، بل هو مرتبط فى أذهانهم بأمرين كلاهما لذاته حسن ، أحدهما أن الكى نوع من علاج الأمراض ، والآخر أنه علامة تميز سوائم الشخص أو القبيلة عن سوائم غيرها ، فلا يرتبط الكى فى أذهانهم بالعقاب ، وانما يتركز أثر هذه الصورة الساخرة فى كون الكى على الأنف بالذات ، وهو أبرز موضع فى وجه الانسان فضلا عن دلالته العرفية على العزة ٠

ولو أن كافرا أو مجرما علم أن كل عقاب سيكون الكى على أنفه يوم القيامة لهان لديه العقاب واستخف به ، واذن فليس المقصود به العقاب، وانما الاذلال والاهانة ٠

ومن الألفاظ ذات الايحاء الخاص فى الصورة :

١ ــ لفظ (ولا تطع) من جملة (**ولا تطع كل حلاف** ٠٠ الخ) فهذا اللفظ جاء فى مقدمة الحديث عن هذا الشخص الذى صبت عليه السخرية لبيان الهدف من الحديث عن هذا السيد ، وهو التحذير من خطورة مساوئه،

سواء فى عقيدته وفى سلوكه ، ومضمون هذا أن الشخص نفسه ليس هدفا، وليست له لذاته أهمية ، وانما الأهمية فى أنه عقبة فى سبيل الاسلام ، وان هناك من يطيعونه ويتأثرون به ، فالقرآن يجعل هذا الهدف واجهـــة ومقدمة للحديث كله محذرا من طاعته والاقتداء به ٠

٢ ــ (أن كان ذا مال وبنين) من جملة **(أن كان ذا مال وبنين اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين)** فلفظ (أن) بفتح الهمزة فيه معنى السببية ، أى أنه بسبب المال والجاه المتمثل فى البنين يطغى فيكذب بآيات وينفر الناس من الايمان بها زاعما أنها أخبار وقصص سطرها الأقدمون وتناقلها الناس فجاء بها محمد عن هذه الطريق ، فهى ليست وحيا ولا كلاما من الله فى زعمه ٠

وقــرىء (أأن كان ذا مــال ٠٠٠) بهمـــزتين مفتوحتين ، أولاهما للاستفهام ، والثانية أيضا بمعنى السببية ، أى هل بسبب ماله وجاهه يطغى ويصد الناس عن سبيل الله وكلامه ؟ وهو اســتفهام تقريرى ، أى أن هذا هو الحاصل فعلا من هذا الزعيم ٠

٣ ــ لفظ (على) فى جملة **(سنسمه على الخرطوم)** أى سنجعل له سمة وهى العلامة على أنفه ، وقد كان يمكن أن يكون التعبير سنسمه فى الخرطوم ، فتكون كل الدلالة الموضعية أن الكى سيكون فى الأنف ، ولكن لفظ (على) بما يفيده من معنى العلو يجعل للعلامة فى موضعها وضعا خاصا أى أنها ستكون فى أبرز وأظهر موضع من هذا الشخص ، فان الشىء كلما كان أعلى كان أوضح للعيان ، وما يفيــده لفظ (على) من العــلو والارتفاع يدعم المعنى فى زيادة التشهير بتشويه هذا الشخص وابراز موضع السخرية منه لكل ناظر ٠

٤ ــ لفظ (الخرطوم) من جملة **(سنسمه على الخرطوم)** يتضمن دقة فى التعبير من جهتين :

(أ) أن الكى على الأنف بالذات هو غاية الاذلال ، لأن الأنف عند العرب رمز العزة ، ومن الكنايات المعروفة عندهم حينما يصفون قوما بالعزة قولهم (شم الأنوف) وكذلك حينما يعبـــرون عن اذلال شخص يقولون (رغم أنفه) فعزة الأنف رمز لعزة الشخص ، وكذلك هوان الأنف رمــز لهوان صاحبه ، واذلال هذا الزعيم بكيه على أنفه هو قمة الاهانة والاذلال له ، وهذا هو أبرز أهداف السخرية من هذا السيد أن يكون هذا التصوير تنفيرا من أتباعه والانقياد له ، لأن انقيادهم له نابع من اعجابهم بقــوته وعــزته ٠

(ب) من الواضح أن المراد بالخرطوم الأنف ، ولكن لماذا عدل عن لفظ الأنف الى لفظ الخرطوم ؟ والجواب أن اللفظين وان كانت دلالتهما فى اللغة واحدة ، الا أن العرف يجعل دلالة الخرطوم تتجه فى الذهن الى الفيل ، وفى هذا ايحاء بضخامة هذا السيد الذى تصب عليه سخرية القرآن ، ولا يلزم أن تكون الضخامة حسية ، بل قد تكون معنوية ، بمعنى أنكم اذا كنتم تتصورون هذا السيد شيئا كبيرا ، وذا منزلة ضخمة فيكم ، فلا يغرنكم هذا ، لأن الله سيرغم أنفه ، ويجعله ذليلا مهينا ، ويجعل هذا الهوان ظاهرا واضحا للجميع ٠

وحينئذ يبرز الهدف من تصوير القرآن ، حيث يتمثل السامعون هذه الصورة البالغة السخرية والاهانة لهذا الزعيم وأمثاله ، فبدل أن تمتلىء النفوس اعجابا بهم ، أو تهيبا اياهم ، اذا هى تمتلىء سخرية منهم ، ونفورا من صورتهم المزرية ، ولا شك أنه سيحدث تحول كبير فى نفسية العامة والأتباع نحو هؤلاء السادة ، سواء أعلن الأتباع انفضاضهم عن التبعية ، أو أداروا هذا فى نفوسهم ، أو أجلوه الى حين ، وكل هذا كسب للدين وللدعاة اليه ٠

(٢)

وهذه أيضا صورة سيد من الذين يملكون جاها ونفوذا يستطيعون به أن يأمروا فى المجتمع فيطاعون ، وأن ينهوا فلا يرد أحد من العامة والأتباع نهيهم مهما يكن واضح الخطأ ، ولكن الله سبحانه يرد هؤلاء الأتباع الى الادراك الصحيح لقيمة هؤلاء السادة بالقياس الى الله ، ولكن القرآن يصوغ هذه الصورة فى أسلوب السخرية ممن يمثل هؤلاء السادة وذلك فى قوله تعالى :

[كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ٠٠٠] (٦)

اللغــة :

(لنسفعا) : السفع هو القبض على الشىء وجذبه بشدة وعنف ٠

والناصية : هى أعلى الرأس ، والمراد شعر الرأس ، وكان من عادة العرب اطلاق شعر رءوسهم ، وكان من عادتهم أيضا أنهم اذا أسروا شخصا وأرادوا أن يمنوا عليه باطلاقه من الأسر جذوا ناصيته اذلالا له واعلانا

(٦) ١٥ ـ ١٨ سورة العلق ٠

الناس عن المن عليه ، ومضمون ذلك أن الناصية عندهم رمز للعزة ، وان المساس بها مظهر اذلال ، وهذا هو هدف الصورة فى القرآن ·

(**الزبانية**) فى عرف العــرب رجال الشرطة ، ومفردة زبنية بكسر الزاى وهو الشرطى ، والزبن بفتح الزاى المشددة الدفع ، ويرى بعض اللغويين أن مفرده زبنى بالنسب الى الزبن ، وأن أصله زبانى وجمعــه زبانية ، والزبانية فى الدين هم الملائكة الموكلون بالعذاب ·

الســـــياق :

وهذه الصورة الساخرة التى نحن معها هى جزء من سياق لا تتضح الصورة كاملة الا بتصويره معها ·

وهذا السياق يتلخص فى أن هذا الســــــيد المزهو بقوته وسلطانه الاجتماعى ، يستخدم هذا السلطان فى الصد عن سبيل الله ، ومحـــــاولة اذلال عباد الله المؤمنين ، متناسيا أن هؤلاء العباد لهم سيد يحميهم هـــو الله ، وأن قوة الله أقوى من قوته ، فهذا السيد الطاغية لم يكتف ببســـــط سلطانه على أتباعه وعلى العامة من الناس ، وانما يحاول أن يبسط سلطانه وبغيه أيضا على الذين استجاروا بالله ودخلوا فى حماه ، وهم المؤمنون ، وفى هذا بغى وخروج حتى على عرفهم الاجتماعى ، فان من أعرافهم أن من يدخل فى حمى شخص أو قبيلة يصبح محميا بالقوة التى دخل فى حماها ، ولا يجوز لقوة أخرى أن تمسه بسوء ·

والسياق مع الصورة فى هذه الآيات الكريمة :

[··· ارأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى ، ارأيت ان
كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ، ارأيت ان كذب
وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته
لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليـدع
ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه ··] (٧)

والاستفهام الذى بدئت به الصورة والمتمثل فى همزة الاستفهـــام من (أرأيت) ؟ فيه تنبيه واثارة للعقول وكأنها دعوة الى تأمل هذه القضية أو الحكم فيها ، ومع أنه من البداهة بمكان أن الله أكبر وأجل من أن يوازن به أو بقوته أو ينافسه شئ أو أحد على الاطلاق الا أن من اعجـــاز القرآن ودعوته الى الله بالحكمة البالغة أنه يتنزل فى أسلوبه حتى يصبح فى ظاهره وكأنه فى مستوى العامة ، وفى الوقت نفسه يحتفظ بعمقه وجوهره

(٧) ٩ ــ ١٩ سورة العلق ·

لكل متأمل بعقله مهما يبلغ مستوى هذا العقل ، فالصورة الواحدة فى القرآن أحيانا تخاطب كل مستويات العقول على اختلافها ، فكل ينظر اليها من الزاوية التى تناسبه فيجد فيها ما يغنيه أن اراد نشدان الحق ، ومن ذلك هذه الصورة التى نحن معها ، فان جوهرها حافل بابراز جلال الحق سبحانه كما ينبغى أن يفهمه ذوو الألباب ، ولكن أسلوب القرآن يصوغها فى ظاهر كأنه مزاولة لتقاليد المجتمع ، وذلك أن العامة من الناس هم الهدف الأصلى للأديان دائما ، لأنهم الأكثرية ، وهم المجردون عادة من النوازع التى تثقلهم عن الاتجاه الى الدين ٠

والعامة يرون بعض السادة وقد بلغ من القوة والبطش والنفـــوذ ما لا يتصورون قوة أخرى تستطيع أن تواجهه أو تنافسه ، وهذا السيد نفسه يجدونه يتحدى فلا تستطيع قوة أخرى أن تبرز أمام تحديه ، وكأنه بالقياس الى العامة هو كل القوة ، وليست سواه قوة ، فحين يدعون الى الدين لا يستطيعون أن يجردوا نفوسهم وعقولهم من سلطان هـــذا السيد الطاغية ليفكروا فى الدين ، وليست أمامهم قوة ظاهرة يركنون اليها فى حمى هذا الدين ، خصوصا وأن الدعاة الى الدين ليسوا من ذوى البطش أو القوة الاجتماعية التى تواجه طغيان هذا السيد ٠

ومن هنا تبرز الصورة الساخرة ، فان أسلوب القرآن يصـــور لهؤلاء العامة قوة الله سبحانه فى صورة حسية تواجه قوة هذا الطاغية ٠

ففى ظاهر الصورة نجد الله سبحانه وكأنه سيد قوى وله عبيد كمـــا لهذا السيد الطاغية وغيره عبيد ، والمفروض أن الله يحمى عبيده ومن فى حماه ، كما يحمى كل السادة عبيدهم ، وعبيد الله فى الصورة هم المؤمنون الذين يخضعون له ويتقربون اليه بالصلاة له ، ومنطوق الصورة أن السيد الطاغية بغى على حقوق الله فذهب الى أحد عبيده وهو يصلى له فنهـــاه أن يصلى لسيده ، وكان المفروض فى عرفهم أن يرعى حق الله بوصـــفه فى الصورة سيدا فلا يتعدى الطاغية على أحد من عبيده ، ولكنه تعـــدى وحرضه على التمرد على سيده وهو الله ، فنهاه عن أن يصلى له ، وهذا هو منطوق الصورة ، أما مفهومها المقابل لهذا فهو أن الله سبحانه لم يتعد على حمى هذا السيد ولم يتعرض لأحد من عبيده ، ولكن الطاغية هو الذى تعرض لحمى الله بتحريض عبيده على عدم طاعته وعدم العبودية له ، وذلك فى تعبير **(أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى) ؟**

وتواصل سخرية القرآن التنزل بالتصوير ليكون قريبا من افهام العامة والسذج ، ومن واقع حياتهم ، فتصور كأن منافسة وقعت بين هـــذا السيد الطاغية ، وبين السيد الاله سبحانه ٠

والطاغية هو الذى بدأ عرض قوته بعدوانه على حمى الله وعبيده ، فكأن من الطبيعى أن يبرز الله قوته لحماية عبيده ، ولابراز حقيقة قـوة كل من السيدين ، لازالة ما قد يخالط نفوس السـذج وبعض العـامة من اللبس بين القوتين ، ومن هذا اللبس أنهم يظنون أنه لا توجد قوة اطلاقا تنافس قوة سيدهم هذا الطاغية ، كما يصور لهم سيدهم ، وكما يؤيده الواقع ، ومن هذا اللبس أيضا أنهم يعتقدون أن أتباع الله وعبيده هم الذين يؤمنون بقوة سيدهم ، أما أتباع السادة الآخـــرين فلا يؤمنـــون بها بل ولا يعترفون بوجودها أصلا ٠

ولكن أسلوب القرآن من منطلق هذا اللبس نفسه يبرز لهم قـوة الله فى منطق الحوار العقلى ، وكأنه يقول لهم ان قوة الله ليست فى اعتقاد عبيده وأتباعه فحسب ، بل ان سيدهم الطاغية نفســـه لو كان صحيح الادراك ، سواء أكان مؤمنا أم كان كافرا لكان يجب ان يعلم أنه لا وجه للموازنة أو المنافسة بينه وبين الله فى القوة ، وأنه يكفى أن يعلم بأن الله يرى كل ما يدور فى الكون ظاهرا أو خفيا ، فيكفى أن يراه وهـو يتعدى على حماه ويتعرض لأحد عباده فينهاه عن الصلاة ، فالمغاضب لله لو كان عاقلا فان مجرد شعوره بأن الله يراه وهو يغاضبه هو أقسى وأشد نفسـيا عنده من الوعيد بأى عقاب ، وهذا من جوهر الايمان فى عمقه وصدقه ، ونقول (لو كان عاقلا) بمعنى أن الاحساس بالله لا يحتاج الى ايمان تقليدى أو تعليمى ، وانما هو فطرة فى طبيعة الانسان ، كقوله تعالى :

[فاقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر
النـــاس عليها لا تبـــديل لخلق الله ذلك الدين
القيم ٠٠٠] (٨)

ومن هذا القبيل كان التعبير فى الصورة :

[ارايت ان كان على الهدى ، او امر بالتقـــوى ،
ارايت ان كذب وتولى ، الم يعلم بأن الله يرى]

بمعنى أن من يتعدى على حمى الله وعباده كما فعل هذا الطاغية فسواء اكان مؤمنا ام مكذبا بالدين فقد كان يجب أن يشعر ويوقن (بأن الله يرى) فيزجره هذا الشعور عن العدوان على حمى الله ، وتعبير (الم يعـلم بأن الله يرى) يمثل قمة التعبير عن قوة الله ، فان سياق التصوير الرمزى فى الصورة كان يقتضى أن يكون التعبير نحو الم يعلم بأن الله اقوى منه ؟

---

(٨) ٣٠ سورة الروم ٠

ولكن الصياغة اللفظية تركت الحديث عن قوة الله لأنها اكبر وأجل من أن يتحدث عنها فى سياق المنافسة مع أية قوة أخرى ، وانما يكفى الشـــعور بالرؤية من الله دون التهديد بالقوة أو الحديث عنها ، كما يحدث فى التعبير العادى حين يهددون شخصا بقوة شخص قوى ، فلا يقولون له ألا تخاف من غضب فلان ، أو من عقاب فلان ، وانما يقولون له ألا تخاف أن يراك فلان ؟ ومن المفهوم أن الخوف فى الحقيقة ليس من الرؤية ذاتها ، وانما مما يترتب عليها ، ولكن الطرافة أن يجعل الأسلوب الرؤية ذاتها هى مصدر التخويف ، فكان الأسلوب (**ألم يعـــلم بأن الله يرى**) ؟ والاستفهام فى التعبير للتوبيخ على جهله بهذه الحقيقة •

فالسياق فى مجموعه يكاد ينحصر فى أمرين : أحدهما ابراز الموضوع من خـــلال واقعهم الاجتماعى عن العبيـد والســادة وعادات الجــوار والحماية ، وهذا معنى (**ينهى عبدا اذا صلى**) ، والآخر الحوار العقلى المنصب على أنه ينبغى أن يتساوى المؤمن وغير المؤمن فى ادراك حقيقة الله وصفاته بالحس والشعور الفطرى وهذا معنى (**أرأيت ان كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ، أرأيت ان كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى**)

الصـــورة :

وأما صلب الصورة الساخرة فيتكون من عنصرين يسبقهما تمهيد :

والتمهيد متمثل أيضا فى عنصرين رغم الايجاز الشديد فى الألفاظ ، فأما العنصر الأول فكأنه يقال للمخاطب دع كل ما سبق وذلك بلفظ (كلا) أما العنصر الثانى فهو تحذير لهذا الطاغية الجاهل من قوة الله وبطشه ، وذلك بتعبير (**لئن لم ينته ••**)

وأما صلب الصورة فهو ابراز لقوة الله وبطشـــه ، ولكن بأسلوب يقرب ذلك من واقع حياة المخاطبين وعقولهم ، فيوازن بين قوة الله سبحانه وقوة هذا السيد الطاغية ، واذا هـــذا الطاغية مسلوب الارادة والقوة والمقاومة أمام قوة الله ، واذا قوة الله تقبض على ناصية هذا الطاغية ، ثم تجذبه فى شدة وعنف ، دون أية مقاومة من الطاغية لأنه حينئذ مســلوب القوة والارادة ، بل كأنه هو ذاته منعدم لا وجود له ، ولذلك فان قوة الله لا تتعامل معه ولا تشير الى وجوده ، وانما تتعامل مع ناصيته فحسب ، وكأنه لم يبق منه حينئذ الا ناصيته •

وكأن قوة الله تريد حينئذ أن تبين سبب قبضـــها على ناصية هذا الطاغية وجذبه بهذا العنف ، فكان المنتظـــر أن تبين مســـاوىء صاحب الناصية ، ولكن كل الحديث ينصب على الناصية وحدها دون اشارة الى صاحبها ، فيقال (**ناصية كاذبة خاطئة**) وكان المنتظر أن يقال ناصية كاذب

خاطىء ، ولكن صاحب الناصية وهو الطاغية تجوهل وكأنه لا وجود له زيادة فى الاستخفاف به وبقوته فى هذا الموقف الذى يحتاج كل انسان فيه الى الدفاع عن كرامته وعزته بكل ما يملك ، ولكنه يجد من يقبض على ناصيته ويجذبه بعنف فلا يستطيع أن يحرك ساكنا ، بل وكأنه غير موجود، وذلك فى تعبير (**كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة**) ٠

وأما العنصر أو المنظر الثانى فى الصورة فيتمثل فى تصور استعانة الطاغية بأنصاره وشيعته ومن وراءهم ٠

والقرآن يعرض هذا المنظر فى أطرف تصوير وأقربه من واقع الحياة، فكأن الله سبحانه وهذا الطاغية خصمان يتبارزان بالقوة ، وقد سيطر الله على الطاغية وتمكن من ناصيته متحكما فيها سالبا خصمه كل قوة أو مقاومة ، فيبقى حينئذ احتمال لجوء كل منهما الى أنصاره وشيعته ، وخصوصا المغلوب وهو الطاغية ، لأن الغالب لا يحتاج الى عون فى الصراع ، فيبرز أسلوب القرآن احتمال أن يستغيث الطاغية عندئذ بأنصاره من أعضاء ناديه ، وهو دار الندوة التى كانت تضم سادة قريش ووجوهها ولا يجوز لأحد دون هذا المستوى أن ينضم الى عضويتها ، فالمتوقع من هذا الطاغية حينئذ وهو من أبرز أعضاء هذا النادى أن يدعو ناديه لنصرته ، ولا شك أنهم سيسرعون الى محاولة نجدته ونصرته ، وتبلغ طرافة الصورة قمتها حين يدعو الطاغية ناديه لنصرته ، فاذا الله سبحانه يفعل مثل هذا فيدعو جنوده وأهل شرطته لمواجهة القوة التى يستدعيها الطاغية ، وذلك فى التعبير (**فليدع ناديه ، سندع الزبانية**) ٠

ومن البدهى أن الصورة كلها ليست من باب الحقيقة ، وانما هى تصوير افتراضى لتقريب المعنى الى أفهام العامة ، وهذا من خصائص أسلوب القرآن واعجازه ، فان بعض العامة قد تبلغ به السذاجة وتفاهة الادراك عدم استطاعته فهم شىء يخرج عن نطاق الحس وواقع الحياة ، وقد يعييه أن يفهم حديثا عن غيبيات الدين وعقلياته ، فالقرآن يتنزل اليه فى أسلوبه بمثل هذه الصورة الحسية الواقعية التى يدركها كل مخاطب مهما صغر تفكيره لأنها مشهد واقعى ظاهر فى الحياة ، ومع ذلك فان أكبر العقول وأسمى الأفهام لا تجد فى مثل هذا الأسلوب تنزلا ، بل تجد فيه مقدرة فنية فى الصياغة والتصوير تبهر كل ذوق وكل حس جمالى ٠

وكأن المضمون الحقيقى للصورة يقول للمخاطبين على اختلاف مداركهم ، أن قوة الشخص لا تخلو من أحد أمرين : اما أن تكون فى ذاته ، واما أن تكون فى استعانته بشيعته وأنصاره ، واما أن تكون فيهما معا وهذا أقصى ما يتصور من قوة ، فتعالوا وازنوا بين قوة هذا السيد الطاغية الذى

يبهركم ويخيفكم بقوته ، وافترضوا أنه يملك أقصى صور القوة ، وهى القوة فى شخصه ، والقوة فى أنصاره ، وازنوا بين قوته وقوة الله الذى يدعوكم داعى الدين الى الايمان به ، فانكم ستجدون أن طاغيتكم لا حول له ولا قوة أمام قوة الله ، وسيصبح طاغيتكم مستكينا ذليلا ، كانسان مقبوض على ناصيته، مجرور بها بعنف ، وهو خانع مستسلم، هذا عن قوته فى شخصه، فاذا فكر فى الاستعانة بأنصاره أو أتباعه فسيكونون أشد منه ضعفا ، فكما أنه واجه قوة أشد وأعتى منه هى قوة الله ، فلم يستطع المقاومة ، فكذلك أنصاره وأتباعه سيواجهون قوة جنود وأتباع الله لا يستطيعون معهم حولا ولا قوة ، ولعل هذا التصوير اشارة الى قوة المسلمين التى ستمحق فيما بعد قوة طغاة قريش وجموعها ، فان آيات هذه الصورة ضمن سورة العلق ، وهى أول سورة نزلت من القرآن فى مكة ، ولم تكن للمسلمين حينئذ قوة اجتماعية قط ، فيكون هذا نوعا من الحديث عن غيب المستقبل ، وعن نتيجة الصراع بين الشرك والاسلام فيما يلى من الزمان ·

وبالاضافة الى ما تبرزه هذه الصورة الفنية من روعة التصوير الحسى ، وعمق السخرية والتهكم ، فان فيها من الألفاظ ذات الايحاء الزائد عن أداء المعنى الأصلى لها عددا غير قليل ، ومن هذه الألفاظ :

١ ــ لفظ (عبدا) من جملة **(ينهى عبدا اذا صلى)** فان المراد : أرأيت الذى ينهى مؤمنا عن الصلاة ، فان هذا المؤمن لم يرتكب عملا قبيحا ، ولم يؤذ بصلاته أحد ، فبأى وجه ينهاه هذا الطاغية عن الصلاة ؟ ولكن لفظ (عبدا) يؤدى زيادة عن ذلك اشارة دقيقة ، هى ما سبق الحديث عنه من الأوضاع الاجتماعية بين السادة والعبيد ، فالاشارة تتضمن أن هذا العبد الذى يتعرض له الطاغية له سيد يحميه كما لكل العبيد عندهم سادة يحمونهم ، وسيده هو الله سبحانه ، ولو كان التعبير : أرأيت الذى ينهى مؤمنا أو مصليا اذا صلى لما أدى هذه الاشارة بهذا الوضوح ، وحيث كانت سورة العلق التى تضمنت هذا التعبير أول سورة نزلت من القرآن فان لفظ العبد سيكون اشارة الى شخص النبى صلى الله عليه وسلم ، والروايات تؤيد هذا ، وستضيف هذه الاشارة الى الصورة معنى ذا قيمة مؤثرة ، وهى أن الصورة تصور صراعا ضمنيا بين النبى وهذا الطاغية الذى تشير الظروف التاريخية الى أنه أبو جهل ، ونتيجة هذا الصراع أن النبى له قوة هائلة جبارة تحميه ، هى قوة الله وجنوده من المسلمين ، بينما الطاغية حينئذ لا قوة له فى شخصه ، ولا فى أنصاره وأتباعه ·

وهذا من قبيل الحرب المعنوية الموجهة الى كل الأطراف فى الصراع تثبيتا لنفوس المؤمنين ، وخذلانا لنفوس أعدائهم ·

٢ ــ لفظ (يرى) من جملة (ألم يعلم بأن الله يرى) وهو وعيد من الله ، وكان الظاهر أن يقال ألم يعلم بأن الله قادر على اهلاكه أو الانتقام

منه ، أو نحو ذلك ، ولكن بالقياس الى الله سبحانه يكفى أن يعلم كل انسان أن الله مطلع على ما يفعل ، فالرؤية من الله لذاتها كأنها تتضمن كل ما يخافه الخائفون ، وكل ما يرجوه الراجون ، وقد سبقت الاشارة الى شىء من هذا ، ويضاف الى ذلك صيغة المضـــارع فى (يرى) فانهـــا تدل على الدوام والاستمرار بمعنى أن الله مطلع دائما وباستمرار على كل شىء ، لأن السياق حديث عن حدث واحد ، هو نهى الطاغية هذا العبد عن الصلاة ، فـكان المتوقع أن يكون التعبير مثلا ألم يعلم الطاغية بأن الله رأى ما فعله ، فيكون علم الله حينئذ منصبا على هذا الحادث وحده ، ولكن لفظ (يرى) مطلق الزمان بمعنى أنه يرى دائما ، وكذلك حذف المفعول به فى (يرى) فلم يقل يرى ماذا ؟ وحذفه يدل على عموم الرؤية ؟ بمعنى يرى كل شىء ٠

٣ ــ لفظ (الناصية) من جملة **(لنسفعا بالناصية)** فان تعريفه بالألف واللام ذو ايحاء خاص ، حيث أن الحديث منصب على ناصية شـخص معين ، فكان المنتظر أن تسند الناصية اليه ، فيكون التعبير مثلا : كلا لئن لم ينته لنسفعا بناصيته ، ولكن تعبير القرآن **(لنسفعا بالناصية)** معرفا بالألف واللام ، والناصية القمة ، وكأن الألف واللام تشير الى المعهـــود أو الاطلاق ، بمعنى لنسفعا بالناصية المعهودة المعروفة فى أذهانكم والتى لا تلتبس بناصية أخرى ، وكل الملابسات التاريخية تشير الى أنها كـانت حينئذ ناصية أبى جهل ، وأما الاطلاق فيكون بمعنى الناصية على اطلاقها أى أنها ناصية القوم وقمتهم ، أى الزعيم المنفرد بزعامة لا تنافسها زعامة أخرى ، وهى أيضا يومئذ كانت زعامة عمرو بن هشام أبى جهل ٠

وكل هذا اشارة الى عامة الناس بأن أقوى قوة لن تصمد أمام قـوة الله وجنوده ، هذه القوة المتمثلة فى الداعى الى الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله حاميه ، وجاعل من حوله جنودا هم زبانية الله ٠

٤ ــ تعبير (**ناصية كاذبة خاطئة**) يتضمن فى المعنى اسناد الكذب والخطأ الى الناصية ، ومن الواضح أن الناصية وهى شعر الرأس لا يصدر منها عمل ولا توصف بفعل سيىء أو حسن ، ولكن طرافة التصـوير تجعل الخصومة كأنها بين الله سبحانه وناصية هذا الطاغية وليست بين الله والطاغية ، وأن اللوم والتسفيه والعقاب موجه اليها وليس الى الطاغية ، وقد يقال حينئذ ان ذكر الناصية اشارة الى ما ترتبط به الناصية وهو المخ ، والمخ هو مركز القيادة والعقل فى الانسان ، وقد يقال انه لما وجه العقـاب وهو السفع فى ظاهره الى الناصية ، لذلك نسبت الذنوب الى الناصـية مبالغة فى تحقيق العدل من حيث أن العقاب لا يوجه الا الى من يصـدر منه الجرم ، وقد يقال غير ذلك ، ولكن أجمل ما يحمله الأسلوب وما يقـال عنه هو طرافة التصوير ، من حيث تصوير الناصية كأنها شخص عاقل

مكلف يغاضب الله ويتحداه ، فيحدث بينه وبين الله صراع ينتهى ببطش الله به فى صورة السفع وهو الجذب من الله فى عنف وشدة ، دون مقاومة من الناصية ، هذا بالاضافة الى هدف أصلى فى الصورة وهو الاستخفاف بشخص الطاغية نفسه الى درجة محوه من الخصومة والصراع ، وكأنه غير موجود ، فتصبح الخصـــومة والصراع كلاهما مع ناصـــيته وليس معه هو ٠

٥ ـ تعبير (كلا لا تطعه) هـــذا التعبير جاء فى نهاية القصة أو الصورة ، وقد كان المنتظر فى الظاهر أن يكون فى بداية القصة اجابة أو تعقيبا على الآية الأولى وهى (أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى) وقد سبقت الاشارة الى أن كل الملابسات تشير الى أن المقصود بالعبد هو شخص النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا الخطاب (لا تطعه) ترجيح لذلك ، بمعنى لا تطعه فى نهيه اياك عن الصلاة ، وبالتالى لا تطعه فى أى شىء يتعلق بالدين ، ومن القواعد المعروفة عن القرآن أنه وان كان الخطاب أو الحديث خاصا بشخص أو موقف الا أن الحكم عام ، فيما يعرف بخصوص السبب ، وعموم الحكم ، أى أنه مهما كان سبب النزول خاصا فان الحكم يكون عاما ٠

ومؤدى هذا أنه وان كان الخطاب فى (لا تطعه) خاصا بالنبى الا أن حكمه عام يوجه الى الجميع ، وتبقى الملحوظة قائمة ، وهى لماذا أخر التعقيب من أول القصة ليساق فى آخرها ؟ فلماذا لم يكن التعبير أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى كلا لا تطعه ، فأخر التعقيب وهو (كلا لا تطعه) الى آخر القصة ؟

والجـــواب أن أســلوب القـــرآن آثر أن يكشف أولا حقيقة قـــوة هذا الطاغية وأنصاره بجوار قوة الله وجنوده ، ليبين أن قوتهم جميعا لا قيمة لهـــا ، بل لا وجود لها أمام قوة الله وجنوده ، وحينئذ تكون العقول مهيأة لقبول التعقيب عن اقتناع عقلى ، فيأتى التعقيب (كلا لا تطعه) بعد أن تكون العقول مهيأة لتقبله وتنفيذه ٠

(٣)

وحيث كان السادة والزعماء هم العقبة الكئود أمام الدين ، بما يلقونه فى نفوس الأتباع والعامة من الخوف والتهيب أحيانا ، ومن الاكبار لهـــم والاعجاب بهم أحيانا ، فان القرآن يكشف للجميع حقيقة هؤلاء السادة ، ليعلموا أنهم لم يكن لهم أن يخافوا منهم ، ولا أن يعجبوا بهم ، لأن كل ما يرونه منهم من مظاهر العظمة المصطنعة انما هو تكلف يغطون به حقيقتهم

غير السوية ، ويغطون به ما لو اطلع عليه الناس لنفروا منهم بدل أن وخافوا أو يعجبوا ، ولو كان هؤلاء السادة يحملون طبائع سوية لما وقفوا في وجه الدعوة الى الخير ، وهى دعوة الدين ، ولذلك فان ذوى الطبـائع السوية منهم ـ وان كانوا قلة ـ لا يترددون فى الاستجابة لدعوة الدين ، كما حدث فى كل العصور ، من أمثال مؤمن آل فرعون ، ومن أمثال خطيب أنطاكية التى جاءها المرسلون كما فى سورة يس ·

وفى هذه الصورة يكشف القرآن حقيقة مظهر من المظاهر التى يشيع بين السادة التكلف فى الظهور به بين الناس ، وهو اصـــطناع العظمة والتعالى على الناس بشموخ الأنف واعوجاج العنق ، فى قوله تعالى :

[ولا تصعر خدك للناس ·····] (٩)

اللغـــة :

الصعر (بفتح الصاد والعين) أبرز مدلولاته عنـد العرب أنه مرض يصيب الابل فيلوى أعناقها ، فيصبح الجمل المريض بالصعر معوج العنق، يمشى وصدره الى أمام ، بينما عنقه مائل الى جهة أخرى ·

الســـياق :

هذه الصورة الساخرة جاءت فى سياق تحذير لقمان وهو يحذر ابنه من هذا المظهر ومن مظاهر أخرى سيئة ·

وهذا المظهر مرتبط بالكبرياء والغرور ، والكبرياء لا يصدر عادة الا ممن له منزلة فى المجتمع ، بحيث يكون سيدا أو وجيها ذا نفوذ ، ولذلك جاء هذا الوصف على لسان لقمان فى سياق يوحى بأن صاحب هـــذا السياق لابد أن يكون له شأن فى المجتمع ، وهذا الشأن قد يدعوه الى الكبرياء والخيلاء ، فهو يحذره من أن يقع فى المسلك القبيح ، وهـــذا الســـياق هو :

[يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر
واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ،
ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا
ان الله لا يحب كل مختال فخــور]

فلقمان يوصى ابنه ، وهو بطبيعة الحال يتوقع أن ينفذ ابنه وصيته ، فاذا نفذها فلابد أن يكون عظيما فى الدين والدنيا ، وذلك أن تعبير (اقم

---

(٩) ١٨ سورة لقمان ·

الصلاة) زائدة فى المعنى عن (صل) فلفظ **(صل) أمر بالصلاة فقط** ، ولكن **(أقم الصلاة)** أمر ضمنى بشيئين ، بالصلاة ، وبأن تكون الصـــلاة قويمة لا خلل ولا اعوجاج فيها ، ومن يصلى بهذه الصورة فهو عميق الايمان ، ينتظر له شأن فى الايمان والدين ، ثم يؤثر هذا فى سلوكه وخلقه بين الناس من باب :

[ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر] (١٠)

فيصبح محبوبا مرموقا بين الناس ·

ثم اذا نفذ وصية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلابد أن يكون له شأن فى مجتمعه ، حيث يفتقدونه كلما هموا أو احتاجوا الى عمل خير ، لأنهم يعلمون عنه أمره بالمعروف ، وكذلك يتهيبون منه حينما يهمون بمنكر ، لأنهم يعلمون عنه نهيه عن المنكر ففى كل حال من الخير والشر يكون هذا الشخص ماثلا فى أذهانهم بأهميته وتأثيره ، وهـــذه من قمم المنـــازل فى المجتمـــع ·

ثم اذا نفذ وصية الصبر **(واصبر على ما اصابك)** لابـد أن يكون قويا ، لأن الصبر انما هو قوة احتمال وقوة مقاومة ، وبمقدار نصيب المـــرء منهما يكون نصيبه من القوة ، واذن فالذى يتمكن من صفة الصبر لابد أن يكون قويا ·

وخلاصة هذا كله أن ابن لقمان لو نفذ الوصايا السابقة فلابد أن يكون ذا منزلة بين الناس فى مجتمعه ، سواء فى خلقــــه ، وفى سلوكه الاجتماعى ، وهذه المنزلة قد يتغلغل تأثيرها فى نفس صاحبها ، خصوصا حينما يرى الناس يزدادون تقديرا له واعجابا به ، أو تهيبا اياه ، فقد يسرى فى نفسه الغرور ، وتنمو فيها الخيلاء حتى تسيطر على صاحبها ، فيزهو على الناس ، ويختال عليهم تكبرا وغرورا ، فلقمان يحذره من هذه النتيجة بقوله **(ولا تصعر خدك للناس)** فعليه أن يبتعد عن هذه السبيل التى توصله الى هذه النتيجة ، وهذه السبيل هى الخيلاء التى تنبع من اغترار الانسان بمنزلته وشخصه بين الناس ، فيعطى لنفسه قدرا فوق قدرها الذى تستحقه، وهذا المعنى هو مضمون قوله تعالى على لسان لقمان :

[ولا تمش فى الأرض مرحا]

---

(١٠) ٤٥ سورة العنكبوت ·

فان المراد بالمرح هنا الخيلاء والزهو ، لأن هذه الصفة انما تنبع من مبالغة المرء فى الفرح بنفسه وبمزاياه ، ولذلك كان التعقيب على ذلك :

[ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخــور]

ومن هذا يتبين أن لقمان يحذر ابنه من الكبرياء والخيلاء ، ويترتب على هذا أن تصعير الخد الذى يحذره منه هو مظهر للخيلاء وكناية عنها ٠

ومن الواضح أن كل ما يسوقه القرآن من أخبار الأولين خيرها وشرها انما يسوقه ليعتبر به المعاصرون ، فالقرآن يسوق وصية لقمان لابنه مساق الرضا عنهـا ، والدعـــوة الضـمنية للتأسى بهـا على أســاس أنها نموذج يحتـــذى ٠

الصــــورة :

[ولا تصـــعر خدك للناس ٠٠٠]

من الدلالة اللغوية ، ومن مشاهد البيئة المألوفة ينسج أسلوب القرآن هذه الصورة ، فالعرب أعرف الشعوب بالابل وبأمراضها وأدويتها الشعبية، ومنها هذا المرض العضوى الذى يصيب عنق البعير ، فيفقد العنق استقامته، ويصبح معوجا منحرفا ، وبالتالى تفقد الرأس استقامة الاتجاه ، فيمشى الجمل المريض بهذا المرض ، وجسمه وصدره فى اتجاه ، بينما عنقه فى اتجاه آخر منحرف عن اتجاه جسمه وصدره ٠

وأسلوب القرآن ينقل هذا المنظر المألوف لهم فيصور به الشخص المتكبر الذى يختال على الناس فى تعال وغرور ، وذلك أنه من المألوف أن الشخص المختال يصطنع فى مشيته بين الناس مظهرا متكلفا ، يحـــاول فيه الشموخ بأنفه والصدود بوجهه عن الناس ، ويكون ذلك بصورة ظاهرة يلحظها كل من يراه ، حتى ان العامة يتخذون من هذا المظهر كناية عن التعالى والخيلاء ولهم فى ذلك تعبيرات عامية نحو (فلان عاوج رقبته) وهو ذات الصورة الساخرة التى يصورها القرآن حيث يرسم الشخص المختال فى صورة الجمل المريض بهذا المرض الذى يجعل عنقه معــوجا ومنحرفا عن اتجاهه القويم ، والذى يعرف عندهم بمرض الصعر ، فاشتق منه (ولا تصعر خدك للناس) ٠

والتشبيه واضح التطابق والتماثل بين المشبه وهو المختال بهيئته هذه ، والمشبه به وهو الجمل المريض بالصعر ، فكلاهما يتخذ مظهرا شاذا غير سوى ، يتمثل فى النهاية فى اتخاذ الرأس وضعا نابيا عن الوضـــع

العادى ، ولهذا فهو وضع مثير للتندر والسخرية ، لأن الجمل المريض بالصعر شاذ فى شكله عن سائر الابل ، ومصدر الاهتمام بهذا الشذوذ أنه يتمثل فى أهم عضو وهو الرأس ، فلو كان عرجا فى الرجل ، أو عورا فى العين أو نحو ذلك لم يكن بالغ الغرابة ، ولكن الطرافة تتركز فى هـــذا التناقض ، أن يكون الجسم متجها الى جهة ، والرأس بما يحملها من العنق متجهة الى جهة أخرى ٠

والطرافة دائما انما تنبع من مفاجأة السامع أو المشاهد بعكس ما كان يترقع ، أو بشىء غريب فى تصوره ، فأنت مثلا حينما تصف فرسا ، فــكل ما تسوقه من أوصاف الخيل المألوفة مهما بالغت فيها فالسامع قد لا يجد فيها غرابة ، ولكن الغرابة أن تفاجئه بمثل قولك ثم أسر الفرس الى فى أذنى بكذا وكذا ، أو ثم وقف الفرس فألقى خطبة ، فبصرف النظر عن الحكم الخلقى على هذا القول الا أن الطرافة فيه تتركز فى مفاجأة السامع بفجوة تصطدم بتوقعه وتسلسل تفكيره ، وتفكيره حينئذ يتابع أوصاف خيل ، فاذا هو يصطدم فجأة بأوصاف بشر ٠

وشكل الابل مطبوع فى خيال السامع على أنها مستقيمة الخلق فى اتجاه واحد حين تمشى ، فحين يفاجأ برؤية جمل بعضه فى اتجاه ، وبعضه فى اتجاه آخر ، حينئذ تكون الغرابة والطرافة التى تدفعه الى التندر والتفكه احيانا ، والى الضحك احيانا أخرى ٠

وكذلك حال المتكبر المختال ، فانه من البدهى أن صورة الآدمى القويم ماثلة فى الذهن ، فحين يفاجأ بشخص يتخــذ من مظهــره وضعا مخالفا للصورة الماثلة فى ذهنه فانه سيشعر بما يشعر به حين يرى جملا مريضا باعوجاج العنق ٠

وحى الألفــاظ :

ومما توحيه ألفاظ هذه الصورة الساخرة على ايجازها من دقة زائدة على المعنى العــام ما يلى :

١ ــ لفظ (تصعر) وهو بضم التاء وكسر العين المشددة ، وقد سبق توضيح أن المراد به تشبيه مظهر المختال فى هذه الصورة بجمل مريض بالصعر ، ولكن دقة لفظ (تصعر) تأتى من اسناد الفعل بهذه الصيغة الى المختال ، فالعيب يتركز فى أن الشخص هو الذى يصطنع هذا المظهــر اصطناعا ، بمعنى أننا لو افترضنا أن شخصا كان تكوينه الجسمى بطبيعته بهذا الشكل دون أن يكون له دخل فى اصطناع هذه الهيئة فلا عيب فيــه

ولا مسئولية عليه ، فلو قيل مثلا احذر أن يكون مظهـــرك بين الناس كالصعر ، أو تجنب هيئة الصعر ، أو نحو ذلك فان مثل هذا لا يحمل المرء مسئولية مظهره بالصورة التى يحملها اياه تعبير (تصعر) لأن لفظ (تصعر) يعنى أن الفعل وهو التصعير صادر من الشخص نفسه ، بل صادر منــه بقوة كما يفيد ذلك تضعيف العين المشددة ، ولو قيل لا تصعر بضــم التــاء وكسر العين بدون تشديد لافادة صدور الفعل من الشخص ولكن بغير قوة أو اصرار كما يفيده التضعيف فى صيغة القرآن ·

ومؤدى هذا أن العيب ليس فى الهيئة نفســـها ، ولكن فى تكلفها واصطناعها ·

وهذه الدقة فى التعبير لها أهمية كبيرة فى المجال النفسى ، فان التكلف الذى يفيده لفظ (تصعر) يدخل صاحبه فى مجـــال الأمراض النفسية ، فانه من المعروف فى البحوث النفسية أن التكلف فى الظهور بأى شىء دليل على الشعور بالنقص فى هذا الشىء ، وبمقدار الحرص على التكلف فيه يكون الشعور بالنقص ، فالذى يتباهى دائما بالشجاعة فى صورة التكلف انما يدل على شعوره بنقص فيها ، والذى يتمـدح دائما بالأمانة متكلفا فى حديثه عنها انما يدل على شعوره بفقـــدان الأمانة فى نفسه ، وهكذا ، ولو كان يشعر بالثقة فى نفسه فى صـــفة ما كان فى حاجة الى المبالغة فى اثباتها لنفسه ، لأن نفسه مليئـــة بالشعور بها فليست فى حاجة لأن تعلن عنها بتكلف ، بل غالبا ما يحاول الشخص الواثق من نفسه فى صفة أن يحاول التقليل من قيمتها أو من نصيبه منهـا ·

واذن فاصطناع هذا المظهر الذى يشبه الجمل المريض بالصعر لا يدل على عظمة أو قوة أو سيادة ، بل على العكس من ذلك ، انمـا يدل على شعور مؤكد بالنقص فى شىء يتعلق بما يحاول المبالغة فى اثباته لنفسه ، فاذا كان بهذا يريد أن يثبت للناس القـوة أو العـلو عنهم فلابد انه يشعر فى دخيلة نفسه بعكس هذا فى جانب من الجوانب · ومن روائع القرآن وقوف البحوث العلمية دائما عنده ، فالقرآن يصف هـذا المظهر بأنه مرض ، والبحوث العلمية النفسية تؤكد أنه فعلا مرض ، غاية الأمر أن القرآن يبرزه فى صورة مرض عضوى وعلم النفس فى صـورة مرض نفسى ·

٢ ـ لفظ (خدك) رغم أنه يبرز الصورة الواقعية المشاهدة فى حالة الاختيال والصدود عن الناس بالوجه الا أن ألفاظا أخرى كان يمكن

أن تؤدى معنى الصعر ، فقد كان يمكن أن يكون التعبير مثلا ولا تصعر وجهك أو رأسك أو عنقك ، فكل هذا يؤدى معنى الصعر ، ولكن اختيار الخد بالذات بالاضافة الى ابرازه الصورة الواقعية للصعر ، وبالاضافة أيضا الى أن الخد من أهم أعضاء الوجه فى تحديد شكل الوجه ومدى نصيبه من الحسن والاستقامة فانه فوق ذلك يوحى بمعنى دقيق يمكن أن يلحظ بوضوح اذا نظر اليه من زاوية السخرية ، وهو أن السياق فى الصورة سياق تنفير من هذا السلوك وتقبيح اياه ، وهذا التقبيح وان كان فى الواقع منصبا على الشخص الا أن الأسلوب يجعله منصبا على الخد بالذات (ولا تصعر خدك) وحينما يذكر الخد فى سياق تقبيح أو لوم أو عقاب فأول ما يتبادر الى الذهن ارتباط الخد بالصفع عليه ·

وأسلوب التصوير فى القرآن يجعل قبح الصعر كله منصبا على الخد ، فلن يكون غريبا أن يسرع الى ذهن السامع أن هذا الخد يستحق الصفع ، وهذا الايحاء وان كان زائدا عن أصل المعنى الا أنه حينما يصل الى ذهن السامع يسهم اسهاما كبيرا فى تحقيق الهدف من الصورة كلها ، حيث ان الهدف هو حشد كل عوامل التنفير والتقبيح لهذا الخد المصعر ·

٣ ــ لفظ (للناس) من جملة الصورة وهى **(ولا تصعر خدك للناس)** يتركز فيه الهدف من الصورة كلها ، وذلك أن هذا المظهر الذى ينفر منه القرآن له وجهان فى العيب ، أحدهما من حيث انه نقيصه فى الخلق السوى لصاحبه ، والآخر أن صاحب هذا المظهر يستخدمه فى ايذاء كرامة الناس ومشاعرهم ، وبالقياس الى الدين فان هذا المظهر من وسائل الصد عن سبيل الله ، وفتنة الناس بالتأثير النفسى عليهم فى محاولة اخضاعهم وجرهم بعيدا عن الدين ، بما يلقى فى نفوسهم من مشاعر الاعجاب أو الارهاب ·

ولو أننا تصورنا شخصا بلغ به الاعجاب بنفسه أو الزهو بها ما بلغ ، واتخذ من المظاهر نتيجة لذلك ما اتخذ ، ولكنه يفعل ذلك فى عزلة عن الناس ، ولا يظهرهم على شىء منه ، فان ذلك رغم قبحه الا أنه لا يدخل فى نطاق ماتهدف اليه الصورة الساخرة فى القرآن ، فان الصورة منصبة على اتخاذ هذا المظهر وسيلة للتعالى على الناس ، والتحذير فيها منصب على هذا المعنى ، ولفظ (للناس) من جملة **(ولا تصعر خدك للناس)** هو الذى يفيد هذا المعنى ، ولو أنه قيل ولا تصعر خدك بدون ذكر لفظ الناس لما أفاد هذا المعنى ، وانما يصبح من باب النهى عن الغرور والتكبر النفسى ، وهذا يدل عليه المعنى التالى فى الآية ، وهو :

[ولا تمش فى الأرض مرحا]

الأثـر :

ومثل هذا التصوير فى القرآن له أهمية كبيرة فى الاسهام فى ازالة العقبات أمام الاسلام لنشره ، فانه من المعروف أن السادة ، والرؤساء كانوا العقبة الكبرى أمام نشر الاسلام ، ولذلك ظل الاسلام فى مكة محاصرا بسياج هؤلاء الزعماء ، فلم يستطع أن يتحرك وأن ينتشر الا حينما انفلت من قبضتهم وانتقل الى المدينة حيث لم يكن هناك للسادة من صرامة التحكم الاجتماعى ما كان لزعماء مكة وسادتها ٠

وهذه الصورة الساخرة تسهم فى كشف القناع عن حقيقة كثير من هؤلاء السادة الذين يلقون فى نفوس العامة ألوانا تمتـــزج فيها الهيبة بالاعجاب والرهبة ، وتكون الحصيلة الانقياد لهم اما اعجابا بهم ، أو تهيبا وخوفا منهم ٠

ولكن سخرية القرآن تكشف للعامة ان ما يرونه من مظاهر كثيـر من السادة انما هو مرض يشبه ما يرونه من بعض امراض الابل ٠

والقرآن كان سريع الانتشار حتى من باب طبيعة العرب فى تناقل الكلام البليغ لذاته ، فصورة كهذه ستتناقلها كل الأسماع ، وبدل ان كانوا ينظرون الى أصحاب هذا المظهر نظرة تهيب أو اعجاب سينظرون اليهـم نظرة سخرية ولو فيما بينهم وبين انفسهم ، فتكون هذه بداية ازالة الغشاوة التى تحجب عنهم الايمـان ٠

سخرية القرآن وأعداء النبى

وأعنى بأعداء النبى صلى الله عليه وسلم الذين يحملون له عـداوة شخصية خاصة فوق عداوتهم له بوصفه مرسلا من الله ، فكل الذين رفضوا الاسلام وقاوموه هم أعداء لله وللنبى ، ولكن عداوتهم أصلا تتركز فى نفورهم من الدين الذى يدعو اليه الرسول ، بحيث لو كف عن دعوته لانتهت العداوة فيما بينهم وبينه ، وهذا ما كانوا يطلبونه منه ويلحون فى طلبه ، بل كانوا يغرونه بأن يعطوه ما يريد من مال أو ملك أو سيادة لو كف عن دعوته ، فيما هو مشهور فى الروايات ٠

ولكن بعضا منهم كان يحمل فى نفسه حقـــدا وغلا لشخص النبى صلى الله عليه وسلم لذاته ، أما حسدا كما يشير القرآن الى ذلك بوضـــوح فى قوله تعـــالى :

[أم يحسدون النـــاس على ما آتاهم الله من فضـــله] (١)

والسياق كله فيما يعرفه المفسرون يشير الى اليهود وهم الحاسدون ، والى أن المراد بالناس المحسودين شخص النبى ، ولذلك كان تعقيب القرآن على هـــذا :

[٠٠٠ فقد آتينا آل ابراهيم الكتـــاب والحكمـة وآتيناهم ملكا عظيما]

---

(١) ٥٤ سورة النساء ٠

أى ان كانوا يحسدونه على النبوة فلم يكن هو أول نبى أرسله الله ، وان كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من ملك فلم يكن أيضــا أول نبى آتاه الله جاها وملكا ، بل سبقه من آل ابراهيم الذين تعرفونهم وتنتمون اليهم انبياء كثيرون وملوك ذوو ملك عظيم ٠

وقد تكرر الحديث عن الحسد فى القرآن ، وفى بعضه كسورة الفلق ما يوحى فى ظاهره كأنه خطــاب له ثم لغيــره أن يستعيذ بالله من شر حاســـديه ٠

وكل هذا يعنى أن الحسد لشخص النبى ، ولما آتاه الله من فضل كان عنصرا من عناصر العداء للنبى ، والمواجهة العنيفة التى حدثت بينه وبين أعدائه ٠

وقد عرف التاريخ أشخاصا غير قليلين من أعداء الاسلام كان أساس عداوتهم هو الحقد الشخصى على محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء فى قريش وفى غير قريش ، كانوا يحسدونه على ايثار الله اياه بمجد النبوة ، ولكن الذين كانوا فى غير قريش كانوا أخف وطأة لبعدهم عنه ، فمنهم من انطوى على نفسه يجتر حقده بشعره بين قومه ، كأمية بن أبى الصلت الثقفى ، ومنهم من حاول منافسة النبى فادعى النبوة كمسيلمة الكذاب ، الذى لم يظهر خطره الا بعد وفاة النبى فى حروب الردة ٠

ولكن الذين كانوا يواجهون النبى بما ينجم فى نفوسهم من عوامل الحقد الشخصى هم الذين كانوا فى قريش ، وكانت مواجهتهم هــذه بما يصدر عنها من قبيح القول وسوء الفعل تؤذى نفس النبى صلى الله عليه وسلم ويضيق بها صدره ، ومنها ما يؤكده القرآن فى قوله تعالى :

[ولقد نعلم انك يضيق صدرك بمــا يقولون] (٢)

كما كان لهذه المواجهة أثر كبير فى صدود الناس عن استماعهم للنبى حين يدعوهم الى الله ، وكان منطق القبائل فى ذلك أن أهل محمد وقرابته من قريش أعرف به ، فاذا كانوا هم يكذبون فنحن أولى بتكذيبه ، وكان منطق الناس فى مكة نفسها انه اذا كان اقرب الناس اليه مثل عمه الشقيق عبد العزى بن عبد المطلب ابى لهب يكذبه فنحن اولى بتكذيبه ٠

ومن المعروف عن خلق النبى صلى الله عليه وسلم انه لم يكن يغضب لنفسه قط ، فكان يكظم فى نفسه كل غيظ ، ويكتم فى قلبه كل ألم فيما يتعلق

---

(٢) ٩٧ سورة الحجر ٠

شخصه ، ولكن الله لم يكن ليتركه فى هذا الضيق ، فكان القرآن يتولى عنه الرد بما لم يكن هـــو ليبلغه أو يبلغ أثره فى نفـــوس أعدائه ونفوس أتباعه معا ٠

وقد صور أسلوب القرآن بعض رده على أعداء الرسول فى سخرية موجعـــة ٠

فمن هذه الصـــورة :

(١)

[٠٠٠ ان شـــانئك هو الأبتر] (٣)

اللغـــة :

الشانىء : المبغض وشانئك يعنى مبغضك ٠

الأبتر : مقطوع الذنب ، وهو لا يكون بالضرورة الا من الحيـوان الأعجـم ٠

الســـياق :

والسياق يتمثل فى سورة من أقصر سور القرآن وهى سورة الكوثر :

[انا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، ان شانئك هو الأبتـر]

والكوثر فى اللغة صيغة مشتقة من الكثرة ، بمعنى الشىء الكثير ٠٠
وانحر أمر بالنحر وهو كالذبح ، غير أن الذبح يكون بالقطع فى الرقبة ، والنحر يكون بالطعن فى اللبة ، وهى ملتقى الصدر والرقبة فيما بين الترقوتين ٠

وقد اختلف المفسرون فى كل دلالات ألفاظ هذه السورة اختلافا كبيرا حتى لم يعد فيها معنى متفق عليه ، وذلك لأنهم يحاولون فهم كل لفظ أو كل جملة مستقلة عما سواها ، فتبدو السورة حينئذ رغم ايجازها المكون من آيات ثلاث قصار وكأنها لا رابطة بين آياتها ٠

ولكننا اذا نظرنا اليها نظرة كلية من خلال الهدف الأصلى لها لا نجد ما يدعو الى خلاف حول معانيها العامة ، وستكون دلالاتها واضحة ظاهرة،

---

(٣) آخر سورة الكوثر ٠

وذلك أن الهدف الأصلي للسورة كلها أنها مواساة للنبى صلى الله عليه وسلم ودفاع عنه ، حيث كانت هذه السورة من أوائل الســور التى نزلت بمكة فى بدء الرسالة النبوية ، والنبى حينئذ يكاد يكون وحيدا الا من بضعة نفر ضعاف يستخفون بدينهم ولا يستطيعون الظهور ، فكانت هذه الحقبة فى أول الاسلام أقسى الحقب على نفس النبى ، وقد لقى فيهـــا من الأذى والهوان ما لا تطيقه نفس كريمة لولا ما آتاه الله من حلم راسخ لا يتزعزع مهما تناوشته العواصف ، فحين يضيق صدره بما يقولون وما يفعلون ، وحين يشعر بأنه ضعيف فى مجتمع شانىء حاقد ، لا سند له ولا جوار ، الجميع عدو ، والجميع يحذر أن يجيره أو يحميه ، حينئذ يواسيه ربه ، ليقوى عزمه واحتماله ، بما يذكره من نعمه وفضله عليه ، وما يعــده به من النصر على شانئيه ٠

ومن الملحوظ الواضح أن السورة كلها تتميز بأنها خطاب خـــاص بشخص النبى صلى الله عليه وسلم فى منحى خاص ، هو الهجوم المبـــاشر على الذين يعادونه لشخصه فضلا عن عداوتهم اياه لنبوته ، فكانت عناصر السورة كما يلى :

١ ـ تذكير للنبى بما أفاض الله عليه من فضله ونعمه ، ويكفى من ذلك نعمة النبوة التى كانت مصدر الحسد من حاسديه وشانئيه ، والتى لا توزن بها ولا تدانيها نعمة ، فكان تعبير (انا أعطيناك ٠٠) والعطاء حينما يريده الله ولو كان فى المستقبل يصبح كأنه واقع فعلا ، والقرآن يستخدم المستقبل بالقياس الى الله فى صيغة الماضى كقوله تعالى :

[أتى أمر الله فلا تستعجلوه ٠٠] (٤)

وأمر الله هو يوم القيامة ، وهو لم يأت ، ولكن حيث قضاه الله فكأنه أتى فعلا ، ومما يؤكد أنه عن شىء لم يقع تعبير (فلا تستعجلوه) ولو كان قد وقع فلا معنى اذن لاستعجاله ٠

ولكن عطاء الله لرسوله لم يكن النبوة وحدها ، وانما أعطاه عطاء عظيما فى كل ما يتمناه مثله ، سواء فى شخصه من الخلق العظيم وغيره، أو فى منزلته بين الناس حتى قبل النبوة ، وفى غير ذلك ، ولهذا كان التعبير عن هذا العطاء بالكثرة (الكوثر) وليس بالكبر والضخامة ، ففى الدقة اللغوية فرق بين أن نقول عطاء كثير ، وأن نقول عطاء عظيم ، فالكثرة تقتضى التعدد العددى ، أما الكبر والضخامة فلا يلزم فيها التعدد ، بل تصدق على الواحد ، فاذا قلنا خير كثير فلابد أن يكون متعدد الأنواع ،

---

(٤) أول سورة النحل ٠

اما اذا قلنا خير عظيم ، فهذا يصدق على نوع واحد من الخير ولكنه نوع عظيم ، والتعبير فى السورة (**انا أعطيناك الكوثر**) أى اعطيناك خيـرا متعددا وليس خيرا واحدا ·

ويضاف الى ذلك وعد الله اياه بالعطاء المطلق فى المستقبل كقـوله تعـالى :

[ولسوف يعطيك ربك فترضى] (٥)

وكأن الله يقول له ان كان صدرك قد ضاق بأذى أو ابتـلاء فلا تظنن أن نصر الله وتأييده قد تزحزح عنك ، بل :

[ما ودعك ربك وما قلى] (٦)

ولا تنسى :

[انا أعطيناك الكوثر]

٢ ـ كل ما يحيط بك من نفور المجتمع ، ومن حملة الشانئين عليك ، لاينبغى أن يؤثر فيما أنت فيه من صلتك بربك ، وعبادتك اياه ، ودعوتك اليه ، بل احرص على ما أنت عليه ، ولذلك كان تعبير (**فصل لربك وانحر**) والأمر بالصلاة واضح ، ولكن الأمر بالنحر مما حير المفسرين ودعاهم الى الاختـــلاف فى دلالته ، ومـــع أنه لا غـــرابة فى حمله على أنه من باب (**اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**) بمعنى أن تعبير (**فصل لربك وانحر**) يكون أمرا بالصلاة وبالزكاة فى نوع منهـا وهو زكاة الماشـــية ، لأن الزكاة بتفاصيلها الشرعية لم تكن قد شرعت بعد ، وانما كان مظهرها هو الاطعام والانفاق فى سبيل الله بصفة عامة ، أقول مع أن مثل هذا الاحتمال غير بعيد ، الا أن ارتباط الأمر بالنحر (انحر) بما بعده وهو الشانىء الأبتر ، وخصوصا لفظ (الأبتر) وقد يجعل له اشارة ذات دقة كبيرة ، وذات اسهام كبير فى الصورة الساخرة كما سيأتى ·

الصـــورة :

تتركز الصورة الساخرة فى جملة (**ان شانئك هو الأبتر**) والشانىء هو المبغض ، والأبتر هو مقطوع الذنب ، والذنب لا يكون فى الانســان ، وانما يكون فى الحيوان الأعجم ، والتعبير مصدر بلفظ تأكيد هو (ان) ومؤدى ذلك أن القرآن يرسم لهذا المبغض لشخص النبى صورة بالغــة

---

(٥) ٥ سورة الضحى ·

(٦) ٣ سورة الضحى ·

التشويه كما أن القبح كان من مرحلتين فى القبح وليس مرحلة واحدة ، احداهما أنه ينزل من الآدمية الى صورة الدواب السائمة ، فتصبح صورته فى الذهن حيوان أعجم ، ولكن تصوير القرآن ينزل به أيضا مرحلة أخرى عن صورة الحيوان الأعجم فى وضعها السوى ، فيجعله حيوانا مشـوها بقطع ذنبه ، فاذا هو أبتر فلفظ (أبتر) لا بد أن يصور فى ذهن السـامع العربى صورة حيوان مقطوع الذنب ، وحتى لو شبه الشانىء به تشبيها فقيل انه كالأبتر ، أى كالحيوان المقطوع الذنب فلابد أن ترتبط به صـورة الحيوان الأعجم ، ولكن تعبير القرآن ليس تشبيها وانما هو تأكيد لشىء واقع فعلا ، على أساس أن جوهر هذا الشانىء وحقيقته المعنوية هى كهذا الوضع ، وان بدا فى شكله وتكوينه الجسدى آدميا عاقلا سويا ·

والسخرية من هذا الشانىء فى هذا التصوير أوضح من أن تحتاج الى بيان ، خصوصا وأن الشانئين لشخص النبى لم يكونوا من عامة الناس ، بل ولا من السادة العاديين ، وانما كانوا من قمم السادة حيث كان منبع بغضهم للنبى وحسدهم اياه أنهم لم يكونوا يرون أحدا أحق منهم بأية منزلة اجتماعية مهما علت ، وهم يعرفون قبل غيرهم أن وضع النبى صلى الله عليه وسلم فى النبوة لا يدانيه وضع اجتماعى ، مهما بدا فى أول أمره محاصرا أو ضعيف المنزلة الاجتماعية ، فان أبا جهل مثلا كان أسـبق الناس احساسا بقيمة النبوة ومنزلتها ومستقبلها ، ولذلك شن حـربه العاتية المبكرة على النبى ودعوته منذ بدايتها ، وفى الوقت الذى كان فيه كثير من السادة لا يرون فى محمد أو دعوته خطر عليهم ، فهو مسـالم وادع ، لا يستخدم الا لسانه وخلقه الطيب ، ولكن أبا جهل كان أبعد نظرا وأدق توقعا لقيمة النبوة ومستقبلها ، وقد كان المفروض أن يدعوه هذا الى الايمان ، ولكن العائق الوحيد فى نفسه أنه كان يرى نفسه أحق من محمـد صلى الله عليه وسلم بالنبوة وبأية منزلة عالية ، فامتلأ قلبه غيظا ونقمة على شخص النبى ودعوته ·

ولم يكن أبو جهل وحده هو الذى يحمل هذا الحسد وهذا التطلع كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وانما كان أبو جهل أبرزهم وأشدهم حقدا وحسدا واذن فالذين تعنيهم هذه الصورة الساخرة فى القرآن كانوا من أبرز القمم فى المجتمع ، وبالتالى فان السخرية من أحدهم ستكون أشد ايلاما لصاحبها من جهة ، وأشد اثارة لنفوس السامعين فى المجتمع من جهة أخرى ، فكيف يتصور هذا الزعيم الكبير نفسه حيوانا مقطـوع الذنب ؟ فيجمع بين نقيضتين ، أن يكون حيوانا أعجم ، وأن يكون هذا الحيوان مشوها بقطع ذنبـه ·

وكيف يتصور السامعون هذا الزعيم الذى تمتلىء نفوسهم اعجابا به واكبارا له فى هذه الصورة المزرية المضحكة ؟

ومهما يبلغ السامعون من سذاجة أو سطحية فى التفكير فلابد أن تراود نفوسهم بعض المشاعر ، ومنها :

١ ـ اهتزاز الصورة الضخمة الثابتة التى رسموها لهذا السيد فى نفوسهم ، وعلى أيسر الفروض أن يسائلوا أنفسهم : هل هذا السيد العظيم شىء أو قبيح حقا بهذه الصورة التى سمعوها ؟ ان كان كذلك أو حتى دون هذا القبح بكثير فكيف يعجبون به هذا الاعجاب ؟ وكيف ينقادون له أو يخافون منه ؟ ومبدأ استخدام عقولهم لذاته هدف جوهرى فى الاسلام ، فحين يستخدمون عقولهم بتجرد من المؤثرات لابد أن يصلوا الى الدين ، ولذلك يركز القرآن تركيزا شديدا فى اثارة عقولهم للتفكير ، ومن وسائله الواضحة فى القرآن حينئذ أمران :

(أ) الدعوة الملحة والمتكررة الى استخدام العقول فى كل شىء ٠

(ب) صياغة كل ما يدعو اليه القرآن فى صورة أسئلة تتكرر فى أساليب مختلفة للاجابة عنها ، وهذه الاجابة أيا كانت صحيحة أو خاطئة لابد لها من تفكير ، فاذا كانت صحيحة فهى الحق ، وان كانت خاطئة وجدت من يراجعها فيعاود صاحبها أيضا التفكير ٠

٢ ـ اذا كان هذا السيد العظيم ليس معيبا ولا قبيحا كما تصوره هذه الصورة الساخرة ، فمن الذى جرؤ على تشويهه والاساءة اليه بهذا التصوير البالغ السخرية والاهانة ؟ والسادة عندهم يملكون نواصى القوة، ولكن هذا السيد يعلو فوق السادة ، فهو اذن قمة القوة ، فالذى يجرؤ على المساس به فضلا عن تشويهه بهذه الصورة لابد أن يكون أقوى منه بكثير ، فمن هذا الأقوى ؟ ولن يكون الأقوى حينئذ محمدا أو أصحابه ، انهم من المستضعفين (٧) فأين اذن هذه القوة التى برزت فعلا ونالت من هذا السيد العظيم بهذا التصوير الساخر ؟ ان محمدا يقول انه الله فهل حقا هو الله ؟ واذا كان حقا فمن هو الله ؟ وهكذا فى تسلسل عقلى يؤدى الى الايمان بالله ، وهذا ما يريده القرآن من دعوته الدائمة الى استخدام العقول ٠

وحينما تستقر العقول على القرار الصحيح وهو الايمان فستجد أن هذا التصوير الساخر فى القرآن ليس خيالا ولا مجافاة للحقيقة ، وانما

(٧) هذا لمراعاة أن سورة الكوثر من أوائل السور التى نزلت فى بدء الاسلام بمكة ٠

هو تصوير واقعى ، غير أنه من الداخل وليس من الخارج ، بمعنى أن القرآن يصور الذين يسخر منهم أو يهون من شـــانهم فتكون الصورة لمعنوياتهم وليس لحسياتهم ، وجوهرهم الحقيقى فى عقولهم ونفسـياتهم هو بهـذا الشكل ٠

فالقرآن يؤكد أن المشركين كالأنعام ، وواضح أنهم ليسوا كالأنعام فى أجسادهم وانما فى عقولهم ، بل يؤكد القرآن أنهم أسوأ من الأنعام ، كقوله تعـالى :

[ان هم ألا كالأنعام بل هم أضل سبيلا] (٨)

من حيث أن الأنعام تؤدى وظائفها وتهتدى لما يلزم حياتها من تلقاء أنفسها ، أما هم فيعتمدون الضلال عن الفطرة التى خلقوا عليها ٠ وهذا المضمون يكاد يطابق الصورة الساخرة التى نحن معها ، وهى (ان شانئك هو الأبتر) حيث أنه حيوان أعجم ، بل أسوأ وأقبح من ذلك بأنه مشوه بقطع ذنبه ، فهو حيوان ولكنه ينزل عن درجة الحيوان العادى بأنه مشوه ٠

وهذا الزعيم الكبير هو فى وضعه الدينى كذلك ، لأنه لا يسـتخدم عقله استخداما قويما فى التفكير فى الدين ، فهو من حيث الدين كالحيوان الأعجم ، كلاهما بدون عقل ، ولكنه يتجاوز هذا القبح العقلى بدرجة أخرى من القبح الخلقى ، وهى نزعة الحسد ، فالانسان السوى الخلق لا يحمل لغيره حسدا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بشهادة كل معاصريه أعداء وأصدقاء لم يكن فى خلقه قط من سوء يدعو الى عداوة أو بغض لشخصه ، بصرف النظر عن الموقف من دينه ودعوته ، فالذى يعاديه أو يبغضه لشخصه ليس هناك محمل لموقفه الا عوامل نفسية غير سـوية كالحسد ، وكل هذه العوامل شذوذ عن الخلق السوى ، فالذى يحملها من المشركين ، يحمل قبحين ، قبح العقل بالشرك ، وقبح الخلق بالحسد ، فهو اذن (الأبتر) بمعنى أنه حيوان ، ولكنه مشوه الخلقة بقطع ذنبه ٠

ولكن هذه الصورة الساخرة على ايجاز كلماتها نجد فى ألفاظها من الايحاء الزائد عن المعنى الأصلى الكثير ، ومن ذلك :

١ ــ لفظ (الكوثر) فرغم أن مادته وهو الكثرة معروفة لكل العرب ، وكذلك كل ما يشتق منها يصبح مفهوما وواضحا ، الا أن صـياغة لفظ (الكوثر) لا أعلم أن أحدا من العرب سبق القرآن اليها رغم وضوحها وفهم معناها ، والهدف ليس فى السبق لذاته ، وانما فى أن كل جديد له بريق

(٨) سورة الفرقان ٠

يلفت الأنظار اليه ، فحينما يسمع العرب اشتقاقا جديدا من لغتهم التى يعرفونها حق المعرفة ولكنهم لم يسمعوه من قبل فان هذا يركز مشاعرهم وعقولهم لتأمله ومحاولة التعمق فى الهدف من استخدامه ، وسيكون من أوضح ما يبرز لهم حينئذ :

(أ) أن هذا (الكوثر) يعنى أنها كثرة ، ولكنها كثرة جديدة لم يألفوها ، سواء فى الكم أو فى النوع ، وما دام محمد أعطى هذا — ولو ادعاء فى نظر الشانئين — كما فى تعبير (**انا أعطيناك الكوثر**) فمحمد اذن يملك ما لا يملكه أحد ، ولو ذهبوا يستفسرون من أحد أتباع محمد عن مدى صدق هذه الدعوى فسيجدون فعلا أن محمدا أعطى ما لم يعطه أحد قط ، ومنه قوله تعالى :

[**وكان فضل الله عليك عظيما**] (٩)

وفى قمة هذا العطاء النبوة ·

(ب) أنه اذا كان المال وحده رغم توافره عند كثيرين يجعل لصاحبه منزلة وجاها فى كل مجتمع ، ويثنى على صاحبه الحمد وهو مذمم ، وهو الرب الغفور لذنوب صاحبه كما يقول شاعرهم ، واذا كانت السيادة وحدها رغم وجودها بالضرورة فى كل مجتمع صغر أو كبر تجعل لصاحبها جاها وسلطانا ، واذا كانت كل ميزة فى انسان تجعل له تفوقا وتجذب اليه المشاعر ، فكيف بمحمد الذى أعطى ما لم يعطه أحد مما يعبر عنه بهذا اللفظ الذى لم يطرق الآذان من قبل وهو (الكوثر) ؟

ومهما يكن النفور من دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فلا شك أن مثل هذه الخواطر التى يستدعيها هذا التعبير ستجعل كثيرا من النفوس تنجذب نحوه وتميل الى الالتفاف من حوله ، وهذا ما حدث فعلا ·

٢ — اجتماع لفظ (انحر) ولفظ (الأبتر) فى سياق واحد يوحى باشارة قد تكون زائدة عن المعنى الأصلى وليست من صلبه ، ولكنها فى سياق السخرية من الشانىء تبرز طرافة كبيرة فى الصورة عند التأمل ، وذلك أن النحر مثل الذبح ، غير أنه يكون بالطعن فى اللبة ، ويغلب أن يكون فى الابل ، والنحر فى السورة (**فصل لربك وانحر**) هو أمر بنوع من العبادة وهو التقرب الى الله بالاطعام ، وحينما ينحر فلا بد أن يكون المنحور نوعا من الماشية ، وسخرية القرآن صورت هذا الشانىء للرسول بأنه نوع من الماشية ولكنه مقطوع الذنب ، وقطع ذنبه لا يمنع من نحره ، فمجىء

---

(٩) ١١٣ سورة النساء ·

ذكره فى سياق الأمر بالنحر يحدث ارتباطا طريفا وان كان غير مقصود بأن هذا الشانىء من نوع ما ينحر ، وما دام الأمر كذلك فلا مانع من أن يكون هو الذى يقع عليه النحر (**فصل لربك وانحــــر ، ان شـــانئك هو الأبتر**) ٠

بل ليس من مستنكر القول أن يقال ان هذه الاشارة الى نحـــر هذا الشانىء قد تكون نوعا من كشف الغيب ، والالماح الى النبى صلى الله عليه وسلم بأن هذا الشانىء سيقتل بسلاحك وهو سلاح الاسلام ، وقد حدث فعلا أن عددا كبيرا من عتاة سادة مكة وكبار الشانئين للنبى قتـــلوا يوم بدر بسيوف المسلمين التى يقودها النبى ، وكان فى مقدمة هؤلاء الصرعى يومئذ أبو جهل الذى كان أشد الشانئين للنبى ، ومما يرشح هذا المعنى أن السياق يؤكد عطاء الله للنبى (**انا أعطيناك الكوثر**) وفى ســـياق الحديث عن الشنآن والعداوة لابد أن يكون من العطاء النصر ، لأن المهزوم لا يشعر بلذة نعمة مهما أعطى ، ولا تستسيغ نفسه المن عليه ممن يخذله وهو يملك نصره ، والله يمن على نبيه بالعطاء ، وهذا المن فى سياق ذكر أعداء له ، فلابد أن يتوقع أن يكون ضمن المن عليه النصر على هذا الشانىء ٠

ولكن بدل أن يقول له انك ستنتصر على شانئك ، او انك ستقتله ، يلمح اليه بأنك ستنحره ، لأنه كالحيوان الأعجم ، فلا يناسبه القتل ، وانما يناسبه النحر ، واذا صحت هذه الاشارة ، فانها ستكون سخرية أخرى من هذا الزعيم الكبير الشانىء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

(٢)

واذا كان القرآن قد اختار نموذجا من الشانئين لشخص النبى صلى الله عليه وسلم فصب عليه هذه السخرية الموجعة كما رأينا فى الصورة السابقة ، فانه يختار أيضا نموذجا آخر من محيط الشنآن لشخص النبى ، وقد كان النموذج الآخر امرأة ، وهى احدى الشانئات للنبى ، فيصب عليها سخرية أشد ايلاما وتحقيرا ، وذلك فى سورة المسد ٠

[تبت يــدا ابى لهب وتب ، ما اغنى عنــــه ماله
وما كسب ، ســيصلى نارا ذات لهب ، وامراته
حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد]

اللغـــة :

أبو لهب : هو عبد العزى بن عبد المطلب عم شقيق للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان معروفا عنه هـــو وزوجه أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان أنهما كانا من أشد الناس كراهية لشخص النبى ، وكانا أشـد الناس ايذاء له ، وكان اذاهما دائما بحكم جوارهما للنبى فى المسكن :

التب : هو الخسران ، وتبت يداه بمعنى خسر فى كل ما يعتمد عليه من مال أو كسب أو قوة ، لأن اليد تستخدم فى التعبير عن أداة الكسب ، كما يقال هذا كسب يدى ، أى كسبى ، وفى التعبير عن القوة نحو المسلمون يد واحدة أى قوة واحدة ، والمعنى أنه لن ينفعه ماله أو جاهه ، بل سيكون خسرانا له ٠

الجيـد : العنـق

المســد : الليف

فسورة المسد تتكونمن شقين ، احدهما عن أبى لهب ، والآخر عن زوجه ، فأما أبو لهب فكان حديث القـــرآن عنه ، وتوعـده اياه بأسلوب الحقيقة المباشرة ٠

وأما حديثه عن زوجه أم جميل بنت حرب فهو الذى كان فى أســلوب التصوير الساخر ، الموجع السخرية ، وقد كانت الصورة الساخرة هى :

[وامراته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد]

وقد اختلف المفسرون فى دلالة عناصر هـــذه الصورة أو كلماتها اختلافا شديدا فلم يتفقوا على رأى واحد فيها ، رغم وجود عشرات الآراء حـــولها ٠

وذلك لسبب يسير ، هو أن المفسرين يحاولون دائما أن ينحو بمعانى لفاظ القرآن منحى الحقيقة المجردة بأخذها من ظاهر الألفاظ وسطحها ، ورغم أنهم يصفون كثيرا من أساليب القرآن بأنها تهكم ، ورغم أنهم يعلمون أن القرآن نزل بلسان عربى مبين ، وأن اللسان العربى فى شعره ونثره قد استخدم فيما استخدم أسلوب السخرية ، فكان فى موضعه أبلغ من أى أسلوب آخر ، ومع ذلك يتحاشون أن ينظروا الى أسلوب القرآن من هـذه الزاوية التى يؤكد القرآن نفسه كثيرا أنه يستخدمها على السنة الأنبياء رغيرهم ، بل ينسبها القرآن الى الله سبحانه ، كقوله تعالى :

[سخر الله منهم ولهم عذاب اليم] (١٠)

---

(١٠) ٧٩ سورة التوبة ٠

ولذلك لم يتفقوا على رأى فى هذه الصورة الساخرة ، بل الأغرب من ذلك أنهم لم يتركوا لنا رأيا تطمئن اليه النفس ٠

ومن ذلك أن كل آرائهم حول تعبير (**حمالة الحطب**) تدور حول أنها كانت فعلا تحمل حطبا ، واختلافهم انما هو حول نوع الحطب ، وهذا مما لا يقره التاريخ ، فبعيـدا عن روايات التفســير لم ترد رواية ذات قيمة تاريخية أن أم جميل كانت تحمل الحطب ، وهى من ذروة الذرى فى قريش حيث ان أخاها أبا سفيان كان يوصف بأنه سيد العرب أو من ســادات العرب ، وليس فى قريش وحدها ، وأبوها حرب بن أمية بن عبد مناف ابن عم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، سيد من أكبر سادات قريش ، وزوجها عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم من وجوه قريش وذوى النفوذ بأنسابهم وأحسابهم وأموالهم كما صرح القرآن بذلك ، فلم يكن لمثلها أو لمن هى دونها بكثير أن تحمل الحطب ولو مرة ، فضلا عن أن يكون حمــل الحطب مهنة أو عادة لها كما تدل على ذلك صيغة (حمالة) التى تختلف عما لو كان التعبير تحمل الحطب أو حاملة الحطب ، ولذلك فان روايات التفسير تحاول ألا تصطدم بهذا الواقع ، فتقول انها كانت تحمل الحطب لتضعه فى طريق الرسول تؤذيه به ، وفضلا عن أن تعبير (حمالة الحطب) لا يؤدى معنى الايذاء بالحطب ، لأن تأذى الرسول سيكون حينئذ من الحطب نفسه ، وليس من حملها اياه ، فضلا عن ذلك فانها كانت تملك من تأمره بحمل الحطب ، وبوضعه حيث تريد ، فى طريق النبى أو فى أى مــكان ٠

وكذلك كل آراء المفسرين حول تعبير (**فى جيدها حبل من مسد**) فان كل آرائهم تدور حول نوع الحبل أى حول فهم المراد بالمسد ، أهو الليف أم لحاء الشجر ، أم الحديد ، بينما خلافهم كله لا يؤدى الى توضيح المراد من الجملة كلها ، فضلا عن أن فى بعضه بعدا عن الدلالة اللغوية التى هى أصل كل معانى القرآن ، حيث يكرر القرآن هذه الحقيقة التى لا لبس فيها ، وهى أنه انما نزل :

[**بلسان عربى مبين**] (١١)

واللسان العربى لا يلتوى فى دلالة المسد ، فهو معروف للجميع حيث يستخدمونه دائما فى حياتهم المعيشية ، ولا يحتاجون الى السؤال عن نوعه ، فحينما يقال حبل من مسد فمن الواضح أنه مصنوع غالبا من ليف النخل ، وقد يصنع من الكتان أو الصوف ، ولكن بعض الآراء فى تفســير

---

(١١) ١٩٥ سورة الشعراء ٠

المسد تقول انه الحديد ، بينما هم أعرف بأن الحديد حينئذ يسمى سلسلة وليس حبلا ، وقد ورد هذا فى القرآن فى أكثر من موضع ، ولو افترضنا انه أريد صنع حبل من الحديد على هيئة صنع الحبل المفتول وهو ممكن بل واقع ، فلابد أن يخصص بأن يقال انه حبل من حديد ، فيكون واضحا أنه من نوع السلاسل ولكنه فى هيئة حبل ، ولكن حين يقال من مسد فان المسد معروف عندهم بأنه ما تصنع منه الحبال العادية التى يستخدمونها فى حياتهم المعيشية ، سواء أكانت من ليف أو صوف أو نحوه ، أما الحديد فلا يدخل فى مدلول المسد ٠

ولكن الاشكال ليس فى هذا ، وانما فى أننا لانجد بين آرائهم كلهـا ما يوضح المراد بالآية كلها ، وهى (فى جيدها حبل من مسد) فان كل ما قيل على كثرته غير مقنع ، بل غير متفق لا مع الدلالة اللغوية ، ولا مع المراد من السياق ٠

فأما عدم الاتفاق مع الدلالة اللغوية ، فان العربى حين يسمع أن فلانا فى جيده حبل من مسد ، فلا يلتبس عليه أن المراد وجود حبل عادى فى عنق هذا الشخص ، ولكن آراءهم تحاول البعد عن هذا المعنى الواقعى ، وتزداد بعدا حينما تحاول أن تجعل هذه الصورة فى الآخرة وليس فى الدنيا ، مع أنه ليس فى السياق ولا فى الألفاظ ما يفيد ذلك ٠

وأما السياق فهو تحقير شأن هذه المرأة بالقياس الى منزلة النبى ، ولو أريد بهذا التحقير كونها فى عذاب جهنم ، فان عذاب جهنم أشد وأقسى من أن يكون بوضع حبل فى العنق ، ولو كان عذابها كذلك لكان هينا يسيرا، ثم ان الذى يناسب نار جهنم من الأغلال انما هو سلاسل الحديد كما وصف القرآن وليس الحبال كما فى هذا التصوير ٠

وليس الهدف من هذا التعقيب الاشارة من قريب أو بعيد الى التقليل من جهد المفسرين أو كفايتهم ، فان جهدهم العظيم ، وعلمهم الزاخر هو المصباح الذى لا يستطيع باحث أن يخطو نحو بحر التفسير بدونه ٠

وكل ما تهدف اليه الاشارة من هذا التعقيب هو أن كثيرا من نظـرات السابقين كانت تغلب عليها النظرة الجزئية ، سواء الى اللفظ ، أو الجملة ، دون اهتمام بالصورة الكلية ، أو ربط الجمل والآيات بعضها ببعض ، ومن ذلك هذه الصورة ، فان اهتمامهم تركز فى شرح حمالة الحطب) ثم فى لفظ (مسد) مع أن كل الألفاظ والجمل لا تتضح دلالتها الحقيقية الا من خـلال

الصورة العامة ، كما أن الصورة العامة أيضا لا تتضح الا من خلال السياق والملابسات فاذا نظرنا اليها من خلال ذلك كان الأمر أيسر جهدا ، وكانت الصورة أشد وضوحا ، وذلك كما يلى :

الســـياق :

موقف أبى لهب وزوجه من النبى صلى الله عليه وسلم من أشـــهر المواقف العدائية فى تاريخ الاسلام ، فلا تختلف الروايات فى أن أول رفض وتسفيه ووجه به النبى حينما جهر بالدعوة الى الاسلام كان من عمه أبى لهب عبد العزى ، وذلك حينما انزل عليه من القرآن :

[وأنذر عشيرتك الأقربين] (١٢)

فجمع النبى قرابته فدعاهم الى الاسلام ، فاذا عمه أبو لهب يقول له مسفها أمام الجميع : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ ثم واصل حملته على النبى فى كل مكان يتردد عليه ٠

وكذلك زوج أبى لهب أم جميل بنت حرب ، وهى من أقرب أقارب النبى بعد بنى هاشم ، ظلت تناصب النبى العداء ، وتصطنع له من المضايقات وسبل الايذاء ما يصل الى حد السفاهة والاســـفاف ، كأن تتعمد بصفة مستمرة القاء الأذى فى طريقه وهو داخل الى بيته ، ونحو ذلك مما أفاض فيه عنها وعن زوجها الرواة والمفسرون ٠

ولا أدل على أن أحدا لم يبلغ من نفس الرسول وضيقه وتأذيه ما بلغاه من أن القرآن لم يذكر أحدا من أعداء الرسول بالاسم والتحديد كما ذكرهما، وكونهما من قرابة الرسول لابد أن يجعل أذاهما أشد ايلاما لنفس الرسول كما يقــول شاعرهم :

وظلم ذوى القربى أشد مضــاضة
على النفس من وقــع الحســام المهند

ولكن زوج أبى لهب أم جميل تميزت بأنها ألد عدو للنبى صلى الله عليه وسلم من النساء وأقبحه على الاطلاق ، فهناك نساء كثيرات امتلأت قلوبهن كراهية للاسلام ، وهناك نساء كثيرات امتلأت قلوبهن حزنا وغيظا من النبى لأنه كان سببا فى مصرع أعزاء عليهن ، كما كانت هند بنت عتبة فى عداوتها الشديدة الجامحة للاسلام ولشخص النبى ، ولكنهن جميعا التزمن حدود العداوة الكريمة مهما اشتد أوارها ، ولم يرد أن احداهن واجهت

---

(١٢) ٢١٤ سورة الشعراء ٠

النبى ببذاءة فى القول ، أو اسفاف فى أذى كما فعلت أم جميل ، وأقصى ما واجهت به هند النبى يوم بيعة النساء حين قال النبى فيما قال للنســاء يبايعهن وفيهن هند بنت عتبة (ولا تقتلن أولادكن) فقالت هند مشيرة الى من قتل من ذويها يوم بدر : لقــد ربيناهم صــغارا فقتلتهم كبارا ، فقهقه عمر بن الخطاب حتى دوت قهقهته فى الصحراء ، فكان كلام عداوة ولم يكن كلام بذاءة ، ولو كان بذاءة ما ضحك منه عمر ·

ولكن امرأة أبى لهب هذه هى التى انفردت دون النساء بأن تقذف الى النبى كل حين بكل ما تستطيع من بذىء القول ، وقبيح الفعل ، والنبى بوصفه بشرا لابد أن يضيق صدره، وأن تألم نفسه لكل هذا ، ومهما يكن حلمه ، فان الحلم ليس معناه عدم الألم ، بل هو كظم الغيظ وعدم اظهاره أو اظهار صداه ورد فعله ، ولو كان أذى أم جميل فى موقف أو مواقف متفرقة لكان احتماله أخف ، ولكنها فوق القرابة هى جارة للنبى ·

فما كان الله ليترك نبيه فى هذه المعاناة النفسية ، وما كان ليتــرك هذه المعاناة لتشغل شيئا من اهتمام النبى بدعوته ، والتفرغ لتبليغ رسالته، فيوجه الله الى أم جميل سهما من سهام السخرية ، ممثلا فى هذه الصورة الموجعــة :

الصـــورة :

الصورة التى رسمتها سخرية القرآن لأم جميل لا تعدو أن تكون صورة من واقع البيئة الذى يشاهده الناس ويزاولونه فى حياتهم اليومية الدائمة ، فالبيئة حياة بدوية يسيرة الشئون ، ومن لوازمها اليومية اشعال النار سواء للخبز أو الطبخ أو التدفئة ، واشعال النار لابد له من وقـــود وهو عندهم الحطب ، فهم يلتمسونه من أعشاب الصحراء وما ينبت من أشجارها ، وقد يحمله بعضهم اذا كان من الضواحى القريبة ، فاذا بعــد المكان احتاج الى دابة للحمل عليها ، وحيث كانت الحاجة الى الحطب دائمة وفى كل بيت فان المناطق القريبة سينفد ما فيها من حطب ، فيعتمدون فى أغلب حاجتهم على المناطق الأبعد ، ومعنى هذا كثرة استخدام الدواب لهذا الغرض ، وأغلب ما يناسب هذه المهمة هى الحمير والبغال ، لخفة حركتها وسرعتها وسهولة الحمل عليها ، فمن الطبيعى أن نتصور كثرة من الحمير أو البغال وأحيانا الابل وعلى ظهورها أحمال الحطب ·

ومن المألوف فى كل الدواب التى تستخدم فى وسائل المعيشة أن يكون لها مقود تقاد به كالرش وهو الحبل الذى يقاد به الجمل أو الفرس أو

الحمار أو غير ذلك ، فمن المناظر الواقعية المألوفة فى البيئة أن نرى الدواب وعليها أحمال من الحطب ، وفى أعناقها حبال تقاد بها ٠

فاذا نظرنا الى تصوير القرآن من خلال الهدف والملابسات نجد صورة أم جميل فى غاية الوضوح واليسر ، وهى صورة دابة من هذه الدواب ، تحمل الحطب ، وفى عنقها حبل تقاد به ، وكل ما فى الصورة من ألفـاظ انما هو تأكيد لالباس أم جميل صورة الدابة الحقيقية التى تحمل الحطب وتقاد بحبل من ليف ، وذلك كما يلى :

١ ـ لفظ (حمالة) بتشديد الميم يفيد أن وظيفتها أو عادتها الحمل ، بخلاف ما لو كان التعبير حاملة الحطب ، أو تحمله ، فان هذا لا يدل على تكرار الفعل كما يدل عليه التضعيف فى صيغة (حمالة) ٠

٢ ـ لفظ (الحطب) لتأكيد صورة الدابة ، فانها هى التى سخرها الله للحمل وظيفة لها ، وتخصيص الحمل بالحطب حتى لا يتجه ذهن السامع الى تأويله الى شىء يناسب الآدميين كحمل متاع ، لأن هدف السـخرية من أم جميل تأكيد صفة الدابة لها ٠

٣ ـ تعبير فى جيدها حبل تأكيد آخر لصفة الدابة العجماء فى أم جميل، فان الذى يقاد بالحبل فى عنقه انما هى الدواب والماشية العجماء ، حتى لا يتجه ذهن سامع الى أن المراد بحامل الحطب امرأة آدمية ، بينما هدف الصورة الساخرة تأكيد صورة الدابة العجماء ٠

٤ ـ لفظ (مسد) تأكيد آخر لصفة الدابة ، فان السامع يعرف فى السياق أن الحديث عن امرأة هى زوج أبى لهب ، ويعرف أنها من ذروة القوم وعليتهم ، فقد يتخيل أن الحبل فى جيدها لن يكون كسائر الحبال ، بل يكون من حرير أو شىء لين على الأقل ، ولكن لفظ (مسد) يرده الى صورة الدابة المقودة بحبل من ليف ، وبعض اللغويين يفسر المسد بأنه الفتل القوى وهذه اضافة ساخرة تتضمن أنها دابة جامحة تحتاج حبـلا قـويا ٠

وتأكيد القرآن صفة الدابة العجماء لامرأة آدمية لا غرابة فيه ، لا لغويا ولا دينيا ٠

(١) فأما من حيث اللغة فهو أسلوب مجاز شائع فى كل الأساليب العربية البليغة ، وأكثر ما يكون شيوعا فى القرآن ، فانك مثلا تقول حين تريد أن تتحدث عن شجاعة رجل ، رأيت فى الحرب أسدا يفترس الأعداء ، فلا خلاف اطلاقا حول أن هذا المجاز ونحوه أبلغ بكثير مما لو قلت بأسلوب

الحقيقة رأيت رجلا شجاعا يقتل الأعداء ، فرغم زعمك انك لم تر آدميا ، وانما رأيت أسدا ، وتؤكد هذا بصفة من صفات الأسد وهى (يفترس) فكلامك أوقع وكلما أكدت أن الذى رأيته كان أسدا حقيقيا كان كلامك أبلغ وأجود ، وكل ما يطلب منك هو أن تترك للسامع اشارة الى أنك انما تتحدث عن آدمى ، وهذه الاشارة فى المثال السابق هى لفظ (الحرب) فان الحرب من شأن الآدميين وليس غيرهم ٠

وصورة القرآن الساخرة من أم جميل هى كذلك ، فيها اشارة الى أن الحديث انما هو عن آدمية ، وذلك فى لفظ (وامرأته) أى امرأة أبى لهب ، لأن الآدمى لا يتزوج الا آدمية وليس دابة عجماء ، وحيث ينتفى هذا اللبس فكلما زاد تأكيد صفة الدابة العجماء لها كان الكلام أبلغ ، حيث هذا هو الهدف ، وقد رأينا كيف توالت التأكيدات فى الصورة الساخرة لتأكيد صفة الدابة لأم جميل ٠

(ب) وأما من حيث الدين فلا غرابة فى تأكيد أن أم جميل أو غيرها من المشركات دابة عجماء ، بل هو منهج القرآن فى وصف المشركين ، وقد تكرر هذا فى القرآن ، حيث يؤكد القرآن أنهم كالبهائم ، ليس فى أجسادهم أو أشكالهم أو حياتهم المعيشية ، وانما فى جانب معين منهم هو العقيدة ، فهم والأنعام فيها سواء ، من حيث أن البهائم لا عقول لها ، وهم أيضا لا يستخدمون عقولهم فى العقيدة ، بل يعطلونها ويلغونها ، فكأنهم بدون عقول ٠

وقد سبق القول أن وصف القرآن لهم بأنهم كالأنعام أو ما هو من هذا القبيل انما هو حقيقة وليس مجازا ، وأن تصوير القرآن اياهم فى هذا المجال انما هو تصوير لهم من داخل نفوسهم وعقولهم ، فان عقولهم وجوهرهم من حيث الدين لا يتفق مع الآدمية وفطرتها السليمة ، وانما يتفق مع الأنعام التى تحيا بدون عقول ٠

فأم جميل استحقت وصف الدابة حتى بدون ايذائها شخص الرسول بما آذته به ، أى استحقته بشركها ، ولكن ايذاءها اياه جعلها تستحق فوق ذلك هذه الصورة الساخرة التى يمكن لرسام أن يرسمها فى لوحة ، مصورا مثلا أتانا (١٣) أو بغلة ، وفى عنقها حبل معقود به ، وعلى ظهرها حمل حطب ، ولا يحدث فى هذه الصورة تغيير الا فى شىء واحد ، وهو وضع وجه أم جميل مكان رأس الأتان أو البغلة ، أو مكان جزء منها ، لتبقى رأسها رأس دابة وليس رأس آدمية ذات عقل ، ووجهها فقط هو الذى يوضع

(١٣) الأتان هى أنثى الحمار ٠

فى رأس الدابة ، ويكتب على جبهتها (أم جميل) ، ثم لنا أن نتصور حينئذ مدى سخرية هذه الصورة من أم جميل ، ومدى ايلامها النفسى اياها ، ان الموت الكريم أهون عند ذى المروءة والكرامة الاجتماعية من هذا التشويه وهذه الاهانة ، خصوصا اذا كان من توجه اليه هذه السخرية يعلو الى مرتبة فوق الوجاهة الاجتماعية كأم جميل سيدة السيدات فى المجتمع ٠

الأثر النفسى :

يمكن أن يقال ان هذه الصورة الساخرة تتضمن فيما تتضمن ثلاث رسائل غير خافية الهدف ، وهى :

١ ـ رسالة الى أم جميل تتضمن ردعا لها عن الماضى ، وانذارا لها للمستقبل ، بمعنى أن أم جميل اذا كانت تستغل جاهها ونفوذها من جهة ، وحلم الرسول وصبره من جهة أخرى فتقول ما تقول ، وتفعل ما تفعل مما يؤذى رسول الله ، فان الله يفتح عليها باب العقاب ليمنع عن رسوله أذاها ، فيوجه اليها هذا السهم القاتل لمثلها معنويا ، ليريها أن ايذاء الله أشد من أذاها ، ومع ذلك فان هذا السهم المتمثل فى هذه الصورة الساخرة انذار لها بأنها لم تكف فان عند الله المزيد والأشد ٠

ويروى أن أم جميل حين سمعت هذه السخرية من القرآن جن جنونها ، فأخذت حجرا ودخلت المسجد الحرام تلتمس النبى صلى الله عليه وسلم وهى تقول : أين محمد ؟ لقد سمعت أنه هجانى ووالله لئن رأيته لاحطمن بهذا الحجَر فاه ٠

٢ ـ رسالة الى النبى صلى الله عليه وسلم تتضمن مواساة له ، وتقوية لعزمه على احتمال الأذى والألم النفسى، وكأن الله سبحانه يقوله له: لا يشغلنك أمر هذه المرأة ، ولا تضيقن بما يصدر منها ، فانها فى عقليتها وجوهرها الحقيقى لا جموحها وعتوها ، واذا كان المعنى كذلك (١٤) فلعلها اشارة من الله الى نبيه بأن يطمئن الى أن الله سيكبح جماحها وجماح الشرك كله ٠

وقد كان النبى أولى الناس بأن يفهم عن ربه هذه الرسائل وهذه الاشارات ، ولذلك فانه كان يؤكد لأصحابه منذ بدء الاسلام ، وحين لم يكونوا الا نفرا مستضعفين بأن الله سينصر هذا الدين ويتمه حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ٠

(١٤) من المعانى اللغوية للمسد أنه الفتل القوى ، وحبل من مسد أى حبل مفتول بشدة وقوة ، وانما يحتاج الى الحبل القوى اذا كانت الدابة عنيفة أو جامحة ٠

٣ ـ رسالة الى التوابع من النساء اللاتى ينقدن لأم جميل أو يتأسين بها ، اما خضوعا لمنزلتها ، واما اعجابا بشخصيتها ومكانتها ، ومضمون الرسالة دعوة الى التفكير فى جوهر هذه المرأة وحقيقتها ، وكأن هــذه الصورة الساخرة فى القرآن توجه اليهن سؤالا مضمونه : ما الفــارق من حيث العقل والجوهر بين هذه المرأة وأية دابة تحمل حطبا وتقاد بمقود؟ وحيث كانت حقيقتها كذلك فلا ينبغى أن ينقدن لها أو يعجبن بها فتــكون حائلا بينهن وبين الاتجاه الى دين الله ٠

فمما لا شك فيه أنه كما كان السادة من الرجال حائلا بين العــامة من الناس وبين الاسلام ، فكذلك كان السيدات حائلا بسيادتهن بين العامة من النساء والاسلام ، وكما اخذ سادة الشرك نصيبهم من سخرية القرآن ، فكذلك اخذ سيدات الشرك نصيبهن فى صورة أم جميل بنت حرب ٠

سخرية التصوير المنفى

ومن أساليب السخرية فى القرآن الصور المنفية ، بمعنى أن أسلوب القرآن يسخر أحيانا من أعدائه بصورة منفية ، ولا يقل هذا فى الأثر النفسى عن الصور المثبتة فلا فرق بين أن تقول عن شخص انه جبان باثبات الجبن له ، وأن تقول عنه انه غير شجاع بنفى الشجاعة عنه ، فالنتيجة واحدة وهى أنه من الجبناء ، لأن غير الشجعان هم الجبناء ، فالفارق ليس فى النتيجة ، وانما فى الموازنة بين الأسلوبين من حيث البيان ، وهذا لا يحكم عليه بأحكام عامة ، بمعنى أنه لا يحكم على هذين الأسلوبين أيهما أجود من حيث البيان ، لأن الحكم يجب أن يكون على كل صياغة لذاتها ، وقد يكون الأسلوب المثبت مصوغا فى صورة باهرة ، وقد يكون المنفى كذلك ، فالموازنة فى الأدب لا تكون عادة بين الأجنـــاس والأنواع الا من باب التقريب والتغليب ، أما الأحكام الموضوعة فيجب أن تكون مرتبطة بكل صورة لذاتها ، لأن نسيج كل صورة يختلف عن نسيج الأخرى ، كما أن الملابسات لها أثر فى مـدى وقع كل صـــورة فى النفوس ، وبالتـــالى فى الحكم عليها ٠

ومن أمثلة هذا النوع فى القرآن :

(١)

[فما بكت عليهم السماء والأرض ٠٠٠] (١)

(١) ٢٩ سورة الدخان ٠

الســـياق :

والسياق حديث عن كفر قوم فرعون وعنادهم ، وبغيهم على بنى اسرائيل واستذلالهم اياهم ، وقد أرسل الله اليهم رسوله موسى عليه السلام فازدادوا كفرا وعتوا وبغيا ، فنجى الله المستضعفين على يد موسى ، وأهلك المشركين الباغين من قوم فرعون بالغرق ، فى القصة المعروفة لخروج بنى اسرائيل من مصر ، وفى هذا السياق ينبغى توضيح نقطة يغلفها اليهود بغـــلاف الوهم والغرور ، وهى اعتقادهم بأن الله أهلك من أهلك من قوم فرعـــون تكريما لهم ، لأن لهم عند الله منزلة تعلو فوق منزلة سائر البشر ، وهـذا وهم واضح الكذب والضلال ، فان عباد الله من سائر البشر عند الله سواء ، لا يمتاز أحد منهم عن أحد بنسب أو جاه أو مال أو شىء على الاطـلاق الا بمقدار حسن عبوديته لله وطاعته اياه ، كما يقول تعالى :

[ان اكرمكم عند الله اتقاكم] (٢)

والله يوبخهم فى القرآن على كثير مما ينبع من الغرور الكاذب ، كادعائهم أنه لن يدخل الجنة الا من كان هودا أى من اليهود ، وادعائهم أنهم أحباء الله وكثير مما ساقه القرآن عنهم بهذه الألفاظ وغيرها ، وفى سياق منها يستنكر القرآن كل ما يصدر عنهم من هذا القبيل بصفة عامة ، حيث يقول تعـالى :

[الم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكى من
يشـــاء] (٣)

فهو أسلوب استنكار مشاربه الى اليهود بالذات ، حيث ان الحديث صريح عنهم فى ســـياق :

[من الذين هادوا يحـــرفون الكلم عن مواضعه
ويقولون سمعنا وعصينا واســـمع غير مسمع
وراعنا ليًّا بالسنتهم وطعنا فى الدين ولو انهـــم
قالوا سمعنا واطعنا واسمع وانظرنا لكان خيـرا
لهم واقوم ولكن لعنهم الله بكفـــرهم فلا يؤمنون
الا قليلا] (٤)

فلم يجعل الله لهم ميزة ، بل لعنهم بكفرهم ، وتكرر لعنهم فى القرآن كثيرا ٠

---

(٢) ١٣ سورة الحجرات ٠
(٣) ٤٩ سورة النساء ٠
(٤) ٤٦ سورة النساء ٠

فاهلاك فرعون ومن هلك من قومه انما كان بسببين حددهما القرآن ، وهما الكفر والظلم ، وما أقبح اجتماعهما ، ورغم أن الكفر أسوأ بكثير من الظلم ، الا أن من سنة الله المشـاهدة أن عقـاب الدنيا مرتبط بالظلم أكثر من ارتباطه بالكفر ، فان العقاب على الكفر حق الله وحده ، والله صبور ، يستوى عنده الزمن فى الدنيا والآخرة ، أما عقاب الظلم فهو حق العباد ، والانسان عجول يريد ثأره وحقه فى عجلة ، ومهما يكن وضع المظـلوم فى الدين أو الكفر فهو فى كل حال عبد لله ، وهو فى رعاية الله ورحمته فى الدنيا مهما بلغ من الكفر ، ومن حقه فى الدنيا أن ينصفه الله من ظالمه ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى الأهمية الخاصة التى يوليها الله سبحانه لدعوة المظلوم ، وليس من هدف هذا المجال الاستطراد فيها ، وانما يعنينا منها أن فرعون وقومه ظلموا بنى اسرائيل وبغوا عليهم بغيا شديدا ، فأصبح بنو اسرائيل مظلومين ، وقد أرسل الله اليهم رسولا هو موسى عليه السـلام علمهم ، أو علم بعضهم أن يؤمنوا بوجود الله ، وأن يلجأوا الى الله لينقذهم مما هم فيه من ذل وهوان ، فدعوا الله وعلى رأسهم رسـول الله موسى ، فاستجيب الدعاء ، فأهلك الله الظالمين فرعون وملأه ، ونجى المظلومين موسى وشعبه ٠

الصـورة :

والصورة الساخرة تبدأ بعد هلاك الظالمين ، حيث أمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه فشق الله البحر ليجوز فيه موسى ومن معه ، ثم جاء فرعون ومن معه فدخلوا فى الشـق ليجوزوا ، فاذا هـو يطبق عليهم فيغرقون ٠

وهنا يبـدأ القرآن فى رسم الصورة الساخرة من الهالكين ، فى تعبير (**فما بكت عليهم السماء والأرض**) ومن الواضح فى كل العقول ان السماء والأرض لا تبكيان عليهما ولا على غيرهما ، بل ولا يصدر منهما بكاء أصلا، ولكن نفى بكائهما على هؤلاء الهالكين يتضمن أنهما يمكن أن يبكيا ، ويمكن أن يصدر منهما بكاء على غير هؤلاء ، وهذا ليس من الحقيقة ، وكل ما ورد فى ذلك من الأحاديث النبوية والروايات المأثورة انما هو من باب المجاز ٠

ولكن الذى يعنى هذا الحديث هو اثبات وجود هذه الصورة المنفية ، وهى أن نتصور أن السماء والأرض تبكيان ، وأنهما كانتا يمكن أن تبكيا على هؤلاء الهالكين ، ولكنهما لم تبكيا ، فلماذا لم تبكيا ؟ بل لماذا صـور القرآن أصلا هذه الصورة رغم عدم امكان وجودها فى الواقع والحقيقة ؟

والاجابة ان الهدف هو السخرية من هؤلاء الهالكين الذين بلغ بهم الكفر والتحدى لله قبولهم ادعاء الألوهية من قائدهم فرعون ، ثم استجابتهم

لهذه الدعوى الباطلة وتنصيبهم أياه الها ، ثم أطغاهم ما أفاضه الله عليهم من نعم وخيرات وملك وحضارة ونعيم ، فظنوا أنهم كل شىء فى الكون ، وأن من عداهم انما هو مسخر لهم ، ويترتب على ذلك أنهم كأنهم كانوا يتصورون أنهم لو هلكوا فسيعم الحزن الكون كله ، فتبكى عليهم السـماء والأرض ، ولكن الواقع أنهم حينما هلكوا لم يحدث شىء مما تصوروا ، فلم تبك عليهم السماء ولا الأرض ، بل خسروا كل ما كانوا فيه من نعم وخيرات ونعيم وملك عريض ، وورث الله هذا كله لغيرهم ، كما فى قوله تعالى :

[كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين] (٥)

وهنا أيضا تجدر الاشارة الى خطأ تاريخى وقع فيه المفسرون ، وهو كان السياق أوحى اليهم بأن الذين ورثوا ما تركه الهالكون هم بنو اسرائيل وهذا مخـالف لواقع التـاريخ ، فان بنى اسرائيـل خرجـوا من مصر ، وكانت كل امنيتهم التى حققها الله لهم على يد موسى عليه السلام هى النجاة من الذل والهوان فى مصر ، فحين هلك فرعون ومن معه لم يرث بنو اسرائيل شيئا مما تركه الهالكون ، بل لم يكونوا موجودين فى مصر أصلا ، ولفظ القرآن لا يحدد أن الوارثين بنو اسرائيل ، ولكن الواقع وكل الملابسات تحدد أن الوارثين هم الذين بقوا فى مصر ، فان شعب مصر لم يهلك كله بداهة ، وانما هلك فرعون والجيش الذى صاحبه لاعادة بنى اسرائيل ، فالذين بقوا أحياء هم الوارثون ، وهم غير الذين هلكوا ، فيصدق عليهم أنهم آخرون ، وهذا معنى **(وأورثناها قوما آخرين)** ، وهو معنى واضح لم يكن يستدعى لبسا ، وحديث القرآن عنهم فى مواضع اخرى يؤكد ذلك ، حيث خرجوا من مصر فعلا ، وبعد أن عبروا البحر الى سيناء حدث ما حدث منهم من عبادة العجل ، وغير ذلك ، ثم كتب الله عليهم التيه هناك أربعين سنة ، كقوله تعالى عنهم حين رفضوا أمر موسى اياهم أن يدخلوا الأرض المقدسة :

[قال فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين] (٦)

ومع ذلك نجد المفسرين يقولون نحو قول الزمخشرى فى تفسـير (قوما آخرين) أى (ليسوا منهم فى شىء من قرابة ولا دين ولا ولاء وهم

---

(٥) ٢٥ — ٢٨ سورة الدخان .
(٦) ٢٦ سورة المائدة .

بنو اسرائيل ، كانوا متسخرين مستعبدين فى أيديهم فأهلكهم الله على ايديهم وأورثوا ملكهم وديارهم) (٧)

ولكن ابن جرير الطبرى وهو من أقدم المفسرين وأعلمهم (٨) يرجح الرأى التاريخى الصحيح ، ويجعل احتمال أن يكون الوارثون هم بنــو اسرائيل رأيا مرجوحا ضمنا ، حيث يقول فى تفسيره جامع البيان (وأورثنا جناتهم وعيونهم وزروعهم ومقامات وما كانوا فيه من النعمة قوما آخرين بعد مهلكهم ، وقيل عنى بالقوم الآخرين بنو اسرائيل) ولكن وراثة بنى اسرائيل ليست رأيا مرجوحا فقط ، وانما هو رأى مجانب للصواب ، ولعل بعض اليهود الذين دخلوا الاســـلام قد دسه على بعض علماء المسلمين فتقبلوه بحسن نية فيما يعرف فى التفسير بالاسرائيليات ٠

(٦)

وفى صورة أخرى عن جهل المشركين فى عقيدتهم نحو الله سبحانه ، وعدم قدره حق قدره ، يقول تعالى :

[وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون] (٩)

الســـياق :

وسياق الصورة أن الله سبحانه انما خلق الخلق من الجن والانس جميعا لغرض واحد ، كان يجب على المشركين أن يفكروا فيه ، وهو أن يطيعوه فى كل ما يأمرهم به ، وما يريده منهم ، وهو معنى العبادة فى :

[وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون]

فليس المراد العبادة الشرعية كالصلاة والصوم فقط ، وانما المراد الطاعة العامة ، كعبودية العبد من البشر لسيده ، فانها تقتضى طاعته فى كل ما يريد ، ويدخل فى عبادة البشر لله تنظيم شئون حياتهم المعيشـــية والاجتماعية ، لأن الحياة مرادة لله ، فتنظيمها من طاعة الله وعبادته ، وقد يقال فان أعداء الله ينظمون حياتهم ، بل غالبا ما ينظمونها خيرا مما يفعل

(٧) انظر تفسير الكشاف للآية السابقة ٠

(٨) توفى ابن جرير سنة ٣١٠ هـ ٠

(٩) ٥٧ سورة الذاريات ٠

المؤمنون ، لأنهم متفرغون لها ، وليس لهم هدف سواها ، فهل يعد ذلك من العبادة ؟ والجواب أن هناك مقياسا محددا وواضحا فى الاسلام ، وهو أن أساس الصلة بين البشر والخالق سبحانه هو الايمان به ، فاذا تحقق الايمان قبل من العبد كل عمل صالح ، أما اذا لم يتحقق فلن يقبل منه شىء لأن الصلة أصلا بينه وبين الله غير موجودة ٠

وقد أرسل الله رسله الى العباد ليعلموهم الصلة الصحيحة بربهم ، وقد كان المنتظر منهم حينئذ أن يشكروا الله على أن هيأ لهم من يرشدهم الى خيرهم ، ولكن البشر جميعا يتفقون على شىء مضحك ، هو أنهم بدل شكر الله وشكر الرسل يتهمون رسل الله بأنهم سحرة ومجانين ، والمضحك هو أنهم لم يتهموا بهذا رسولا واحدا ، أو جماعة معينة من الرسل ، وانما اتهموا كل رسل الله بهذا دون استثناء ، والقرآن يسخر منهم فى هذا الوضع ، حيث يقول تعالى فى سياق الصورة التى نحن معها :

[كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا

ساحر أو مجنون ٠٠ أتواصلوا به ٠٠] (١٠)

والسخرية الواضحة هى فى قوله تعالى (أتواصوا به) ؟ بمعنى : كيف حدث اتفاق كل الأمم فى كل العصور وفى كل الأماكن على اتهام رسل الله بالسحر والجنون ؟ ان هذا لا يتصور الا بأن يكون قد أوصى بعضهم بعضا بأن كل رسول يأتيهم يتهمونه بهذا ، ولكن هذا غير معقول ، لأن هذه الأمم لم يلتق بعضها ببعض ، لاختلاف الأزمنة والأمكنة اختلافا كبيرا ، فكيف حدث هذا الأمر العجيب المضحك أن يتفقوا جميعا على وصف واحد لكل رسل الله بالذات دون رسل غيره ؟ ويجيب القرآن عن هذا بقوله [بل هم قوم طاغون]

فأسلوب السخرية نقل المعنى الحقيقى الذى هو مجاوزة المشركين حدود العقل والانصاف وهو معنى الطغيان (١١) الى أسلوب المجاز الذى يتضمن رسم صورة خيالية شبههم بها ، وهى أنهم على اختلاف أجيالهم وأزمانهم وأماكنهم تجمعوا وتوصوا بأن كل رسول يأتيهم من جهة الله بالذات يتهمونه بالسحر والجنون ، هذا مع استحالة تجمعهم لأنه وان أمكن فى العقل اجتماع المتباعدين فى المكان فلا يمكن اجتماع المتباعدين فى الزمان ، فلا يجتمع جيل سابق قد فنى مع جيل حى ، ولكنه أسلوب المجاز الذى نفاه القرآن وأضرب عنه بتعبير : (بل هم قوم طاغون)

---

(١٠) ٥٣ سورة الذاريات ٠

(١١) لأن الطغيان هو مجاوزة الحد ومنه (وانا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) ٠

ولو لم يطغوا ويجاوزوا حد الانصاف لكان يجب أن يستمعوا الى الرسل ، ويفهموا عنهم ويستفيدوا منهم ، فسيقولون حينئذ عن خلق السموات والأرض وما بينها :

[ربنا ما خلقت هذا باطلا] (١٢)

الصورة :

وتتكون الصورة من عنصرين ، عنصر الحقيقة ، وهو :

[وما خلقت الجن الانس الا ليعبدون]

وعنصر السخرية ، وهو :

[ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون]

وذلك أن توضيح الحقيقة فى الآية الأولى بصورة لا لبس فيها ، وبحصر الغرض من الخلق فى هدف واحد هو عبادة الخالق وطاعته يجعل كل تفكير يخالف هذه الحقيقة الواضحة غريبا مستنكرا فى العقول السليمة ٠

ولكن أسلوب القرآن فى مواضع كثيرة يدعوهم الى التفكير بعقولهم هل خلق الله السموات والأرض باطلا بدون هدف ؟ وهل خلقهم هم عبثا ؟ فلم يبق الا أن ينفى لهم أنه خلق الجن والانس لا ليرزقوه ، ولا ليطعموه ، ولكن هذا النفى كما تكرر القول يقتضى بالضرورة تصور الصورة قبل نفيها حتى يتضح المعنى ، وكما يقال (بضدها تتميز الأشياء) فاذا قلنا فلان ليس شجاعا ، فلن نفهم هذا النفى الا اذا فهمنا الشجاعة قبل نفيها ٠

ومؤدى ذلك فى سخرية القرآن افتراض أن الله سبحانه خلق الجن والانس ليستعين بهم على معاشه وطعامه ، كما يفعل الآدميون حين يحرص الرجل منهم على انجاب بنين يستعين بهم على شئون حياته ، ومجرد تصور هذه الصورة رغم نفيها يثير فى النفس سخرية بالغة بهؤلاء المشركين الذين ينحدر تفكيرهم الى هذا المنحدر العقلى فى عقد أية موازنة بين الله والمخلوقين ، فرغم نفى الصورة الا أن أساسها قبل النفى قام على تصور شبه بين الله والآدميين ٠

وسخرية القرآن تتعمد الطرافة فى الصورة ، لأن استنكار الصورة يتحدد بمقدار طرافتها وغرابتها ، وأطرف ما فى الصورة المنفية تصور أن الله سبحانه محتاج الى معاشه ، ومحتاج الى من يطعمه ، ومعنى ذلك أن يتصوروه سبحانه جائعا ، والقرآن ينفى ذلك كله ، ولكن بعد مثوله تخيلا

---

(١٢) ١٩١ سورة آل عمران ٠

فى الذهن ، ويرد القرآن بالحقيقة ، وهى أنه ليس الله هو المحتاج الى شيء من عباده ، وانما هو الذى يرزقهم ، وهم المحتاجون دائما اليه ، ولذلك كان التعقيب بعد الصورة الساخرة المنفية :

[ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين]

(٣)

ومن الصور الساخرة بالنفي فى القرآن ، هذه الصورة :

[قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله
أرونى ماذا خلقـــوا من الأرض أم لهم شرك فى
الســموات ٠٠٠] (١٣)

الملابســات :

والصـــورة لا يحتـــاج توضـيحها الى بســطة فى القــول ، ولا الى ملابسات ، فان صدرها يتضمن ملابساتها ، وهو أنها خطاب الى المشركين الذين يعبدون شركاء لله :

[أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله] ؟

ومن المعروف أن الشرك هو الشائع بين بنى آدم فى كل العصـــور والأجيال حتى اليوم ، وأصحابه أغلبية كاثرة ، وهم صنوف ، منهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد الشمس ، ومنهـم من يعبد آدميا ، وغير ذلك ، وكلهم فى ضلال العقيدة سواء ٠

الصـــورة :

والصورة تتمثل فى :

[ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات]

وهو سؤال استنكارى يطلب الله سبحانه من رسوله أن يوجهه الى المشركين عن الذى خلقه آلهتهم من الأرض ، وهل لهم شركة فى السموات؟ والسخرية واضحة فى المعنيين ، فالمشركون أنفسهم يعلمون ولا يستطيعون أن ينكروا أن آلهتهم لم يخلقوا شيئا فى الأرض ، وأنهم ليس لهم ســـهم أو شركة فى السموات ، ولكن السخرية الأشد طرافة أن صيغة الســؤال تثبت أنهم خلقوا شيئا أو أشياء فى الأرض ، وأن السؤال ليس عن أنهـم

(١٣) ٤٠ سورة فاطر ، وتكرر أيضا فى الآية ٤ سورة الأحقاف ٠

خلقوا أو لم يخلقوا ، وانما عن نوع ما خلقوا على أساس أنهم خلقوا فعلا، حيث ان هناك فرقا بين أن تقول لشخص : هل أكلت اليوم ؟ وأن تقول له : ماذا أكلت اليوم ، فالسؤال الأول يتضمن أنك لا تعرف انه أكل أصلا أو لم يأكل ، أما الثانى فيضمن أنك تعرف أنه أكل ولكنك لا تعرف نوع ما أكل، والسؤال فى الصورة الساخرة لم يقل مثلا هل خلقوا شيئا ؟ وانما يقول ماذا خلقـوا ؟ بمعنى أنهم خلقوا فعلا ولكن المطلوب هو بيـان نـوع ما خلقوه ، وهذا غير حقيقى ، وانما هو سخرية من المشركين وعقولهم ٠

وكذلك السؤال الثانى فى الصورة يتضمن سخرية أخرى منهم وهو: (أم لهم شرك فى السموات) فان هذا السؤال بالاضافة الى السؤال الأول يتضمن تخييرا بين مضمون السؤالين ، بمعنى كأن القرآن يثبت أن آلهتهم ثبت لهم أحد الحقين ، اما أنهم خلقوا شيئا فى الأرض ، واما أن لهم نصيبا فى السموات ، والمطلوب من المشركين أن يحددو أيهما كان لآلهتهم ٠

ومن الواضح أن هذا كله ليس من باب الحقيقة ، وانما هو سـخرية من المشركين وعقولهم ، وكيف أنهم لا يفكرون حتى فى بدهيات الأمور ، فقد كان يجب عليهم بداهة وهم يعلمون أن آلهتهم لم يخلقوا شيئا فى الأرض ، وليس لهم نصيب فى السموات ، وأن هذا كله لله وحده ، ألا يعبدو الا الله وحده ، فهو الخالق لكل شىء وحده ، وهو المالك لكل شىء وحده ٠

ولذلك يعقب القرآن على مثل هذه الصورة بقوله :

[ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن
زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده]

بمعنى أن الله ليس هو الخالق فحسب ، وانما بيده نظام الكون كله، وليس له شريك اطلاقا ٠

(٤)

ومن الصور الساخرة فى القرآن بالنفى الضمنى قوله تعالى :

[فلما آسفونا انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين] (١٤)

اللغـــة :

الأسف انفعال يحدث فى النفس نتيجة ألم نفسى ، يقال اسف فـلان على ما فاته، وأسف على ما ضاع منه ، أى حزن ، وآسف فلان فلانا أى آلمه وأحزنه ، ويقال عن الميت فلان مأسوف عليه ، أى محزون عليه ٠

(١٤) ٥٥ سورة الزخرف ٠

فهو فى كل استعمالاته يدور حـول الحزن والألم النفسى ٠

السـياق :

وسياق هذه الصورة هو قصة فرعون فى موقفه من رسول الله موسى عليه السلام وبنى اسرائيل ، حيث صب فرعون طغيانه على اليهود فأذلهم اذلالا شديدا وفعل بهم الأفاعيل ، ولم يستجب لطلب موسى أن يترك بنى اسرائيل يخرجون من مصر ، ولا لتوسل بنى اسرائيل ، فصب الله على فرعون وقومه ألوانا من عذاب الدنيا ، يعبر عنه القرآن فى مثل قوله تعـالى :

[ولقد أخذنا آل فرعـون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون] (١٥)

وقوله تعالى :

[فأرسـلنا عليهم الطوفان والجـراد والقمل والضـفادع والدم آيات مفصـلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين] (١٦)

ومع أنهم أيقنوا أن هذا العذاب الدنيوى من الله الذى أرسل موسى ، الا أنهم أصروا على كفرهم وعتوهم ، ولكنهم حين ضاقت نفوسهم بما هم فيه من العذاب لجأوا الى موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم العذاب ، فان فعل فانهم سيؤمنون ٠

ولكن الطريف أنهم وهم فى هذه الحال وهـذه الضراعة يصوغون طلبهم من موسى فى سخرية أو فى انكار يتضمن سخرية فان صلب القضية بينهم وبين موسى عليه السلام انه يدعى أنه رسول من عند الله ، بينما هم يدعون أنه ساحر ، فكان الوضع وهم يستعينون ، أو يلجأون اليه أن يجاروه فى دعواه ، أو على الأقل لا يجابهونه بتكذيبه ، ولكنهم يقولون ما ينقله القرآن عنهم ٠

[وقالوا يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون] (١٧)

والسـخرية واضحة فى قولهم (يأيها الساحر) فى الوقت الـذى يستغيثون به الى الله ، فقد كان يجب حينئذ أن يعترفوا بالله ، وبأن موسى رسول الله ، ولكنهم أصروا على عنادهم وشركهم ٠

---

(١٥) ١٣٠ سورة الأعراف ٠

(١٦) ١٣٣ سورة الأعراف ٠

(١٧) ٤٩ سورة الزخرف ٠

وقد استجاب الله لنبيه موسى فرفع عنهم العذاب ، ولكنهم أيضا لم يؤمنوا وانما أصروا على كفرهم ، وعلى رفض الايمان بأن موسى مرسل من عند الله ·

الصـــورة :

عندئذ تتضح ملابسات الصورة التى هى (**فلما آسفونا** ··) فالأسف بالقياس الى الانسان حقيقة ، فكل انسان تنتابه عوامل وانفعالات يوصف معها بأنه آسف ، ولكن الأسف بالقياس الى الله مستحيل ، لأن الأسف انما يكون لأمر لا يستطيع الانسان تداركه أو تفاديه ، وهذا غير متصور بالنسبة الى الله سبحانه ، فلا شىء اطلاقا خارج عن مشيئته حتى يأسف عليه ، فنسبة الأسف الى الله فى (**فلما آسفونا**) نسبة مجازية ، بمعنى أن ما فعلوه من من الكفر والعصيان ونكث العهد والظلم يثير غضب الحليم من الناس ، وكذلك غضب الله عليهم ·

ولكن الصورة الساخرة فى حقيقتها هى أن لفظ (آسفونا) يصور كأن الله سبحانه أصبح بسببهم فى صورة الأسف والحزن والشـــعور بمشاعر المغلوب على أمره الذى لا يملك الا الحزن والأسى ، وهذا كله مجاز وليس من الحقيقة فى شىء ، لأن الله قادر على كل شىء ، فضلا عن أنه عالم مقدما بكل ما سيحدث منهم ، ولو أراد أن يمنعهم أو أن يفعل أى شىء لفعل، ولكنه أسلوب القرآن الذى يصوغ المعانى الحقيقية فى صورة طريفة تثير فى النفوس التفكه والطرافة التىترتد سخرية بهؤلاء المشركين وبعقولهم، وكيف يتصورون أنهم بما فعلوا سيبلغون من الله سبحانه شيئا ، أو أنهم يستطيعون أن يثيروا فيه أسفا أو حزنا على شىء ، أو أن يتصوروه مثلهم يحزن أو يأسف أو يتألم ·

فكل هذا بالقياس الى الله سبحانه مجاز ، وحتى لفظ الغضب الذى يتكرر وروده فى القرآن كثيرا منسوبا الى الله ، هو فى الحقيقة مجاز ، لأن الغضب فى معناه اللغوى لدى الناس انفعال يحدث فى النفس نتيجة سخط أو شعور بالضرر ، والانفعال فى نسبته الى الله مجاز ، لأنه لا شىء اطلاقا يحدث دون مشيئته ، ولا يعجز عن منع شىء حتى يغضب لحدوثه ، وانما الحقيقة أن غضب الله هو العقاب على مخالفته ، فحينما يريد أن يعـــاقب أحدا على جرم عقابا دنيويا او اخرويا يقال مجازا ان الله غضب على هـذا الشخص ، بمعنى أراد أن يعاقبه ·

وكأن أسلوب القرآن يقول للناس ان ما يصـــدر من هؤلاء المشركين وأمثالهم يؤسف الانسان اذا صدر مثله من أحد ضده ، بمعنى أنه اذا فعــل

أحد شيئاً ضد شخص مثل ما يفعله المشركون ضد الله ، فان هذا الشخص سيشعر بالانفعال والأسى رغم أن المعادى له بشر مثله وفى مستواه ، فكيف اذا صدر العداء والتحدى من الضعيف وهو الانسان الى القوى وهو الله ؟

(٥)

ومن الصور الساخرة بالنفى ضمنا فى القرآن الكريم قوله تعالى :
[قل ما سألتكم من أجر فهو لـكم ...] (١٨)

السياق :

وسياق هذه الصورة حوار منطقى مع المشركين فى تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اهالتهم التهم والنقائص عليه ، ليقنعوا العـامة من الناس والأتباع بأنه ليس مرسلا من الله ، وانما هو كاذب مفتر ، ففى آية سابقة على هذه الصورة نجد هذا الحوار الضمنى الحـافل على ايجازه بالصراع بين الحق والباطل :

[واذا تتلى عليهم آياتنا بينـات قالوا ما هـذا
الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبـد آباؤكم
وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا
للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين] (١٩)

ففى هذه الآية على ايجازها :

١ ـ عرض الدعوة الدينية ممثلة فى آيات الله ، وصـورتها انها واضحة الحق لا لبس ولا غموض فيها بتعبير (.. **آياتنا بينات**) أى واضحة الدلالة على الحق .

٢ ـ موقف المعارضة من المشركين ويتمثل فى عدة اتهامات ضـد الرسول ودعوته ، ومنها :

(أ) السخرية من شخص الرسول والادعاء بأنه مجـرد شخص مضـل .

---

(١٨) ٤٧ سورة سبا .

(١٩) ٤٣ سورة سبا .

(ب) الاحتماء بسلطان العادات وقداستها حيث يتهمون الرسول بأنه مجرد شخص يريد تحطيم العادات والتهوين من قداسة الآباء والأجداد من السادة الماضين ، وذلك فى تعبير :

[وقالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم]

(ج) تكذيب أن القـرآن من عند الله :

[وقالوا ما هذا الا افك مفترى]

(د) محاولة ايجاد حجة تجوز فى عقول العامة ، حيث ان القرآن بهر العرب ، وأصغت الى روعة بيانه آذانهم ومشاعرهم وأفئدتهم ، فقـادة الشرك يريدون أن يجدوا حجة مقبولة فى تنفير الناس من القرآن ، فاهتدوا الى حجة ظاهرها يمكن أن تتقبله سطحية عقول العامة ، وهى ايجاد شـبه بين تأثير القرآن والسحر ، فانهم يعرفون أن السحر يمكن أن يسلب تفكير المرء ويغير نظرته الى الأشياء ، وهم أيضا لحظوا أن القرآن يؤثر فى سامعيه فيغير من تفكيرهم ومن موقفهم ، واذن فالقرآن فى ادعائهم هـو نوع من السحر (**أن هذا الا سحر مبين**) وقد تعجب القرآن من عمق تفكير المشرك الذى كان أول من توصل الى هذه الدعوى ، ثم شاعت بعد ذلك ، وهذا فى قوله تعالى عن هذا المشرك :

[ذرنى ومن خلقت وحيـدا ، وجعـلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيـدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيـدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثـم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر] (٢٠)

فالقرآن يؤكد عمق فكره وتدبيره (**انه فكر وقـدر**) ثم يتعجب من كيفية وصوله الى هذا التدبير الذى ينتهى بوصف القرآن بأنه سحر ، ويكرر التعجب :

[فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ٠٠]

واذن فالصورة الساخرة انما جاءت فى سـياق حافل بالصراع والجدل حول رسالة الرسول ومدى نصيبها من الصدق والحق ٠

---

(٢٠) ١١ ـ ٢٥ سورة المدثر ٠

ولكن فى هذا السياق تعبير ينبغى أن نقف عنده قليـــلا ، وهو لفظ (ذرنى) من جملة (ذرنى والمكذبين) فان لفظ ذرنى بمعنى اتركنى وهؤلاء، وظاهره يتضمن كأن هناك من يحاول منع الله سبحانه من البطش بهؤلاء المكذبين ، والخطاب للنبى ، كأنه هو المانع لله ، وليس هذا موضع السخرية، وانما الموضع هو الصورة نفسها ، صورة أن الله يريد أن يفعل بهم شيئا ولكن يتدخل شخص آخر ليمنعه ، وهى صورة من الواضح أنهـا غيـر حقيقية ، ولكنها من أساليب القرآن الذى يقرب المعانى من عقول العـامة حتى كأنه حديث أو تصوير لحياة الناس فيما بينهم من باب المجاز ٠

ولكن الاشارة الدقيقة فى صيغة (ذرنى) هى أن وجود رســول الله بينهم هو الحماية لهم من عذاب الله فى الدنيا من باب قوله تعالى :

[وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم] (٢١)

ولكن القرآن يصوغ المعنى كأن الرسول يحاول منع الله من البطش بهم ، والله سبحانه يطلب منه أن يتركه واياهم ، وما دام الله لم يبطش بهم فعلا فمعناه أن الرسول متشبث بمنع الله من الانزال بهم ، وان الله مستجيب له رغم محاولته سبحانه البطش بهم ٠

الصورة :

والصورة كما سبق هى :

[قل ما سألتكم من أجر فهو لكم]

فان منطوق التعبير اثبات أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب منهم أجرا على تبليغ الرسالة لهم ، وأنه يتنازل لهم عن هذا الأجر ، ومن الواضح أن هذا كله ليس من الحقيقة ، وانما هو سخرية من عقولهم التى أهملوها ، ولو استخدموها لعرفوا فى غير جهد عقلى أنه صادق ، لأنه اذا لم يـكن مرسلا من الله وأن الدعوة التى يدعو اليها هى دعوة الله فهى اذن دعـوة لنفسه ولمصلحته الشخصية ، واذن فهو مستفيد لنفسه من هذه الدعـوة ماديا أو ادبيا ، فأما ماديا فهو أن يطلب مقابلا ماديا لجهده وما يتحمله فى سبيل دعوته ، فهل طلب منهم أجرا ؟ وأما معنويا فهو أن يطلب منهـم مقابلا معنويا لرسالته وجهده كأن يجعلوه زعيما أو ملكا ، فهل طلب منهم شيئا من هذا ؟ وهم يعلمون فى غير ريب أنه لم يطلب طلبا ماديا أو أدبيا.

---

(٢١) ٣٣ سورة الأنفال ٠

فهى اذن ليست دعوة لنفسه ومصلحته ، وانما هى كما يقول هو دعــوة الله وان كل مهمته أنه مرسل لتبليغها اليهم ٠

ولكن سخرية القرآن لا تنحو فى أسلوبها هذا المنحى ، وانما تثبت أن الرسول طلب منهم فعلا أجرا ، ولكنه يريد أن يتنازل لهم عن هذا الأجــر !

[ما سألتكم من أجر فهو لكم]

أما الحقيقة فهى فى التعبير التالى للصورة :

[قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله وهو على كل شىء شهيد]

فالحقيقة هى (**أن أجرى الا على الله**) ، وفى هذه الحقيقة دقة من آثار دقة كلام الله العليم بطبيعة الناس ، وهى أن الانسان لا يعمل شيئا دون التطلع الى مقابل من أى نوع مادى أو معنوى ، فكأنه صلى الله عليه وسلم يقول لهم بتوجيه من ربه انى بشر كسائر الناس ، وأتطلع الى مقابل لمــا أبذله وأتحمله فى تبليغ الرسالة ، ولكن هذا المقابل انما أطلبه منطقيا ممن أعمل له ، والذى أعمل له وأطلب منه أجرى هو الله وحده ٠

سخرية القرآن ومشاهد العقاب

والقرآن حين يعرض مشاهد العقاب الذى يصطليه أعداء الله لا يكتفى بعرض العقاب الحسى ، وانما يبرز أيضا جانب العقاب النفسى ، ليكون العقاب كاملا ، جسديا ونفسيا ، وليكون الزجر به والتخويف منه أبلـغ فى النفوس ·

ولكن الملحوظ أن القرآن انما يهتم بابراز العقاب النفسى فى مجال الحديث عن السادة وعلية القوم ، فهؤلاء هم الذين يؤلمهم العقاب النفسى كالاهانة والاذلال أشد مما يؤلم عامة الناس ، والفرسان والشجعان من الناس فى كل بيئة لا يحذرون الموت على أية صورة ، وانما يحذرون الهوان والذل ، كما يقول الشاعر العربى القديم ·

نعرض للطعان اذا التقينـا وجوها لا تعـرض للسباب

فالتعرض للموت بيد الأعداء والأقران ليس مما تحذره نفوسهم فضلا عن أن تخافه ، ولهم فى ذلك مأثورات وأشعار لا تكاد تحصى ، ومن ذلك قول عروة بن الورد العبسى :

فـــان فـاز سـهم للمنيـــة لم أكـن

جـزوعا وهـــل عن ذاك من متأخر ؟

ولذلك كانت مجالس القضاء العرفى الذى يتمثل فى الأشخاص الذين يختارونهم للحكم فيما يحدث بين الأفراد والجماعات من تنازع أو عدوان، كانت هذه المجالس تلتزم أن تكون عقوبة العدوان بالاهانة أشد من عقـوبة العدوان على البدن ، فعقوبة الصفع أو الشتم المهين مثلا أشد من عقـوبة

الضرب مهما كان مؤلما ، على أساس أن الاهانة أشد نيلا وايلاما للنفس الكريمة من الألم الجســـدى مهما يبلغ ٠

والقرآن يتجاوز مرحلة الاذلال لأعداء الله بمرحلة أخرى فى الايلام النفسى ، وهى السخرية منهم ، فان الاذلال مهين مؤلم للنفوس الكريمة ، ولكن درجات وألوان ، فقد يكون الاذلال أحيانا بمجرد اشعار الخصـــم بالعجز ، أو بارغامه على تقبل ما لا يريده أو نحو ذلك ، ولكن أسلوب القرآن يزيد عن ذلك أن يصب على أعدائه سخرية مرة وهم يصطلون العذاب البدنى ، أو وهم قادمون عليه ، حتى لا يبقى فيهم شىء غير معذب من أجسادهم ونفوسهم معا ٠

ولا شك أن الهدف الوحيد من عرض هذا فى القرآن انما هو نوع من رحمة الله بأعدائه أنفسهم ، حيث يحذرهم من هذا العذاب مقدما فى وقت يملكون فيه النجـــاة بأنفسهم وهو وجودهم فى الحيـــاة الدنيا حيث يملكون الايمان بالله ، فينحون بأنفسهم ، بل ينتقلون بها الى خير كثير ٠

والقرآن حافل بهذه الصور الســاخرة من أعداء الله فى الآخرة ، ومن هذه الصور قوله تعالى اشارة الى جهنم وما فيها :

(١)

[هذا نزلهم يوم الدين ٠٠] (١)

اللغـــة :

(النزل) فى لغة العرب بضم النون والزاى أو بضم النـــون وسكون الزاى هو ما يعد للضيوف أو النازلين بصفة عامة ، وهى ما يسمى اليــوم بالفندق ، وما زالت بعض البلاد العربية تسمى الفندق فيها نزلا ٠

الســـياق :

وسياق الحديث فيما يسبق هذه الصورة يبرز أنه خاص بطبقة السادة والأغنياء وقادة المجتمع بصفة عامة ، اما بمناصبهم واما بأموالهم ، واما بجاههم وأحسابهم ، فهؤلاء كما سبقت الاشارة آنفا الذين ينال من نفوسهم الذل والهـــوان ، وهم فى الوقت نفسه العقبة الكئود أمام الاســـلام فى انتشاره ، وأمام الراغبين اليه ، والقرآن يشير الى هذه الطبقة بالترف فى قوله تعالى فى سياق هذه الصورة :

[انهم كانوا قبل ذلك مترفين] (٢)

(١ ، ٢) ٤٥ سورة الواقعة ٠

فهم اذن طبقة الخاصة فى المجتمع ، لأن المترفين لا يكونون فى العادة من عامة الناس ، فان الترف انما يكون من غنى واسع ، والغنى وسيلة تميز وعلو فى كل مجتمع ٠

وجريمة هؤلاء المترفين تكذيبهم بالدين ، وبالبعث بعد الموت ، بل انهم يصوغون تكذيبهم هذا فى لون من السخرية ، حيث يقولون :

[**أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون**]

ففى أسلوبهم نغمة واضحة السخرية ، ولو لم يقصدوا الى السخرية من البعث ومن القائلين به لقالوا مثلا : لن نبعث بعد أن نكون ترابا وعظاما نحن وآباؤنا ، ولكنهم يصوغون انكارهم وتكذيبهم فى هذا الاستفهام الساخر (**أئذا متنا** •••) ثم (**أئنا لمبعوثون**) ؟ وأوضح ما فى السياق اقترانا بالصورة وتمهيدا لها هذه الآيات الكريمة :

[**وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، انهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، او آباؤنا الأولون ، قل ان الأولين والآخرين ، لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ، ثم انكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين**] (٣) ٠

وهذا السياق يتضمن فيما يتضمن :

١ ــ وصف للعذاب الشديد الذى ينتظرهم فى جهنم ٠

٢ــ وصف لحال هؤلاء المترفين على أساس أنهم فعلا فى جهنم ٠

٣ ــ سخرية من حالهم فى أثناء العذاب ، وسخرية من استقبالهم قبل العذاب ولكن قبل أن يصل الى الحديث عن الصورة الساخرة نجد

---

(٣) ٤١ ــ ٥٦ سورة الواقعة ٠

القرآن يرسم لهم صورة أخرى ساخرة من هيئتهم وهم يصطلون العذاب ، وهى من آيات السياق السابق فى قوله تعالى :

[··· فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم]

والســـخرية تتمثل فى

[فشاربون شرب الهيم]

والهيم مفردة اهيم للمذكر ، وهيماء للمؤنث ، وهو من أوصـاف الابل ، فالابل الهيم هى العطاش ، وأصل الهيام العطش الشديد ، وهيمان أى عطشان ، ولكن لابد أن يكون العطش شديدا ليس فى صورة العطش المألوف ، حتى انهم يصفونه بأنه مرض يصيب الابل فيجعلها تعطش فلا ترتوى ، وهذا ليس بغريب فبعض أمراض الناس من أعراضـها العطش الشديد ، ومن معنى الهيام أخذوا معنى العشق الشديد مراعاة لرابطة عدم الارتواء فى كل منهما ، ثم أصبحت دلالة الهيام على العشق دلالة أصلية فى اللغة من كثرة استعمالها ·

وسخرية أسلوب القرآن هى تصوير هؤلاء المشركين حين يعرضـون فى جهنم على الحميم وهو نار مذابة فيلقى الله فى أجوافهم عطشا هائلا فلا يملكون الا أن يشربوا من هذه النار السائلة ، ومهما اشتد بهم الألـم فان شدة العطش تزيدهم عبا من هذه النار ، فكأنهم حينئذ قطعان من الابل المصابة بداء الهيام الذى يجعلها تشرب وتنهل من الماء فلا ترتوى ·

الصـــورة :

وأما الصورة الساخرة وهى (هذا نزلهم يوم الدين) فانها تتمثل فى الاشارة بلفظ هذا الى مكان أو شىء معين فيقال انه نزلهم أى المكان أو الضيافة التى أعدت لهم ، فان الأسفار كانت تضـــطرهم كما تضطر أى مجتمع الى ايجاد أماكن ينزل بها المسافرون ، وكل صـــاحب نزل يهمه بطبيعة الحال أن يهىء فى نزله كل وسائل الراحة والمتعة للنازلين حتى يغريهم بالنزول عنده ، فحينما يسمع السامع أن هؤلاء المترفين من سادة الشرك أعد لهم نزل يشار اليه بتعبير (هذا نزلهم) يتوقع لأول وهلة أن تكون فى هذا النزل كل وسائل الراحة والرفاهية ، خصوصا وأن هؤلاء النازلين ممن تعودوا الرفاهية لأنهم (كانوا قبل ذلك متـــرفين) وحتى لا يحدث فى ذهن السامع لبس فيتوهم أن الحديث متجه الى نزل فى الدنيا ، فان التعبير يحصر ذهنه فى الآخرة ، وذلك بتعبير (يوم الدين) ·

ولكن طرافة السخرية تتركز فى التناقض الذى يحدث فى ذهن السامع مهما كان زمنه وجيزا بين كونه يعرف من السياق أن الحديث عن أعداء الله ، وعن عذاب شديد لهم وبين أن يرى ضيافة ممتعة ومكانا مريحا قد أعد لهم ، فهنا تكمن السخرية من أعداء الله ، وسرعان ما يدرك السامع أن التعبير بالنزل المعد لهم ليس الا سخرية بهم ، فان المعد لهم حقيقة انما هو عذاب متعدد جوانب الايلام الرهيب ·

(٢)

ومن الصور الساخرة فى مشاهد العقاب قوله تعالى :

[انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون] (٤) ·

اللغـــة :

الاقماح فى لفظ (مقمحون) هو رفع الرأس مع غض البصر ، وهو من مظاهر الابل حين يراد حبسها عن السير أو الحركة ، فتجذب رأس البعير بالرسن (٥) الى الخلف ، فترتفع رأسه ، فتكون الرأس مرفوعة الى أعلى ، ولكن الأنف أو الوجه يتجه الى أسفل ، وبالتالى يكون البصر متجها الى أسفل ، وهذا معنى أن الاقماح هو رفع الرأس وغض البصر ·
والأغلال واحدها الغل (بضم الغين) وهو ما يحيط بالعنق لتقييد الحركة ، والفرق بينه وبين القيد ، أن القيد يكون فى الرجلين أو اليدين، أما الغل فيكون فى العنق ·

الســياق :

والسياق يدور حول قوم من المشركين الذين يدعوهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الايمان ، ولكنهم أصموا آذانهم ، وأعموا أبصارهم ، وأغلقوا عقولهم عن هذه الدعوة ، حتى لا يتسرب شعاع منها الى نفوسهم، فلا أمل والحال هذه فى ايمانهم ·

ولكن القرآن يصور عزلتهم عن الايمان فى صورة حسية ، كأن هناك حواجز وسدودا منيعة تحول بينهم وبين الايمان سواء من أمامهم أو خلفهم، وفوق ذلك وضعت على أبصارهم غشاوة حتى لا يروا من حولهم شيئا ، فهم

---

(٥) الرسن : هو المقود الذى تقاد به الدابة ·

اذن غير مبصرين ، وحتى لو أبصروا فانهم محجوزون بهذه الحـــوائل المنيعة من أمام ومن خلف ، كما يقول تعالى :

[وجعلنا من بين أيديهم ســـدا ومن خلفهم سدا فأغشـــيناهم فهم لا يبصرون ، وســـواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون] (٦)

فعدم الأمل فى ايمانهم مهما دعاهم الرسول هو نتيجة لأنهم معزولون عن الايمان بعدة حواجز ، فلن تشعر به نفوسهم ٠

الصـــورة :

[انا جعلنا فى اعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون]

تصوير القرآن الساخر يمثلهم فى حال معينة ، هى حالهم والرسول يدعوهم الى الايمان ، ولكنهم كأنهم لا يسمعون ولا يبصرون ، لأنهـم عطلوا حواسهم ، بل ولا يشعرون بوجود الداعى لأن بينهم وبينه سدودا منيعة، فأشخاص هؤلاء المشركين موجودة، والدعوة موجهة اليهم ، ولكنهم كأنهم لا يحسون بالدعوة ولا بصاحبها ٠

فهم حينئذ أشبه ما يكونون بمنظر الجمل المقمح الذى شد صاحبه زمامه فرفع رأسه ، ولكن شده الى الخلف يفرض عليه توجيه وجهه الى أسفل ، فهو فى ظاهره مرفوع الرأس ، ولكنه فى حقيقته منكس الوجه ، وهذا أوضح ما يكون فى وجه الشبه بين البعير المقمح وبينهم حينئذ ، من حيث ان من يرى المشركين فى حركتهم العادية وشموخ أنوفهم ، واعتزازهم بأنفسهم يحسب أنهم فى كامل وعيهم وادراكهم ، بينما هم فى حقيقة أمرهم منتكسون عن الفطرة السوية انتكاسا شديدا ، حيث ان الفطرة تدعوهم الى الايمان ، ولكنهم يرفضون ، وأسوأ من ذلك أنه لا أمل فى تقويم مداركهم ، لأنهم اغلقوها دون الايمان اغلاقا محكما ٠

ولكن الطرافة تتمثل فى صورتهم وكأنهم قطيع من الابل وهى فى وضع الاقماح المعروف لكل سامع عربى حينئذ ٠

والصورة وان كانت فى الدنيا تصويرا لنفـــورهم من الدين الا أن عناصرها وخصوصا الأغلال مأخوذة من الآخرة ٠

---

(٦) ٥ سورة يس ٠

ومن الصور الساخرة فى مشاهد العقاب قوله تعالى :

**[وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم
يخفف عنا يوما من العـذاب] (٧)**

والسخرية تتركز فى لفظ الخـــزنة ٠

اللغـــة :

الخزنة جمع خازن ٠ والخزانة هى ما يحفظ فيه المال أو الشىء الثمين الذى يخشى ضياعه أو امتداد يد اليه لكونه موضع الطمع فيه ، والخازن هو القائم على الخزانة والحافظ لها ، والخزنة جمعه ٠

السـيـاق :

وسياق الصورة يبدأ بحوار بين السادة والأتباع فى جهنم ، ثم ينتقل الحوار فيصبح بينهم جميعا وبين الملائكة القائمين على أمر جهنم ، وكلا الموقفين لا يخلو من طرافة ، ومن سخرية معا ٠

فأما الموقف الأول فهـــو أن الأتبـــاع وقد كانوا فى الدنيا تابعين للسادة ، والسادة كفروا ورفضوا الدعوة الى الايمان ، فانساق الأتباع وراءهم ، على أمل أنهم أعرف منهم بالصواب من جهة ، ومن جهة أخرى فانهم يرون السادة حماية لهم ، لأنهم الذين يتصدون لمواجهة الأمـور الأحداث ، فالأتباع وهم فى جهنم ينظرون أو يطلبون من السادة أن يؤدوا تبعات السيادة التى كانت لهم فى الدنيا ، والتى كانت سببا فى وجـــود الأتباع فيما هم فيه من عذاب جهنم ٠٠

**[فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا
فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار] ؟**

فالاتباع لا يطلبون منهم انقاذهم من العذاب كله ، وانما يلتمســون منهم تخفيف العذاب ، وكأنهم يطلبون منهم أيسر ما ينتظره المسود من سيده ، أن يحميه ولو بعض الحماية ، فيرد عليهم السادة ردا لا يخـلو من تهكم ، وكأنهم يسخرون من أنفسهم فيقولون (انا كل فيها) بمعنى أننا لم نعد سادة ، وانما أصبحنا مثلكم ، لا نملك لكم ولا لأنفسنا شيئا ،

---

(٧) ٤٩ سورة غافر ٠

على أن طلب الأتباع من السادة هو فى حقيقة الأمر سخرية يوجهها الأتباع الى السادة ، لأنهم يعلمون حينئذ علم اليقين انهم لن ينفعوهم فى شىء فكانهم يسخرون من السادة ، بل ومن أنفسهم أيضا مستعيدين صـــورة الحياة الدنيا ، وكيف أنهم انساقوا بجهل وغباء وضعف وراء الســادة فأصبحوا فيما هم فيه اليوم ·

وهذا المعنى ولا شك حين يورده القرآن فانما يوقظ الأتباع وينبههم حتى يفكروا اليوم فى حياتهم الدنيا قبل فوات الأوان ·

وأما الموقف الثانى فحين ييأس الأتباع من أن يجدوا عند الســادة نفعا ، ويصبحون هم والسادة فى العذاب سواء يتحدون جميعا فى الألم والشعور بشدة العذاب ويبحثون عن أية وسيلة يتخيلون فيها غناء عنهم ، أو شيئا من رحمة بهم فيلجأون الى الملائكة القائمين على جهنم يستعطفونهم أن يدعوا الله أن يخفف عنهم ولو يوما يلتقطون فيه أنفاسهم من شـــدة العذاب ، ومن الطريف أنهم لا يقولون لهم ادعوا (الله) وانما يقولون (ادعوا ربكم) وكأنهم يخجلون من ادعاء الايمان اليوم ، أو لمراعاة أن الملائكة وقد التزموا العبودية لله فهم قريبون منه ، وهو قريب منهم ، أما هم فبخلاف هذا ·

ولكن الملائكة يردون عليهم فى سخرية واضحة منهم ، حيث يسجلون عليهم أولا أنهم تعمدوا الكفر ، وبهذا يكونون هم الذين اختاروا لأنفسهم عامدين ما هم فيه اليوم ، ثم يوجهون اليهم السخرية التى يحكيها القرآن فى قوله (قالوا فادعوا) طالبين منهم أن يدعوا هم هذا الدعاء ، ووجه السخرية أن الملائكة والكافرين معا يعلمون على وجه اليقين أنه لن يقبل يومئذ دعاء من أحد ، لأن ذلك انما يكون فى الدنيا ، ومع ذلك يقــولون لهم (فادعوا) سخرية وتهكما ، ولذلك يعقب القرآن بعد ذلك بأسلوب الحقيقة وهو :

[وما دعاء الكافرين الا فى ضلال]

وآيات السياق هى :

[واذ يتحاجون فى النار فيقول الضـــعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد ، وقال الذين فى النار

لخـزنة جهنم ادعـــوا ربكم يخفف عنا يوما من
العذاب ، قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات
قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى
ضـــلال] (٨)

الصـــورة :

[وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ···]

وتركيز السخرية هو فى لفظ الخزنة ، حيث انه من البدهى أن جهنم ليس فيها الا النار وألوان العذاب الشديد وكل هذا لا يحتاج حفظا ، ولكن أسلوب القرآن يعبر عن جهنم بأنها تحتاج الى خزنة ، ومعنى ذلك أنها خزانة ، أى أن ما فيها أشياء ثمينة كالمال من ذهب أو فضة أو جواهر ، وأنها مطمـع للطامعين ، وكأنه يخشى أن يتسـلل اليهـا بعض اللصوص ليسرقوا مما فيها ، كما يفعلون ازاء الخزائن ، فكانت فى حاجة الى حراس وحفظه ليحافظوا على ما فيها ، فجعل الخزنة ليتولوا هذه المهمة ، وهى مهمة المحافظة على جهنم وما فيها من أشياء ثمينة ، ولكن شيئا من ذلك ليس من الحقيقة ، وانما هو أسلوب السخرية من الذين يعذبون فيها ، كما وصفها القرآن بأنها (نزل) أى مكان مريح وضيافة طيبة معـــدة للنازلين فيها ، وكما وصف أسلوب القرآن عذابها بأنه بشرى للمعذبين ، كقوله تعالى (فبشرهم بعذاب اليـــم) ، وكل ذلك ليس الا ســـخرية ونهكما ·

والجاحظ بحسه المرهف ، وذوقه اللماح يعبر بأسلوبه الفكه المميز عن هذه السخرية فيقول عن وصف ملائكة جهنم بالخزنة ··

والخزنة الحفظة ، وجهنم لا يضيع منها شىء فيحفظ ، ولا يختار دخولها انسان فيمنع منها ··) (٩)

وذلك على أساس توسعة فى دلالة لفظ الخزنة ، حيث يجعله للدلالة على الخازن القائم على حراسة خزانة ، وللدلالة على الحارس مطلقا ، سواء أكان حارسا لخزانة أم غيرها ، وللدلالة على الحاجب ونحو ذلك ، فكل هذه استعمالات مجازية لا يناسب شىء منها جهنم على الحقيقة ، وانما هو أسلوب مجاز يراد به التهكم والسخرية ·

---

(٨) ٤٧ ــ ٥٠ سورة غافر ·
(٩) البيان والتبيين ١/١٥٣ ·

الأثـر :

وهذه الصورة كأى شىء فى القرآن ليس مرادا بها مجرد التفكه ، وانما هى رسالة واضحة موجهة الى المشركين عامة ، والى الأتباع بصفة خاصة ، ليستخدموا عقولهم ، ولا ينساقون وراء ضلال السادة والقادة بدون وعى ، فانهم لن ينفعوهم فى شىء ، غير أن الرسالة مصوغة بأسلوب فكه طريف ·

(٤)

ومن الصور الساخرة فى مشاهد العقاب فى القرآن :

[ذق انك أنت العـــزيز الكريم] (١٠)

السـياق :

كما سخر القرآن من السادة كثيرا لينبه الأتباع الى حقيقتهم فى الدنيا، فانه يسخر من حالهم فى الآخرة ، ليبين للعامة والأتباع مصيرهم فى الآخرة ومن ذلك هذه الصورة التى نحن معها فانها منصبة على شخص متميـز فى سيادته ، بحيث لم يكن سيدا وزعيما فحسب ، وانما كان منفردا بمنزلته فى السيادة ، بحيث لا ينافسه فى هذه المنزلة أحد من السادة الذين هـم دونه مكانا ، ويصور السياق العذاب الرهيب المعد لهذا الزعيم الفـريد فى زعامته ، فيصف هذا العذاب بوصف ساخر ، حيث يجعله كأنه طعـام من شجرة ، وحينما تذكر الشجرة والأكل منها ينصرف الذهن الى شـجر الفاكهة ، فكأن هذا الطعام فاكهة معدة لهذا الزعيم ، وهذا يتضمن أن تكون فاكهة من أجود الفواكه ، لتناسب مكانة هذا الزعيم الكبير ، وكأنه سيجد لذة ومتعة فى هذه الفاكهة فيأكل منها كثيرا حتى يعطش ، فيطلب ماء ، فيجاء له بماء ، ومن شدة العطش الذى نتج عن كثرة الأكل يصبون عليه الماء صبا ، ولكن المفاجأة الطريفة الساخرة أن الشجرة ليست شجرة فاكهة والماء ليس ماء شراب وانما الشجرة نار فى صـورة شـجرة والماء أيضا نار فى صورة ماء ، وعلى هذا الزعيم أن يأكل من هـذه الشجرة أكلا كثيرا ، وهو حينئذ مسخر لا يملك ولا يستطيع أن يرفض شيئا ، وعليه أيضا أن يشرب شربا نهما من هذه النار التى هى فى صورة ماء ، وهذا السياق فى قوله تعالى :

[أن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهـل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميـم] (١١)

---

(١٠) ٤٩ سورة الدخان ·

(١١) ٤٣ ـ ٤٨ سورة الدخان ·

والمهل فى أغلب دلالته عند العرب هو دردى الزيت أى الطبقة الرديئة منه فى قاع الوعاء ، والحميم هو الماء الحار ، والعتل هو الجذب بشـدة وعنف ، وتشبيه على الزيت بغلى الماء أن الزيت العادى حين يغلى يكون ساكنا ، ولكن الماء حين يغلى يرتفع ويتقلب ، وهنا وجه الشبه ، حيث ان طعام شجرة الزقوم يشبه دردى الزيت يغلى فى البطون ، وتبـلغ حرارته درجة تخرجه عن طبيعة الزيت فيغلى غليان الماء وليس غليان الزيت **(كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم)** ٠

الصـــورة :

والصورة الساخرة تتمثل فى تعبير **(ذق انك أنت العزيز الكريم)** وقد سبقت الاشارة الى أن أهم أسباب الشعور بالطرافة التى تثير الفكاهة أو الضحك أو العجب هو مفاجأة الذهن بما لم يكن يتوقع ، أو بعكس ما كان يتوقع ، والذهن هنا يتابع وصف العذاب الرهيب الذى يعد لهـذا السيد الذى كان يحتل وحده قمة السيادة فى المجتمع فى حياته الدنيا ، ويتابع الاهانة والاذلال الذى يعامل به فى الآخرة ، فقد أعد له عذاب فظيع ثم أخذوه الى هذا العذاب فى أسوأ صور الاذلال لمثله **(خذوه فاعتـلوه الى سواء الجحيم)** والعتل هو الجذب فى عنف وقسوة ، وهذا أبلغ الاهانة لمثل هذا السيد ، وكذلك حين يقـال **(ثم صبوا فوق رأسه من عـــذاب الحميـــم)** ٠

وحينئذ يكون واضحا فى ذهن السامع أن كل ما سيأتى فيما يتعـلق بهذا الزعيم لابد أن يكون عذابا واذلالا قياسا على ما سبق ، ولكنه يفاجأ بأن الأسلوب يأخذ مجرى النقيض من السياق السابق ، حيث يقولون له **(ذق انك أنت العزيز الكريم)** ، وهذا التعبير يتضمن فى ظاهره رفقـا وتكريما لهذا الزعيم من ناحيتين :

١ ــ لفظ (ذق) فيه رقة ولطف ، حيث انه يستعمل فى اختبار طعـم الأشياء ذات الطعم ، ولكن من يقوله انما يقوله عادة حين يكون واثقا من لذة طعم هذا الشىء ، فأنت حين تريد شراء فاكهة من بائع ، وتسأله عن مدى جودة طعمها لا يقول لك (ذق) الا اذا كان واثقا من طيب طعمها ، فكذلك حين يقولون لهذا الزعيم (ذق) فان هذا يقتضى أن يكونوا واثقين من لذة طعم ما يقدمونه اليه ، وهذه سخرية بالغة من هذا الزعيم ، فانهـــم يعلمون أن ما يقدمونه اليه لا يذاق أصلا ، لأنه نار تتلظى ، هذا فضـــلا عن أن ما يقدم اليه لا يقدم اليه ليذوقه فحسب ، وانما ليملأ منه جوفه ٠

٢ ـ تعبير (**انك أنت العزيز الكريم**) فيه أسلوب تأكيد ، وأسلوب قصر ، فالتأكيد بلفظ (ان) ومعناه تأكيد نسبة العزة والكرم الى هذا الزعيم ، والقصر فى جملة (**أنت العزيز الكريم**) ومعناه أنت العزيز الكريم وحدك دون غيرك ، وهذه سخرية أخرى أشد من السخرية الأولى ، فانه حينئذ ليس عزيزا ولا كريما ، بل ولا شخصا عاديا ، وانما هو فى حضيض الذل والهوان فضلا عن العذاب البدنى ٠

وليس هناك ما يدعو الى تأويل الألفاظ واخراجها عن دلالتها العربية، كما يرى بعضهم ، فانهم لا يتصورون كيف يقال لمثله حينئذ هذا فيحاولون حمل الألفاظ على عكس معناها ، وفى هذا خروج على اللسان العربى الذى يحدد القرآن أنه نزل به ، هذا فضلا عن أن مثل هذا التأويل يضع هدفا من أهداف أسلوب القرآن ، وهو العذاب النفسى لمثل هذا السيد بالسخرية منه ، والتهكم بموقفه يومئذ ٠

ومع ذلك فان أسلوب السخرية لا يبعد كثيرا عن أسلوب الحقيقة الذى يريدون أن يلتزموه ، فان السخرية تتضمن كأنهم يقولون له : لقد كنت فى الدنيا سيدا مطاعا ، وكنت متفردا بالسيادة والعزة ، فانظر هل يغنى عنك اليوم هذا حيث كفرت وعصيت وصددت عن سبيل الله ؟

ثم تختم الصورة بهذا التعبير الذى لا يخلو أيضا من سخرية ، حين يقولون له مشيرين الى العذاب (**ان هذا ما كنتم به تمترون**) أى انكم كنتم تكذبون بوجود العقاب فى الآخرة ، فهذا هو العقاب ٠

(٥)

ومن الصور الساخرة فى مشاهد العقاب :

[وبشر الذين كفروا بعذاب أليم] (١٢)

اللغـــة :

البشارة تدور حول السرور ، ولا تكون الا للاخبار بشىء سار ، فهى فى لغة العرب دائما للخير ، ويقال بشره بفتح الشين وبتشديدها اذا نقل اليه خبرا فيه خير ومسرة له ، وكذلك أبشره ، والبشرى هى مصدر السرور ، والبشر بكسر الباء طلاقة الوجه ، والبشارة بفتح الباء الجمال ، ويقال رجل بشير ، وامرأة بشيرة اذا وصفا بالحسن ، فالمادة كلها تدور حول ما يبعث على السرور ٠

---

(١٢) ٣ سورة التوبة ٠

الســـياق :

يتكرر فى القرآن استخدام البشارة موجهة الى كل أعداء الله ، سواء من الكافرين بعامة ، ومن المشركين ، ومن اليهود بخاصة ، والمكلف بحمل هذه البشارة اليهم هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، بمعنى أن الله سبحانه يطلب منه أن يحمل اليهم البشرى ٠

الصـــورة :

وحين يسمع العربى لفظ البشارة فانه لا يلتوى عليه فهم مدلولها ، فهى من الألفاظ المتداولة بين العامة والخاصة ، فيفهم منها بداهة أن الله سبحانه يكلف رسوله أن يحمل الى أعداء الله بشرى تدخل الى نفوسهم السرور ، وتملأ قلوبهم بالبهجة ، ولكنه يفاجأ بأن هذه البشرى التى يحملها اليهم الرسول انما هى عذاب ، بل عذاب أليم ٠

وهنا يحدث التناقض الذى يثير فى النفوس الطرافة أو العجب ، فان الذهن حينما يرد عليه لفظ البشرى يوطن خياله على مسار معين ، هـو صورة سرور وفرح قادم ، ولكنه يفاجأ بعكس ما كان يتوقعه ، انه ألم شديد ، ولو كان السياق يشير الى ذلك ما وجدت النفوس حينئذ طرافة أو عجبا ، حيث يكون هو المتوقع ٠

وكذلك الحال بالقياس الى أعداء الله ، فان القرآن موجه اليهم كما هو موجه الى غيرهم ليكون حجة على جميع عباد الله ، فحين يسمعون مع كفرهم أن هناك رسولا يحمل اليهم بشرى ، فان نفوسهم لأول وهلة تمتلىء بالرضا والتطلع الى الخير والسرور المنتظر ، خصوصا وأنهم بغرورهم وجهلهم يتصورون أنهم يستحقون ذلك ، ولكنهم يفاجأون بأن البشرى التى تزف اليهم انما هى عذاب أليم ، ومهما يكن الزمن بين الأمرين وجيـــزا ستحدث فى نفوسهم صدمة أو نوع من الاحباط ٠

ولكن الأهم من ذلك هو تعذيبهم نفسيا بهذه السخرية منهم ومن حالهم ، فان مخاطبة الشخص بأسلوب الحقيقة أكرم له مهما يكن المضمون سيئا ، أما السخرية فانها اهانة واستخفاف ، ولو أن شخصا اقتيد الى عقاب فقيل له انك مقود الى العقاب فان هذا أكرم له من أن يقال له انك مدعو الى ضيافة أو اكرام ، لأن الحديث عن الضيافة والاكرام حينئذ اهانة له ، وعقـاب آخر يضاف الى العقاب المقود اليه ٠

ومن الصور الساخرة فى مشاهد العقاب قوله تعالى :

[هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، افسحر هـذا ام أنتم لا تبصرون] (١٣)

وصلب الصورة الساخرة هو :

[افســـحر هــذا] ؟

الســـياق :

وسياق الصورة كله تصوير مجسد لحال المشركين المكذبين بالدين ، وبما يدعو اليه من الايمان بالغيبيات ، وخصوصا الآخرة وما فيها ، فهـم يكذبون بالبعث والحساب والجنة والنار ، وكلما حذرهم رسل الله من عقاب الآخرة ، ومن جهنم سخروا منهم وكذبوا بكل ذلك ٠

فيصور القرآن كيف يكون عقابهم فى الآخرة ، وهو عقاب من نوعين، عقاب مادى يسلط على كل ذرة فى أجسادهم ، سواء فى ظاهر الأجساد ، وفى باطن الأجواف ، وعقاب نفسى يتمثل فى السخرية منهم ، وفى تذكيرهم بما كانوا فيه فى الدنيا من تكذيب وغرور وطغيان وضلال ، والقرآن يصور هذا فى قوله تعـالى :

[فويل يومئـذ للمكذبين ، الذين هم فى خـوض يلعبون ، يوم يدعون الى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكـــذبون ، افســـحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون] (١٤)

والدع : الدفع الشـــديد ٠

فالسياق يصور هؤلاء المكذبين حين يساقون الى العـذاب وقـد جفلوا وتراجعوا عند رؤيتهم نار جهنم ، ولكن زبانية جهنم يدفعونهم اليها دفعا ، وهم لا يستطيعون أن يقاوموا دفع الزبانية ، حتى يستقروا فى جهنم

الصـــورة :

[افسحر هذا أم أنتم لا تبصرون] ؟

---

(١٣) ١٥ سورة الطور ٠

(١٤) ١١ ـ ١٦ سورة الطور ٠

والسخرية تتركز فى هذا المشهد الذى يسخر فيه الزبانية من هـؤلاء المكذبين ، حين يرى المكذبون جهنم بأعينهم وقد كانوا يكذبون بهـا فى الدنيا ، وهم مدفوعون اليها ، ويوقنون كل اليقين أنهم داخلوها) فيوجه الزبانية اليهم هذا السؤال :

[أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون] ؟

بمعنى أنكم كنتم تصفون رسل الله الذين كانوا يخبرون فيما يخبرون عن جهنم بأنهم سحرة ، وأن ما يقولونه من كلام الله الذى يتحدث عن النار انما هو سحر ، فهل ما ترونه أمامكم الآن من النار سحر لا حقيقة له ؟ أم أنكم لا تبصرون هذه النار التى أمامكم ؟ وحيث أنهم لا يشكون فى رؤية جهنم بدليل أنهم خائفون من الاقـــدام عليها والملائكة يدفعونهم بشدة ليدخلوها فلم يبق اذن الا احتمال السحر ، وهو أن تكون هذه النـــار التى يدفعون اليها سحرا وليست حقيقة ، ولكن كل الشواهد ، وكل ما ينطق به الواقع يؤكد أنها النـــار الحقيقية التى كان رســـل الله ينذرونهم بها ، ويخوفونهم منها بكل أساليب التحذير ·

واذن فتخييرهم بين أن يحـددوا أهى سـحر أم عدم ابصـار ليس أسلوب حقيقة ، وانما هو سخرية تتضمن تذكيرهم بما صدر منهم من كفر وتكذيب لرسول الله الذى أرسله اليهم فى الدنيا ، وهذا التذكير ايلام نفسى شديد لهم ، حيث سيمتلئون ندما وحسرة على أنهم لم يتبعوا داعى الايمان والعقل فى حياتهم الدنيا ·

التعقيب :

وحيث لم يكن المقام مقام شك فى حقيقة النار التى يدفعون اليهـــا دن تعقيب الملائكة حينئذ كان بقولهم لهؤلاء المكذبين (اصلوها) بمعنى تحملوا عذابها ، ولو كان قول الملائكة (**أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون**) ؟ يراد به شىء من الحقيقة لكان التعقيب يدور حول الشك وطلب التجديد ، كأن يقال لهم : اجيبوا ، أو أن يجيب الملائكة نيابة عنهم بأنها نار حقيقيـة ولكن التعقيب كان اصلوها بمعنى أنه لا شك فى أنها النار التى كنتـم بها تكذبون ، فاصطلوها ·

ولكن من دقة تعبير القرآن فيما نلحظ تعبيرين فى سياق الصورة ، أحدهما لفظ المكذبين فى قوله تعالى (**فويل للمكذبين**) فهناك ألفاظ وصفات هى أشد وصما لهم مثل الكافرين والمشركين ، ولكن لما كانت الصورة الساخرة وهى (افسحر هذا) ؟ تتضمن كأنهم يشكون فى حقيقة النار كان

التمهيد الأنسب هو وصفهم بالتكذيب الذى صدر منهم فى الدنيا ، حيث انهم كانوا يكذبون بها ·

والتعبير الآخر هو (**انما تجزون ما كنتم تعملون**) فهذه المشاكلة بين الجزاء والعمل دقة مثيرة للمشاعر ، وهى ليست أسلوب حقيقة ، أما الحقيقة فهى أن العمل الذى عملوه هو الكفر والتكذيب ، والجزاء هـــو عقاب على هذا العمل الذى عصوا به ربهم ، وكان العقاب هو عذاب جهنم، فالجزاء ليس هو ذات العمل ، وانما هو عقاب على العمل ، ولكن أسلوب القرآن يجعل الجزاء هو العمل نفسه ، بتعبير (**انما تجزون ما كنتـــم تعملون**) من باب قوله تعالى (**وجزاء سيئة سيئة مثلها**) ·

وهذا المنهج فى الأسلوب يتضمن كأن عملهم وهو الكفر والتكذيب فى بشاعته وسوئه وهو عذاب وعقاب يشبه جهنم ، والهدف من ذلك واضح ، وهو شدة التنفير من هذا العمل ، حيث كانت الصيغة أن الجزاء هـــو ذات العمل بتعبير (**انما تجزون ما كنتم تعملون**) وحقيقة التعبير انمـــا تعاقبون على ما كنتم تعملون ، أو انما تجازون بهذا العقاب على ما كنتم تعملون ·

(٧)

ومن الصور الساخرة فى مشاهد العقاب قوله تعالى :

[**لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش** ··] (١٥)

اللغـــــة :

(مهاد) مادة المهاد تدور حول اللين والرقة واليسر ، فكل استعمالاتها فى أصل اللغة تدور حول الأشياء المريحة الميسرة ، ومنها :

(المهد) وهو فراش الصبى بالذات ، لأن أمه تختار له ألين وأوطأ ما تجد ·

(المهاد) الفراش ، ويراعى فيه أيضا أن يكون مريحا ممهدا كشأن ما يعده الانسان لنفسه لينام عليه ، فلا شك أنه سيهيء لنفسه أحسن ما يستطيع من وسيلة راحة ·

و (مهـد) الفراش بفتح الميم والهاء اذا بسطه ووطاه وهياه ليكون مريحـــا ·

---

(١٥) ٤١ سورة الأعراف ·

و (تمهيد) الأمور تسويتها واصلاحها لتكون ميسرة ·

و (تمهيد) العذر بسطه وقبوله ·

وهكذا فان لفظ المهاد وكل ما يشتق من مادته انما يدل فى لغة العرب على اليسر والراحة والنعمة ، والقرآن تكرر وصفه فى القرآن نفسه بأنه عربى ، وأنه بلسان عربى مبين ، ومع ذلك يصف جهنم بما فيها من نار وعذاب شديد بأنها (مهاد) فهل هذا أسلوب حقيقة ؟

(غواش) جمع غاشية ، والغاشية فى سرج الدابة كأنها غطاء له · والغشاء : بكسر الغين الغطاء وكذلك الغشاء بكسر الغين هى الغطاء ، ومنه غشاوة البصر أى ذهابه كأنه وضع عليه غطاء ·

وهكذا تدور هذه المادة حول الغطـاء ·

واذن فالدلالة العربية لهذين اللفظين أن للكافرين فى جهنم فراشا ناعما يريحهم وغطاء يقيهم البرد ·

السـياق :

وسياق الحديث هو عن الكافرين ، وعن عقابهم فى الآخرة ، ولكن أسلوب القرآن يحدد صفتين من صفات الكفر لهؤلاء الذين يرسم لهم هذه الصورة الساخرة ، وهاتان الصفتان هما فى قوله تعالى :

> **[ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح**
> **لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج**
> **الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين ،**
> **لهـم من جهنم مهـاد ومن فوقهم غواش وكذلك**
> **نجزى الظالمين] (١٦)**

وولوج الجمل دخوله ، وسم الخياط ، ثقب الابرة الذى يدخل منـه الخيط ليخاط به ، بمعنى تعليق دخولهم الجنة على مستحيل وهو دخول الجمل بضخامته فى ثقب الابرة على ضيقه ·

وأما الصفتان فهما التكذيب والكبرياء (**كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها**) فالكفر أنواع وأساليب ، وكفر هؤلاء كان بتكذيبهم بالله وآياته ثم استكبارهم عن الرضوخ للحق بعد وضوحه ، ومعنى ذلك أنهم ليسوا من

---

(١٦) ٤٠ ـ ٤١ سورة الأعراف ·

الاتباع ، ولا من عامة الناس ، وانما هم من السادة ، ومن الذين يملكون أن يحددوا سلوكهم ومواقفهم من تلقاء أنفسهم دون الرضوخ لأحد فى المجتمع ، وهذا ما يستفاد من وصف الكبرياء ، لأن الأتباع وعامة النــاس لا يوصفون بهـذا ٠

وهذه الملحوظة أثر من آثار دقة أسلوب القرآن ، فان وصف الكبرياء تمهيدا للصورة الساخرة ، حيث ان السخرية ستصف فراشا وثيرا ناعما يعد لهم فى جهنم ، والذين ينامون على فرش وثيرة لا يكونون فى العادة من الأتباع ولا من عامة الناس ، وانما يكونون من الخـــاصة ، ومن الطبقة المتميزة فى المجتمع ٠

الصـــورة :

[لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش]

حينما يسمع العربى هذا التعبير لأول وهلة فانه لا يشك فى أن هذا الشىء المهيأ هو فراش ناعم وثير ، قد أعد لتتوافر فيه الراحة ، والطمأنينة ، وان هؤلاء الذين هيىء لهم هذا الفراش اللين الوثير قد أعد لهم أيضا غطاء يتغطون به ، ومعنى ذلك ان المناخ المحيط بهذا الفراش بارد أو هو أقرب الى البرودة حيث يحتاج النائم فيه الى غطاء يتقى به البرد ٠

ولكن عقل السامع يعود سريعا الى الملابسات فيدرك أن الحديث عن عذاب جهنم ، وعن قوم كافرين بالله ، فلا يعقل أن يعد لهم فراش وثيـر ولا شىء مريح ، ولا يعقل أن يكون فى جهنم شىء من هذا أو قريب من هـــذا ٠

ومهما تبلغ سرعة تداعى الخواطر والأفكار فى ذهن السامع فلا شك أنه سيدرك المقصود بهذا كله ليس الحقيقة ، وانما هى السخرية والتهكم بهؤلاء الكافرين ، واثارة الحسرة والندم فى نفوسهم ، حيث تفتح لهـــم الصورةالساخرة بريقا من أمل خاطف زائل ، هو تصور فراش وثير ، ومناخ بارد يتقى بالغطاء ، ثم نوم عميق تحت هذا الغطاء ، فانه من المألوف أن يكون النوم فى فراش دافىء من حوله برودة يكون أعمق من النـــوم المباشر للحر أو البرد ، ولكن هذا الأمل الخاطف سرعان ما يتبدد فى صورة الواقع الذى يتلظى بنار جهنم وعذابها ، اذ يدركون أن هذا الفراش ليس الا نارا ، وأن الغطاء أيضا ليس الا نارا ، وأن هذا الأمل الخاطف الذى عرض لهم انما هو نوع من العـــذاب النفسى الذى يتمثل فى شـــعورهم

بالسخرية منهم ، وفى الحسرة والندم على أنهم كان يمكن أن يتمتعوا فعلا بهذا الأمل لو أنهم لم يكذبوا بآيات الله ولم يستكبروا عنها ·

وفى كل حال تبرز الصورة الساخرة ، صورة قوم يجرون جرا عنيفا مهينا الى نار جهنم ، والنار ماثلة بكل أهوالها أمامهم ، ولكن يقال لهم تعالوا الى هذا الفراش الناعم الوثير ، وهذا الغطاء الدافىء الذى يهيىء لكم فى هذا المكان نوما عميقا ، مع أن هذا المكان ليس الا جهنم ·

والهدف من هذا التصوير واضح ، وهو اثارة عقول السامعين للتفكير والتدبر فى حياتهم الدنيا ، قبل أن تفوت عليهم الفرصة بالموت ، وهو ليس تفكيرا مجردا ، وانما هو صورة مجسدة مما ينتظر المكذب الكافر فى الآخرة ، صورة لا يحتاج ادراك دلالتها الى ذكاء أو عمق تفكير ·

(٨)

ومن الصور الساخرة فى القرآن :

[ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين] (١٧)

والسخرية تتمثل فى مشهدين ، أحدهما فى الدنيا ، وقد كان بأسلوب النفى ، وهو :

[يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة]

حيث ان الاستجابة منفية ، والآخر من مشاهد القيامة ، وهو :

[واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ···]

السياق :

وسياق الصورة حوار ضمنى يدور حول عقيدة الشرك ، وعبادة آلهة غير الله ، وهؤلاء الآلهة بالقياس الى المخاطبين هى الأصنام التى كان يعبدها مشركو مكة الذين يخاطبهم القرآن مباشرة ، ويطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يحاورهم حوارا عقليا قريب المنطق رغم عمق

(١٧) ٥ ـ ٦ سورة الأحقاف ·

دلالته ، وهذا الحوار عن عبادتهم الأصنام ، حيث يطلب منهم فى صورة سؤال أن يستخدموا عقولهم وبصيرة كل منهم (أرأيتم) ؟ وذلك للتفكير أيضا فى سؤال آخر هو :

[ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات] ؟

وقد سبق الحديث عن أن هذه الصيغة انما هى سخرية من عقولهم ، لأن ظاهر السؤال هو الاستفسار عن نوع ما خلقته الأصنام ، وكأنها خلقت من الأرض شيئا يراد منهم أن يبينوه ، ويحددوا نوعه ، مع أن الحقيقة أنهم لم يخلقوا شيئا قط ، فكان المتوقع أن يكون السؤال نحو هل خلقوا من الأرض شيئا ، ولكنه صيغ بأسلوب السـخرية والتهكم ، ثم يقول لهم بأسلوب الحقيقة :

[ائتونى بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان

كنتم صادقين]

فليست لهم حجة قط من كتاب سماوى صحيح ، ولا من علم قويم تؤيد ما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله ٠

واذن فكل عقل سليم يرفض ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام، وقد كان القرآن حريصا على اثبات هذه الحقيقة وتوضيحها قبل أن ينتقل الى أسلوب التهكم بهم ٠

الصـــورة :

والصورة الساخرة فى المشهد الأول ٠٠

[٠٠٠ يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى

يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون]

فان ظاهر الكلام يتضمن تخيل المشرك الذى يعبد صنما وقد ظـل عاكفا على عبادة هذا الصنم ليس ساعة أو يوما أو وقتا مألوفا فى العبادة، بل وليس طوال حياته ، وانما يظل عاكفا عليه الى يوم القيامة ، يدعوه ويلح فى الدعاء منتظرا اجابته ، ولكنه لا يجد جوابا ٠

ويوم القيامة غير معروف الموعد ، ولكنه فى المتوقع لدى النـــاس لن يكون فى الجيل الحى ، ولا فى أجيال قريبة منه ، وحياة المرء مهمـا طالت فهى محصورة فى جيله ، وان تداخلت مع جيل لاحق ، أما أن يستمر انسان عدة أجيال ، أو الى يوم القيامة ، فهذا من باب المستحيل فى المألوف

ومعنى ذلك أن تصوير عبادة المشرك لصنمه ودعائه اياه الى يوم القيامة صورة لا يراد بها الحقيقة ، وانما يراد بها السخرية ٠

وجوهر السخرية فى الصورة أن نتمثل هذا المشرك وقد ظل الى يوم القيامة يدعو الهه ملحا فى الدعاء ، منتظرا اجابة ، فلا يجد ، لأن الحقيقة أن عدم الاجابة ليس متعلقا بالزمن، وانما بالآلهة أنفسهم، بمعنى أن الاجابة وعدمها ليست مرتبطة بطول زمن الدعاء أو قصره ، وانما هى مرتبطة بعجز الآلهة التى يعبدونها أصلا عن أية اجابة ، فمهما طال زمن الدعاء أو قصر فلن يجدوا منهم اجابة ، وقد كان أسلوب الحقيقة نحو ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستطيع الاجابة ولا يملكها ، ولكن الهدف ليس أسـلوب الحقيقة ، لأنه قد فرغ منه فى السياق فى الآية السابقة ، ووضح فى العقول السليمة بطلان عبادتهم لها ، فتأتى بعد ذلك السخرية منهم ٠

وأما الصورة الساخرة فى المشهد الثانى فهى :

[واذا حشر الناس كانوا لهم أعـداء]

فانها صورة ساخرة لا تراد حقيقتها ، فليس فى الآخرة نفع ولا ضرر اطلاقا لصداقة الأصدقاء أو عداوة الأعداء حينئذ ، اللهم الا اذا أريد بمتعة الصداقة زيادة الثواب ، وبحقد العداوة زيادة العقاب ، ولكن ذلك كلـه لن يكون نابعا من الآخرة ، وانما من الدنيا ، بمعنى أن هذه الزيادة فى الثواب أو العقاب لا تنشأ فى الآخرة ، وانما هى امتداد لعلاقات الدنيـا ، فأصدقاء الخير فى الدنيا تتحول صداقتهم فى الآخرة الى متعة ولذة ، وبالعكس الأعداء فى الشر ، أى الذين يكون موقفهما جميعا على شر ٠

والآلهة التى يعبدها المشركون لم تكن فى الدنيا عدوا للمشركين ، بل كان يفترض فيها أن تكون وليا حميما لهم لو كانت تعقل ، ولكن الذين كان يخاطبهم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعبدون أصناما لا تعقل ولا تعى شيئا ، ولا تتصور منها عداوة أو صداقة ، أو خير أو شر ، ولكن القرآن يسخر منها بوصفين ، أحدهما وصفها بالغفلة فى الدنيا :

[وهم عن دعائهم غافلون]

والغفلة وصف عيب ، وحين يوصف انسان بالغفلة أو بأنه مغفـل فانه ازدراء به وبموقفه الذى وصف فيه بأنه غافل ، والآلهة لا توصف بالغفلة ، لأن الغفلة فى حقيقتها نقص فى الادراك والوعى ، والآلهة فاقدة

للادراك والوعى أصلا ، فلا ينطبق عليها وصف الغفلة ، ووصفها فى القرآن بالغفلة انما هو من باب السخرية ، تشبها بالغافل ٠

والصفة الثانية سخرية أيضا ، حيث تتضمن تناقضا عجيبا بين حال الآلهة الذين ظلوا فى الدنيا الى يوم القيامة غافلين صامتين عن دعاء الذين يدعونهم ، ثم اذا هم يوم القيامة يتحركون وينفعلون فيصبحون أعداء لددا لعابديهم ، يجحدون ألوهية أنفسهم ، وينكرون عبادة عابديهم، فالطرافة والعجب فى هذا التناقض والتحول فى حال الآلهة ، وهذه الطرافة وهذا العجب هما موضع السخرية ٠

والعبرة من هذا التصوير واضحة ، وهى ايقاظ عقول المشركين ، ليدركوا أنهم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع فى الدنيا ، وما هو مصدر للعقاب الشديد والعذاب الأليم فى الآخرة ٠

(٩)

ومن مشاهد السخرية بالمشركين فى الآخرة قوله تعالى :

[··· ونسوق المجرمين الى جهنم وردا] (١٨)

اللغـــة :

السوق : بفتح السين المشددة هو سوق الماشية ، وهو تحريكها ودفعها ٠

والورد : بكسر الواو وسكون الراء من أبرز معانيه عند العرب استخدامه فى ورود الماء للماشية والقوافل ، وان كان أصل معناه الحضور، ولكن لندرة الماء فى البيئة أصبح الوصول اليه ذا أهمية ، وجعلت له ما يشبه الاصطلاحات اللغوية ، فاذا قيل لشخص مثلا أورد ابلك فانه يفهم بداهة التصريح له بأن يسوق ابله الى الماء لتشرب ٠

السـياق :

وسياق هذه الصورة موازنة بين المعاملة التى يلقاها المؤمنون والتى

(١٨) ٨٦ سورة مريم ٠

يلقاها المجرمون فى الآخرة ، فأما معـــاملة المؤمنين المتقين فهى تكريم وتقدير ، وذلك فى قوله تعالى :

[يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا] (١٩)

والوفد الجماعة القادمة ، والعرف يحدد اســتخدام هذا اللفظ فى القدوم على سلطة أو جهة عليا ، مثل : وفد فلان على الأمير ، أو أوفدهم الى كذا ، ومنه استخدام القرآن فى هذا التعبير (··· الى الرحمن وفدا) بمعنى تكريم المتقين بجعلهم فى صورة جماعة وافدة الى الله ، ويترتب على هذا عرفا كأن الله سبحانه يستقبلهم بترحيب وتكريم كاستقبال الوفود المألوفة فى حياة الناس ، واستقبال الترحيب والتكريم حق ، ولكن المجاز فى الاختلاف بين ذات الله وطريقة استقباله وبين غيره على الاطلاق ·

وهذا التكريم الذى يستقبل به المؤمنون فى الآخرة جــزء من العقاب النفسى يومئذ للكافرين ، فانهم حين يرون هذا التكريم لآخرين وخصــوصا لأناس يعرفونهم ، وكانوا يحتقرونهم ويسخرون منهـــم فى الدنيا حينئذ يزدادون خزيا وحسرة وألما نفسيا ·

الصـــورة :

[ونسوق المجرمين الى جهنم وردا]

فهذا التعبير يصورهم فى صورة قطيع من الماشية يساق الى الماء ليشرب والصورة تنطق بالسخرية البالغة بهم ، فهم كانوا فى الدنيا بالقياس الى المؤمنين هم أصحاب القوة والجاه والغلبة كالشأن بين المؤمنين والكافرين فى كل العصور ، فاذا هم يجدون الوضع مقلوبا يوم القيامة ، يجدون المؤمنين وفدا مكرما معززا مدعوا ليستقبله تكريم الله ، بينما هم مسوقون سوقا كالماشية الى هوان وعذاب مقيم ·

فكيف يتحول المؤمنون الضعاف الأذلة الى وفد مكرم معزز قادم على ملك الملوك ، وواحد السموات والأرض ، وقيوم الدنيا والآخرة ، بينما هم تحولوا الى قطيع من الماشية مسوق سوقا ، وليته مسوقا الى ماء أو مرعى، وانما الى نار تتلظى ؟ هذا ما يشقى به هؤلاء المجرمون أيما شقاء · وهذه الموازنة فى الآيتين المقترنتين

[يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ، ونسوق المجرمين الى جهنم وردا]

---

(١٩) ٨٥ سورة مريم ·

ومن الصور الساخرة فى مشاهد الآخرة فى القرآن :

[وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين اضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقـــدامنا ليكونا من الأسفلين] (٢٠)

السـيـاق :

وسياق هذه الصورة يبرز آفاقا أوسع من نطاق الصورة ، ويوضح أيضا الأسباب والملابسات التى ترتكز عليها الصورة ٠

وذلك أن من أكبر المشاكل والعقبات التى تعترض الأديان السماوية فى كل العصور ليس معارضة المعارضين ، أو انكار المنكرين فحسب ، وانما العقبة الكبرى هى وجود قيادات اجتماعية ضالة ، ترى فى الدين تهديدا لمنافعها ، وسلبا لمجدها وســيادتها ، فتتصدى لحـــرب الدين والمؤمنين به ٠

ومما يؤسف له صدق العبارة المأثورة (الناس على دين ملوكهم) فان العامة دائما يلهثون وراء القادة ، وينقادون لهم دون وعى أو تفكير ، وحتى ان وضح لهم الحق فان انقيادهم سواء عن طواعية ، أو عن خضوع يكون أقوى من الرغبة فى الاتجاه الى الحق ، لأنه من المعروف فى عـــلم النفس الاجتماعى أن من طبيعة الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع صغر أو كبر وجود قيادة فى المجتمع ، ومعنى ذلك أن انقياد الجماعة لقيادتها أمر طبعى ، فوجود قيادة ومنقادين فى كل مجتمع أمر غير مصطنع ولا متكلف، وانما هو من طبيعة التكوين الاجتماعى ٠

وهذه القيادات هى التى تتصدى فى العـــادة للدين ، ولكل دعوة أصلاح ، لأنها ترى فى هذا تهديدا أو سلبا لمزاياها ٠

والقرآن يكرر كثيرا لفت الأنظار الى خطورة هـــذا ، ويكرر تنبيه الأتباع وتحذيرهم من انقيادهم دون فكر أو وعى وراء هذه القيادات ، ومن ذلك هذه الصورة وملابساتها ٠

---

(٢٠) سورة فصلت ٠

فاما ملابسات الصورة فان القرآن يوضح فيها فى سياق الحديث عن الكافرين أن الله سبحانه هيأ وقدر لهم أشخاصا يعملون على اضلالهم واغوائهم حتى يحيدوا عن طريق الله ، ومن اضلالهم واغوائهم اياهم أن يصرفوهم عن تدبر القرآن ووعيه ، لأنه كان أسرع وأعظم وسيلة لنشر الاسلام ، وتعميق الايمان ، فيبذل هؤلاء المضللون كل وسيلة يحاولون بها تشويه القرآن ليصرفوا العامة عن الاستماع اليه ، والتعبير عن ذلك فى قوله تعالى :

[وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين ، وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون ، ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون] (٢١)

وقيضنا لهم بمعنى قدرنا وهيأنا لهم ، وقرناء بمعنى أصحاب والكافرون الذين يأمرون بعدم سماع القرآن من الواضح أنهم أصحاب جاه ونفوذ حتى يأمروا فيطاعوا ، وهى اشارة الى السادة فى المجتمع :

[وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ...]

واذن فالآيات تحدد مصدرين للغواية والاضلال ، وهما الأصدقاء والسادة ، الأصدقاء من عوامل اضلال السادة ، والسادة من عوامل اضلال العامة :

١ ـ فأما الأصدقاء فاهميتهم وخطورتهم فى التأثير فى العلاقات واضحة لا تحتاج الى بسطة فى القول ، وفى الحديث الشريف :

(المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)

ومعظم التغير فى سلوك الأفراد سواء الى الحسن أو الى السىء انما يأتى من الأصدقاء والخلان ، ولذلك يعتمد أصحاب الدعوات الدينية ودعوات الاصلاح على العلاقات الشخصية ، ويوصون أتباعهم بالاعتماد

---

(٢١) ٢٥ ـ ٢٨ سورة فصلت .

عليها فى كسب الأصحاب والاتباع ونشر المبادىء ، والأسلوب نفسه يتبعه الذين يريدون نشر الفساد سواء فى المذهب أو السلوك ، والقرآن يوضح هذه الحقيقة منبها اليها فى العديد من مواضعه ، بل ينبه الى جنس آخر من الأصدقاء وغالبا ما يكون من أصدقاء الشر والسوء ، وهو جنس الشياطين ، شياطين الجن ، ومن ذلك قوله تعالى :

[ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين] (٢٢)

والقرين الصاحب ، وبئست هذه الصحبة كما يعبر القرآن :

[ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا] (٢٣)

وصحبة الشياطين والجن بعامة ليست غريبة على أسماع الناس وان لم يملكوا عليها دليلا ماديا ، ومن ذلك ما كان يعرف عند العرب بأن لكل شاعر صاحبا من الجن يلهمه الشعر ويمليه عليه ، كما يقول شاعرهم :

انى وكل شاعر من البشر   شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

يعنى أن شعر الشعراء الآخرين ضعيف لأن شياطينهم اناث ، أما شعره هو فقوى لأن شيطانه ذكر ، ولكن فى كل حال لكل شاعر شيطان يصاحبه فى شعره ٠

وأما شياطين الانس الذين يزينون لأصدقائهم وقرنائهم كل شر وسوء فان القرآن يتحدث عنهم كثيرا بأساليب مختلفة ، ومنها هذه الصورة عن أحد المؤمنين ، حين يتسامر فى الجنة مع أصدقاء الايمان ، فيتذكر صديقا شريرا كان يزين له الكفر حتى كاد يغويه ، وفى القرآن عن هذه الصورة :

[فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم أنى كان لى قرين ، يقول أئنك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون ، قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ٠ قال تالله ان كدت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت من من المحضرين ، أفما نحن بميتين ، الا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين] (٢٤) ٠

---

(٢٢) ٣٦ سورة الزخرف ٠
(٢٣) ٣٨ سورة النساء ٠
(٢٤) ٥٠ ــ ٥٩ سورة الصافات ٠

وفى حديث المؤمن الى قرينه الكافر سخرية واضحة ، حيث يذكره بما كان يعتقده ويحاول أن يغرى أصدقاءه باعتقاده ، وهو أنه لا توجد الا موتة واحدة لا حياة بعدها ولا ثواب ولا عقاب بعد الموت ، وحيث انه بعث فعلا بعد الموت ، وهو الآن فى العذاب الذى كان ينكر وجوده ، فان قرينهالمؤمن يسخر منه قائلا :

[أفما نحن بميتين ، الا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين] ؟

ووجه السخرية أن السؤال غير حقيقى ، لأنه لا يقصد السؤال عن مدى صدق حديث البعث والعذاب ، فانهما يكونان قد وقعا حينئذ فعلا ، وانما يقصد السخرية من عقيدة قرينه الذى أوشك أن يخدعه وأن يشركه فى ضلاله ، كما يقول له :

[··· تالله أن كدت لتردين]

أى كدت تهلكنى ·

وتسلسل الاضلال فى سياق الصورة الساخرة التى نحن معها يشير الى جانبين ، جانب اضلال السادة ، ومصدره القرناء ، والذى يشير الى أن المراد بهم السادة أنهم بعد ذلك سيخاطبون غيرهم بلهجة الأمر طالبين منهم عدم الاستماع الى القرآن ، والأمر لا يصدر عادة الا من الأعلى ، والجانب الثانى هو اضلال العامة ، ومصدره السادة وهم هؤلاء الذين يصدرون أوامرهم بعدم الاستماع الى القرآن ، وذلك فى قوله تعالى:

[وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس أنهم كانوا خاسرين ، وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون] (٢٥)

والاشارة فى تعبير (لا تسمعوا لهذا القرآن) تتضمن تهوينا وتحقيرا من هؤلاء الكافرين للقرآن ، وهذا يقوى ترجيح كون المراد بهم السادة لأنهم الذين يتعالون ويتكبرون ·

الصورة :

[وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين اضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت اقدامنا ليكونا من الأسفلين] (٢٦)

---

(٢٥) ٢٦ سورة فصلت

(٢٦) ٢٧ سورة فصلت ·

والسخرية فى الصورة من وجوه :

١ ـ اصبح هؤلاء الكافرون مؤمنين بالله ، ولذلك لجأوا اليه داعين يقولون (ربنا ٠٠٠) واعترفوا بضلالهم بعدما كانوا عليه فى الدنيا من الكفر ٠

٢ ـ ما طلبوه ليكون عقابا للذين أضلوهم فى حقيقته ليس عقابا بالقياس الى ما فيه هؤلاء الذين أضلوهم لأنهم بطبيعة الحال غارقون فى ألوان العذاب البدنى والنفسى فى جهنم فالاتيان بهم وجعلهم تحت الأقدام لن يزيدهم عذابا جسيما أو نفسيا وانما هى السخرية بهم وبالذين أضلوهم، لنتصورهم وهم أذلاء تحت الاقدام ، والكافرون يتشفون فيهم بمحاولة سحقهم بأقدامهم ، رغم أن هذا لن يتحقق ، لأن الله لن يستجيب لدعاء من الكافرين يومئذ اطلاقا ٠

٣ ـ ومن وجوه السخرية أيضا تصوير شيء من حال هؤلاء الكافرين من السادة فى الدنيا وقد تصوروا أنهم ما زالوا سادة يستطيعون أن يطأوا أحدا بأقدامهم ، وأنهم ما زالوا فى الوضع الأعلى ، وأنهم يملكون أن يجعلوا غيرهم أسفل منهم كما يقولون :

[٠٠٠ نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين]

فالصورة لا يراد بها بيان عذاب ، أو زيادة ايلام ، وانما يبدو فيها ندم الكافرين على أنهم اتبعوا الذين أضلوهم من الانس والجن فاستجابوا لاغوائهم ، وهم لا يملكون أن يعذبهم ، لأن العذاب حينئذ بيد الله وحده ، ولكنهم يتصورون أنهم يملكون ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من اذلال من يريدون اذلاله ، ومنه هذه الصورة ، صورة أن يبطش الى الأرض بمن يريد البطش به ، ثم يطأه بقدمه ، متشفيا فيه ، ومتعاليا عليه ، ومذلا له ، ومن اليقين أن شيئا من هذا لن يحدث ، فلا الله مستجيب لهم ، ولا هم يستطيعون ذلك يومئذ ، ولكنه أسلوب السخرية ٠

والعبرة فى الصورة واضحة ، وهى تنبيه الذين يتأثرون باغواء غيرهم ومحاولة اضلاله اياهم ، وتذكيرهم بأنهم سيندمون يوم القيامة على انقيادهم لأحد فى الضلال ، ولكن لن ينفعهم ندم ٠

فهرس

استدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٤	المشهور	المشهور بمثل قوله
٩	١	والعاداتت	والعادات
١٤	٧	المؤمنين	المؤمنون
١٨	١٨	وتجد نفسك	وتجد فى نفسك
١٩	٢٤	نفسها من	نفسها نوع من
٢٣	٣١	اذاته	لذاته
٢٣	٣٥	أعداء	أعداءه
٢٤	٣	سواف	ســواء
٣٤	٢٣	ذلك القرآن	ذلك فى القرآن
٣٥	١٣	هــو	هى
٣٥	٢٣	الله ما	الله وما
٣٦	١٥	صورة	صوره
٣٩	١٦	الرئيسى	الرئيس
٤٩	١	زاء	ازاء
٥٢	١٦	يعرض	ويعرض
٥٩	٢٧	يؤمنوا	تؤمنوا
٦٢	٤	الا كان	الا اذا كان
٢٣	٢٨	فصاغو	فصاغوه
٦٦	١٧	ويجتذبه به	ويجتذبه
٦٦	٢٧	وايجازة	وايجازه
٦٧	٤	شئلت	سئلت
٦٩	٨	التعاوض	التعارض
٧٢	٢٢	أو تأكيدا	أو كيدا
٨٠	٢٣	حبت	خبت
٨١	٥	والصم	والصمم
٨٢	٢٠	وبدلا أن	وبدلا من أن
٨٥	١١	ولكنهم بدل	ولكنهم بدلا
٨٦	٣	فى هذه الخصومة من لا تستطيع	فى هذه الخصومة ، ولكن الخصومة بالقياس الى الله ليست متصورة على حقيقتها، وحين يمثل سبحانه موقفه

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصواب
٨٦	٤	من لا تستطيع ... الخ	هذا السطر يحذف كله
٨٦	٢٦	من الطين	من البـدء
٨٩	٧	يراه	يراها
٩٥	٢٧	المملوح	الملمـوح
١٠٠	٢٣	الى اكتشاف	الى أن اكتشاف
١١٤	٢٠	الاله	الألد
١٢٧	١٨	ونسبة	ونسبته
١٢٨	٨	كالرومانى	كالرمانى
١٣٣	٨	السابقة	السابقتين
١٣٣	١٩	وخصوصا	خصوصا
١٣٤	٧	المنبعث	المرتد
١٣٦	١٤	الكافررون	الكافرون
١٣٩	٢٣	خائنين	خائبين
١٤٠	٣	صيضة والصيصة	صيصية والصيصية
١٤٠	٦ ، ٧	صيصة	صيصية
١٤٣	١٣	مغفـل	مغفـول
١٤٧	٦	ملوك	سلوك
١٥٢	٢٩	أمام الدين	أمام انتشار الدين
١٥٢	٢٩	سلطة	بسطة
١٥٢	٣١	يكون	يكونون
١٥٤	٢	الطرافة	الطرافة
١٥٩	٢٦	عقـاب	عقابه
١٦٠	٧	بآيات	بآيات الله
١٦٢	١	الناس	للناس
١٦٢	٣	ومفردة	ومفرده
١٦٦	٢٠	التعبير	تعبير
١٦٧	٨	الله	لله
١٦٧	١٩	أحـد	أحـدا
١٧٠	٢	وخافوا	يخافوا
١٧٠	١٨	يصدر	تصدر

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصواب
١٧٩	٦	الصورة	الصور
١٨٢	٣	فى الذهن حيوان	فى الذهن صورة حيوان
١٨٢	٢٠	خطر	خطرا
١٨٤	١٠	فيعتمدون	فيتعمدون
١٨٧	٢٢	ينحو	ينحوا
١٩١	الأخير	كالرش	كالرسن
١٩٤	١٥	بأنها لم	بأنها ان لم
١٩٤	٢٣	الحقيقى لا جموحها	الحقيقى لا تختلف عن أية دابة تحمـل الحطب ، وفى جيدها حبل مفتول فتلا قويا ليكبح جموحها .
١٩٧	١٢	الموضوعة	الموضوعية
١٩٩	٢٤	عليها ولا على غيرهما	عليهم ولا على غيرهم
٢٠١	٦	ومقامات	ومقاماتهم
٢٠٦	١٩	الطريق	الطريف
٢١٤	٥	ولكن درجات	ولكن الاذلال درجات
٢١٤	١٩	وهى	وهـــو
٢١٦	٧	مفردة	مفرده
٢١٩	١٧	ينظرون	ينتظرون
٢٢١	٢٤	توسعة	توسعه
٢٢٢	٣	ينساقون	ينساقوا
٢٢٤	١٠	يضع	يضيع
٢٢٧	٢٢	دن	فان
٢٢٧	٢٤	التجديد	التحديد
٢٢٨	١١	وهو	هـــو
٢٢٩	٨	الغشاء	الغشاوة
٢٣٠	٢٢	سيدرك المقصود	سيدرك أن المقصود
٢٣٣	٢٨	ازدراء	ازراء
٢٣٤	٢	تشبها	تشبيها
٢٤٠	١٩	يعذبهم	يعذبوهم
٢٤٠	٢٢	مذلا له	ومذ لا اياه

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ١٨٨٣/١٩٩٢

ISBN — 977 — 01 — 2965 — 8